473

ليليّات

خمس قصص عن الموسيقى وحلول الليل

مكتبة

كازو إيشيغورو

ترجمة: مازن معروف

مكتبة 473

ليليّات

الطبعة العربية الأولى عام ٢٠١٨

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
صندوق بريد ٥٨٢٥
الدوحة، دولة قطر

www.hbkupress.com

Nocturnes
First published in 2009 by Faber and Faber Limited.
Text Copyright © Kazuo Ishiguro, 2009
Kazuo Ishiguro's photo © Jeff Cottendan

Cover photo: Alenavlad / Shutterstock.com

حقوق الترجمة © مازن معروف، ٢٠١٨
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة.

مكتبة

t.me/ktabrwaya

٢٠١٩٦٢٨

مكتبة قطر الوطنية ببيانات الفهرسة– أثناء– النشر (فان)

كازو، إيشيغورو ،1954- مؤلف.
الترقيم الدولي: ٩٧٨٩٩٢٧١٢٩٤١٤

[Nocturnes]. Arabic

ليليات : خمس قصص في الموسيقى و حلول الليل / تأليف إيشيغورو كازو ؛ ترجمة مازن معروف. – الطبعة العربية الأولى.

الدوحة : دار جامعة حمد بن خليفة للنشر ، 2018.

صفحة ؛ سم

تدمك : 978-9927-129-41-4

ترجمة كتاب: .Nocturnes

1. الموسيقيون -- قصص. 2. الموسيقى -- قصص. 3. القصص الإنجليزية القصيرة -- مترجمات إلى العربية. 4. القصص الموسيقية 5. القصص القصيرة. ب. معروف ، مازن ، مترجم. ج. العنوان.

PR6059.S5 N63125 2018

892.736– dc23

201827046795

ليليّات

خمس قصص عن الموسيقى وحلول الليل

مكتبة | 473

كازو إيشيغورو

ترجمة: مازن معروف

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

المغنِّي العذْب

في صباح اليوم الذي رأيت فيه طوني غاردنر آخذًا مقعدًا وسط السائحين، كان الربيع قد حط رحاله توًّا في البندقية. كان قد مضى أسبوع واحد على انتقالنا إلى الخارج بحيث نطل على الساحة - والأمر، دعني أقلْ، بعث على الراحة، بعد قضائنا ساعات خانقة عازفين في القسم الخلفي من المقهى، معترضين، حيث نقف، طريق الزبائن ممن رغبوا في استخدام الدرج. كان يمكن للمرء الشعور بالنسيم في ذلك الصباح، أما ظُلَّة المقهى التي كانت جديدة تمامًا، فأخذت تصفق من حولنا، لكنَّا شعرنا بالزهو بعض الشيء والنشاط المفعم، وأظن أن ذلك كان منعكسًا في موسيقانا.

لكني أتحدث هنا كمجرد عضو في فرقة لا يتميز عن غيره في أي شيء. الواقع، إنني لست سوى أحد أولئك «الغجر»، كما يسمينا الموسيقيون هنا، ممن يطوفون في الساحة، لدعم فرق المقاهي الثلاث الموسيقية، إذا ما دعت الحاجة لذلك. في الغالب، أعزف في كافيه لافينا، لكن في فترة ما بعد الظهيرة، حيث الزحام الشديد، قد يحدث أن أقدم عرضًا مع شباب كوادري، وانتقل إلى فلوريان، قبل عودتي عبر الساحة إلى لافينا. أنسجم معهم جيِّدًا - كما النُدُل أيضًا - ولو كنت في مدينة أخرى، لأصبح لي مكان دائم. ولكن في هذا المكان، فإن هاجس التقليد والماضي يطغى، ليقلب كل شيء رأسًا على عقب. في أي مكان آخر، سيكون في صالح المرء كثيرًا أن يكون لاعب غيتار، لكن هنا؟ غيتار! الأمر كفيل باثارة قلق مدراء المقاهي، إذ أنه من علامات الحداثة، والسائحون لن

يكونوا راغبين في ذلك. لكني حصلت في الخريف الماضي، على غيتار قديم ونموذجي مناسب للجاز، بفتحة بيضويّة، من النوع الذي يمكن أن يكون دجانغو راينهارت بنفسه قد عزف عليه، بحيث لا يعود هنالك مجال لأحد لأن يخلط بيني وبين عازفي الروك أند رول. ما سهل المسألة عليَّ قليلًا، لكنه لم يخفف من عدم رغبة مديري المقاهي بهذه الآلات. والحقيقة هي أنه حتى لو كنتَ جو باس نفسه، فإن من المستحيل أن تُمنحَ وظيفة ثابتة في هذه الساحة.

هناك أيضًا، بالطبع، نقطة صغيرة تتعلق بكوني غير إيطالي، فضلًا عن أني لست من البندقية. الأمر عينه بالنسبة إلى الرجل التشيكي الضخم عازف الساكس الألتو. فنحن مرغوبان جدًّا، وجميع الموسيقيين يحتاجون إلينا، غير أنَّا لا نطابق الشروط بحسب القوانين الرسمية. اعزف وأبقِ فمك مقفلًا، هذا ما يقوله دومًا مدراء المقاهي. بهذه الطريقة لن يعلم السائحون بأنك لست ايطاليًا. ارتدِ بدلة، وضع نظَّارة شمسية، ومشط شعرك إلى الخلف، عندها لن يعرف أحد الفرق، فقط لا تتلفظ بحرف.

لكني أبلي بلاءً حسنًا في العموم. فجميع فرق المقاهي الثلاث، خصوصًا حين يعزفون في الوقت نفسه تحت الخيمات المتنافسة، تكون بحاجة إلى غيتار - أحيانًا عاطفي، قاس، لكن مضخَّم، بضربات وترية قوية في الخلفية. لا بدَّ من أنك تفكر الآن في أن عزف ثلاث فرق بشكل متزامن، وفي الساحة نفسها، سيتحوَّل حكمًا إلى فوضى حقيقية. غير أن ساحة سان ماركو فسيحة بما يكفي لاستيعاب الفرق كلها. وإذا ما تنزه سائح في الساحة، فسوف يبدو له الأمر أن نغمة ينخفض صوتها، ونغمة ترتفع، كما لو أنه يدير قرص الراديو. ما لا يتحمله السائحون هو المقطوعات الكلاسيكية، تلك الألحان الشهيرة التي تُعزف على آلات وترية. حسنًا، هذه هي سان ماركو، حيث لا أحد يرغب في سماع أحدث أغاني البوب، وإنما يريدون كل بضع دقائق لحنًا ما بإمكانهم تمييزه، لحنًا ربما لجولي أندروز، أو موسيقى فيلم شهير. أتذكر أنني في إحدى المرات، خلال الصيف الماضي، تنقلت تسع مرات من فرقة إلى فرقة أعزف موسيقى «العراب» وذلك في فترة ما بعد الظهيرة.

على أية حال، في تلك الساحة كنا في صباح ذلك اليوم من فصل الربيع، نعزف لحشد لا بأس به من السائحين، عندما رصدت طوني غاردنر جالسًا بمفرده يحتسي قهوته، أمامنا بشكل مباشر تقريبًا، على بعد ستة أمتار من خيمتنا الكبيرة. غالبًا ما نحظى ببعض المشاهير في الساحة، إلا أننا نأخذ الأمر على نحو طبيعي. قد يتبادل أعضاء الفرقة بعض الكلمات، في هدوء، عند نهاية العرض. انظروا، إنه وارن بيتي. انظروا، ذلك كسينجر. وتلك المرأة، إنها ممثلة الفيلم الذي يدور حول رجلين يبدِّلان وجهيهما. معتادون على ذلك. فنحن في ساحة سان ماركو في نهاية المطاف. لكني عندما أدركت بأنه طوني غاردنر الجالس هناك، كان الأمر مختلفًا تمامًا، وأثار حماستي.

لطالما كان طوني غاردنر المغني المفضل لأمي. وفي بلادي، في فترة الحكم الشيوعي، كان الحصول على ألبومات من ذلك النوع، يعدُّ أمرًا صعبًا للغاية، غير أن والدتي احتفظت بمجموعته كلها. في إحدى المرات، وكنت لا أزال صبيًّا، خدشت أحد تلك الألبومات الثمينة. فشقتنا كانت ضيقة للغاية، ولو كنتَ صبيًّا في عمري، فلا بدَّ من أن ترغب في التحرُّك هنا وهناك من حين إلى آخر، خصوصًا خلال أشهر البرد حيث لا يكون في مقدورك اللعب في الخارج. كنت حينها أسلِّي نفسي بالقفز من الصوفا الصغيرة إلى الكرسي، لكني أسأت التقدير في إحدى المرات، فصدمت الفونوغراف بالخطأ. مضت الإبرة عبر الإسطوانة مخلِّفة خطًّا على شكل سحَّاب - هذا قبل وقت طويل من اختراع الأقراص المدمجة - فهرعت والدتي من المطبخ وأخذت تصرخ في وجهي، فتولد لديَّ شعور سيئٌ للغاية. لا لأنها صرخت في وجهي بل لأنني كنت أعرف بأنها إحدى أسطوانات طوني غاردنر وكم يعني ذلك لها. كذلك أدركت أنها قد أصبحت إحدى الأسطوانات التي ستصدر عنها من الآن فصاعدًا خشخشة مزعجة، كلما شغلتها أمي لسماعه يؤدي تلك الأغاني الأميركية. بعد مرور سنوات على ذلك، وأثناء عملي في وارسو، واستدلالي على الأسطوانات التي تباع في السوق السوداء، أحضرت لأمي أسطوانات لطوني غاردنر كبديل عن كل

ألبوماته البالية، بما في ذلك الأسطوانة التي خدشتها. استغرقني الأمر أكثر من ثلاث سنوات، لكني عملتُ على الحصول عليها، أسطوانة تلو الأخرى، وكلما قدمت لزيارتها، يكون بصحبتي أسطوانة ما.

لهذا السبب بإمكانك أن ترى لِمَ تحمستُ كثيرًا ما إن ميزته على بعد ستة أمتار تقريبًا. لم أصدق عيني بداية، والأرجح أنني تأخرت على إيقاع الأغنية أثناء تغييري المقام. طوني غاردنر! ما الذي كان يمكن أن تقوله أمي الحبيبة له لو أنها علمت مسبقًا بذلك! من أجلها، ومن أجل ذكراها، وجب عليَّ التوجه إليه وقول شيء ما له، ولن أكترث إذا ما ضحك الموسيقيون الآخرون كوني أتصرف مثل خادم فندق.

لم أستطع طبعًا أن أهرع إليه فورًا بدفعي الطاولات والكراسي جانبًا. فقد كنا ملزمين بإنهاء وصلتنا. ودعني أقلْ لك إن الأمر كان عذابًا، إذ كان لا يزال أمامنا ثلاث نُمَر، أو أربع، ومع مرور كل ثانية خُيِّل لي بأنه على وشك أن ينهض ويغادر. لكنه بقي جالسًا في كرسيه، بمفرده، محدِّقًا إلى قهوته، يحركها كأنه في حيرة من أمره أمام هذا الشيء الذي أحضره النادل. بدا كأي سائح أميركي آخر بقميصه البولو الأزرق الشاحب وبنطلونه الرمادي الفضفاض. أما شعره، الداكن، والشديد اللمعان الذي كنت تراه على غلاف تلك الأسطوانات، فغدا تقريبًا أبيض الآن، إلا أن أغلبه كان لا يزال نابتًا، وقد سرحه بشكل منتظم، وبالطريقة نفسها التي كان عليها في السابق. وحين وقعت عيناي عليه أول مرة، كان ممسكًا بنظارته السوداء في يده - أشك في أنني كنت لأميزه خلاف ذلك - لكن ومع مضي وصلتنا الموسيقية لم أكف عن مراقبته، وقد وضع النظارة على وجهه، ثم خلعها من جديد، ليعاود الكرَّة مرة أخرى. بدا منشغل البال وخاب أملي أنه لم يكن يصغي فعلًا لموسيقانا.

انتهت وصلتنا بعدها، فسارعت إلى الخروج من الخيمة من دون أن أكلم أيًّا من أعضاء الفرقة الآخرين، لأشق طريقي باتجاه طاولة طوني غاردنر. لكن الذعر أصابني للحظة، إذ كنت أجهل كيف يمكن أن أفتح حديثًا معه. وقفت

وراءه، لكنه بحاسته الخفية، استدار ناظرًا إلى وجهي - برأيي فإن لديه خبرة سنوات وسنوات في رصد المعجبين حين يقتربون منه - وبالتالي، كان عليَّ الآن أن أقدم نفسي له، مفسرًا مدى إعجابي به، وبأنني عضو في الفرقة التي استمع إليها للتو، وأشرح كم كانت والدتي معجبة به؛ كل ذلك دفعة واحدة وبسرعة. استمع إليَّ بملامح رزينة على وجهه، وكان يومئ برأسه كل بضع ثوان كما لو أنه طبيبي. بقيت أتحدث وكان يقول بين الحين والآخر: «هكذا؟»، إلى أن شعرت بأنه حان الوقت لأدعه وشأنه. وما إن بدأت بالابتعاد عنه حتى قال:

- أنت آتٍ إذن من أحد البلاد الشيوعية. لا بدَّ من أن ذلك كان صعبًا.

قلت: «كله من الماضي»، رافعًا كتفيَّ ببهجة، «إننا الآن بلد حر. يتحلى بالديمقراطية».

- من المثير سماع هذا. وتلك هي فرقتك التي كانت تعزف لنا. اجلس. أتريد قهوة؟

قلت له إنني لا أريد أن أفرض نفسي، لكن بدا أن ثمة شيئًا في السيد غاردنر يلحُّ على المرء بدماثة. «لا، لا، اجلس. كنت تقول إن والدتك أحبت ألبوماتي».

هكذا، جلست معه وأخبرته بتفاصيل أكثر. عن أمي، شقتنا، الألبومات التي تباع في السوق السوداء. ورغم أنني لم أستطع تذكر كل عناوين ألبوماته، إلا أنني رحت أصف له الصور على أغلفتها بحسب ما أتذكره. وفيما كنت أفعل ذلك كان يرفع إصبعه في الهواء قائلًا شيئًا من قبيل: «آه، كان ذلك شيئًا لا يضاهى. طوني غاردنر الذي لا يضاهى». أعتقد أن كلينا استمتع بهذه اللعبة على حد سواء، لكني لاحظت بعدها أن نظرة غاردنر انحرفت عني، فاستدرت في اللحظة المناسبة لأرى امرأة متجهة إلى مائدتنا.

كانت إحدى أولئك السيدات الأميركيات اللواتي تتمتعن بأناقة كبيرة، شخصية وهندامًا، بتسريحة شعر لافتة، إذ أنك لا تدرك بأنهن لسن شابات إلا حين يصبحن على مسافة قريبة جدًّا منك. أما عن بعد، فكان يمكن أن أظن بأنها عارضة من إحدى مجلات الأزياء اللماعة. ولكن حين جلست بجانب السيد

غاردنر ورفعت نظارتها السوداء إلى جبينها، أدركت أن عمرها خمسون عامًا على الأقل، وربما أكثر. قال السيد غاردنر: «أقدم لك ليندي، زوجتي».

شعَّ وجه السيدة غاردنر بابتسامة قسرية نوعًا ما، ثم قالت لزوجها: «من هذا؟ أرى أنك وجدت لنفسك صديقًا».

«هذا صحيح، حبيبتي. لقد استمتعت بالحديث معه.. آسف يا صديقي، أنا لا أعرف اسمك بعد».

«جان»، قلت بسرعة، «لكن الأصدقاء يدعونني جانيك».

قالت ليندي غاردنر: «هل تعني أن لقبك أطول من اسمك الحقيقي؟ كيف يمكن ذلك؟».

- لا تعاملي الرجل بفظاظة حبيبتي.
- لست فظة.
- «لا تسخري من اسم الرجل، حبيبتي. إنها فتاة جيدة»، قال وقد استدارت ليندي غاردنر نحوي راسمة على وجهها تعبير من لا حول له ولا قوة.
- هل لديك فكرة عمَّ يتحدث؟ هل شعرت بأنني أهنتك؟
- «لا، لا»، قلت، «إطلاقًا، سيدة غاردنر».
- «يقول لي دومًا إنني فظة مع الجمهور. لكني لست كذلك. هل عاملتك بفظاظة؟». ثم قالت للسيد غاردنر: «إنني أتحدث إلى الجمهور على نحو طبيعي يا حبيبي. هذه طريقتي. أنا لست فظة بأي شكل من الأشكال».
- «حسنًا حبيبتي»، قال السيد غاردنر، «دعونا لا نجعل من الأمر مسألة كبيرة. هذا الرجل، على أية حال، ليس جمهورًا».
- أوه، إنه ليس كذلك؟ من يكون إذن؟ ابن أخيك الذي فقد أثره منذ زمن طويل؟

- «كوني لطيفة حبيبتي. هذا الرجل، إنه زميل مهنة. موسيقي، محترف. لقد رفَّه عنا هنا»، قال مشيرًا إلى خيمتنا.
- «حسنًا». استدارت ليندي غاردنر صوبي مرة أخرى.
- هل كنت واحدًا ممن كانوا يعزفون توًّا؟ حسنًا، لقد كان ذلك جميلًا. أنت عازف أكورديون، أليس كذلك؟ جميل فعلًا!
- شكرًا جزيلًا لك. الواقع أنني عازف غيتار.
- عازف غيتار؟ أنت تمزح. لقد رأيتك قبل دقيقة، جالسًا هناك بجانب عازف الكونترباص، لعبت بشكل جميل للغاية على الأكورديون.
- عذرًا، في الواقع كارلو هو الذي على الأكورديون. إنه الرجل الأصلع الضخم...
- هل أنت متأكد؟ أنت لا تمزح؟
- حبيبتي، قلت لكِ. لا تعاملي الرجل بفظاظة.

لم يصرخ وهو يقول ذلك، لكن صوته أصبح فجأة محتدًّا وحازمًا، ليسود بينهما الآن صمت غريب كسره السيد غاردنر بنفسه، قائلًا بدماثة:

- آسف حبيبتي. لم أقصد أن أزجرك.

مد يده وأمسك يدها. توقعتُ أن تنفض يدها، إلا أنها بدلًا من ذلك، مالت بنفسها وهي لا تزال في كرسيها لتغدو أقرب إليه، ثم وضعت يدها الطليقة فوق يديهما المشبوكتين ببعضهما. ظلَّا على هذه الحال بضع ثوان، رأس السيد غاردنر مائل، وزوجته تحدِّق بنظرات فارغة، من فوق كتفه وعبر الساحة، إلى إحدى الكاتدرائيات، رغم أن عينيها بدتا كما لو أنهما لا تريان أي شيء. خلال تلك اللحظات القليلة بدا كأنهما لم ينسيا وجودي وحسب، بل نسيا كذلك كل الناس الحاضرين في الساحة. بعدها قالت، وبصوت هامس بعض الشيء:

- لا بأس يا حبي. إنها غلطتي. فقد أثرت ضيقك.

ظلَّا جالسين هكذا لفترة أطول قليلًا، وأيديهما مغلقة على بعضها. ثم تنهدت، محررة نفسها من السيد غاردنر ونظرت إلى وجهي. لقد نظرت إلى

وجهي من قبل، لكن نظرتها كانت مختلفة هذه المرة، إذ أنني شعرت بذلك السحر الذي لها. والأمر بدا كأنها مزودة بقرص مرقم من صفر إلى عشرة، وقد قررت في تلك اللحظة أن تديره معي على ستة أو سبعة، إلا أنني شعرت بقوتها، ولو طلبت مني أن أسدي أية خدمة لها - بل لو طلبت أن أقطع الساحة لأبتاع بعض الزهور لها لفعلت ذلك بسعادة تامة.

- «جانيك»، قالت. «هذا اسمك، أليس كذلك؟ إنني آسفة، جانيك. طوني محق. لن أتحدث معك كما فعلت».
- سيدة غاردنر، أرجوك لا داعي حقًّا للقلق.
- بل إنني أزعجتكما أثناء حديثكما، حديث موسيقيين، أراهن أنه كان كذلك. أتعلم؟ سأترككما وشأنكما لتكملا كلامكما.
- «لا سبب يدفعك للمغادرة يا حبيبتي»، قال السيد غاردنر.
- آه، نعم ثمة سبب يا حبي. فأنا أتوق لإلقاء نظرة على متجر برادا. لقد جئت توًّا لأخبرك بأني سأقضي وقتًا أطول مما ظننت.
- «حسنًا حبيبتي». استقام طوني غاردنر وهو لا يزال جالسًا في كرسيه للمرة الأولى، وأخذ نفسًا عميقًا. «طالما أنك متأكدة من ذلك، فهو من دواعي سروري».
- «سأحظى بأوقات ممتعة في المتجر. وأنتما أيضًا أيها الشابان، استمتعا بحديثكما». نهضت ولمست كتفي. «اعتنِ بنفسك، جانيك».

راقبناها تبتعد سيرًا على الأقدام. بعدها سألني السيد غاردنر عن بعض الأمور المتعلقة بكوني موسيقيًا في البندقية، وعن الفرقة الرباعية بوجه خاص، والتي بدأت في العزف في تلك اللحظة بالذات. لم يبدُ أنه يولي إجاباتي أي اهتمام، وكنت على وشك أن أعتذر منه وأغادر، عندما قال فجأة:

- «أريد أن أفشي لك بسرٍّ أيها الصديق. اسمح لي أن أطلعك على ما يدور في ذهني، ولك الحق في إيقافي عن الكلام إذا شعرت بأن هذا ما ترغب به». ومال نحوي إلى الأمام خافضًا صوته: «هل أستطيع

إخبارك بشيء ما؟ المرة الأولى التي جئنا فيها أنا وليندي إلى البندقية، كانت خلال شهر عسلنا. قبل سبعة وعشرين عامًا. ورغم كل ذكرياتنا الحلوة في هذا المكان، إلا أننا لم نعد إليه مجددًا، ليس معًا على أية حال. لذا، فيما كنا نخطط لهذه الرحلة، الرحلة الخاصة جدًّا بالنسبة إلينا، فكرنا بأن علينا قضاء بضعة أيام في البندقية».

- هل هي ذكرى زواجكما السنوية، سيد غاردنر؟
- «ذكرى زواجنا؟». بدا دهِشًا.
- «إنني آسف»، قلت، «ظننت أن الأمر على هذا النحو، حينما قلت إنها رحلتكما الخاصَّة».

بدا دهِشًا لبعض الوقت ثم أطلق ضحكة، ضحكة كبيرة، مجلجلة، فتذكرت فجأة أغنية اعتادت أمي سماعها كل الوقت، يتحدث في منتصفها، قائلًا شيئًا ما عن عدم اكتراثه بهجر امرأة له، ويطلق ضحكًا تهكميًّا. أطلق الضحكة المجلجلة نفسها عبر الساحة، ثم قال:

- ذكرى زواجنا؟ لا، لا، إنها ليست ذكرى زواجنا. لكن ما سوف أقترحه ليس بعيدًا عن هذا، لأنني أرغب في القيام بشيء رومانسي للغاية. أريدك أن تعزف لها لحنًا غراميًّا، بالطريقة المناسبة، وأسلوب البندقية. فهو المكان الذي تأتي إليه. ستعزف على الغيتار وسوف أغني. سنفعل ذلك من على متن جندول، وفيما نندفع تحت نافذتها، أقوم أنا بالغناء. لقد استأجرنا مبنى فخمًا قريبًا من هنا، وغرفة النوم نافذتها تطل على القناة. سيكون الأمر مثاليًّا بعد أن يحل الظلام. فالمصابيح المثبتة على الجدران تضيء الأشياء كما ينبغي. أنا وأنت سنستقلُّ جندولًا، ثم تقف هي أمام النافذة. كل أغنياتها المفضلة. ليس ضروريًّا أن نطيل الأمر، فالمساء لا يزال نوعًا ما قارس البرودة. ثلاث أو أربع أغنيات وحسب، هذا ما يراود ذهني. وسأحرص على أن تنال مكافأة جيدة. ما رأيك؟

- سيد غاردنر، إنه لشرف لي، بكل ما في الكلمة من معنى. إذ مثلما أخبرتك، لطالما كنتَ شخصية بالغة في أهميتها بالنسبة إليَّ. متى تفكر في القيام بذلك؟
- لم لا نفعل ذلك الليلة، في حال لم تمطر؟ عند الثامنة والنصف تقريبًا؟ سنتناول العشاء مبكرًا، وسنكون رجعنا بحلول ذلك الوقت. سأختلق عذرًا ما، لأترك الشقة، وآتي للقائك. الجندول سيكون جاهزًا. ثم نصل عبر القناة، ونركن الجدنول تحت النافذة. سيكون ذلك مثاليًا. ما رأيك؟

بامكانك أن تتخيل ربما، كان ذلك مثل حلم يتحقق، فضلًا عن كونه فكرة عذبة، فالزوجان - هو في الستينات، وهي في الخمسينات - يتصرفان مثل مراهقَين وقعا في الحب حديثًا. الواقع أن الفكرة كانت من العذوبة بحيث إنها، تقريبًا وليس تمامًا، جعلتني أنسى الموقف الذي كنت شاهدًا عليه بينهما. ما قصدت قوله هو أنني في تلك اللحظة، كنت مدركًا في أعماقي بأن الأمور لن تسير بتلك البساطة التي يخطط لها.

جلسنا أنا والسيد غاردنر لبضع دقائق أخرى لنقاش كل التفاصيل - الأغنيات التي يرغب بها، المقامات التي يفضلها، وأشياء أخرى من هذا القبيل. بعدها، حان وقت عودتي إلى خيمتنا لأداء وصلتنا التالية، فنهضت وصافحته قائلًا إن بامكانه الاعتماد عليَّ على نحو مطلق في ذلك المساء.

كانت الشوارع مظلمة وهادئة عند ذهابي للقاء السيد غاردنر تلك الليلة. في تلك الأيام كان يمكن أن أضيّع الطريق لو ابتعدتُ عن ساحة سان ماركو، لذا، وبرغم منحي نفسي وقتًا كافيًا، ورغم معرفتي بالجسر الصغير الذي حدده السيد غاردنر لملاقاتي، كنت لا أزال متأخرًا بضع دقائق.

كان واقفًا تحت مصباح، وقد ارتدى بدلة داكنة، بقميص مفتوح حتى الزر الثالث أو الرابع، بحيث يتمكن المرء من رؤية شعر صدره. وعندما اعتذرت عن التأخير، قال:

- وهل ستؤثر بضع دقائق؟ إنني وليندي متزوجان منذ سبعة وعشرين عامًا. بمَ قد تؤثر بضع دقائق؟

لم يكن غاضبًا، إلا أن مزاجه بدا صارمًا ورصينًا - غيرَ رومانسي على الإطلاق. خلفه كان الجندول، يتهدهد بلطف في الماء، كما رأيت الجناديلي فيتوريو، وهو رجل لا أحبه كثيرًا. ففيتوريو في وجهي دائمًا ودود، لكني أعلم - علمت بذلك سابقًا - أنه يقول كلامًا مقززًا، بكل طريقة ممكنة، فحواه سخف وهراء، حول أناس مثلي، بوصفهم بـ«الأجانب من البلدان الجديدة». لهذا السبب، فإنه حين استقبلني في ذلك المساء استقبال شقيق لشقيقه، اكتفيت بإيماءة من رأسي وحسب، منتظرًا بصمت، فيما أخذ يساعد السيد غاردنر في ركوب الجندول. مرَّرتُ له بعدها غيتاري، فقد جلبت غيتاري الإسباني، وليس الغيتار ذا الفتحة البيضوية، ودخلت الجندول.

ظل السيد غاردنر يتنقل في مقدمة القارب، إلى أن جلس مرة واحدة، دافعًا بثقله كله إلى أسفل ما جعل الجندول يوشك على الانقلاب. لكن لم يبدُ أنه لاحظ أي شيء غير عادي، وحين انطلقنا، ظل يحدِّق إلى الماء.

اندفعنا في الماء بصمت عدة دقائق، عابرين بأبنية معتمة، ومارين من تحت جسور خفيضة، ليخرج بعدها من قلب أفكاره العميقة قائلًا لي:

- اسمع أيها الصديق. أعلم أننا اتفقنا على وصلة لهذا المساء. لكني فكرتُ. ليندي تحب تلك الأغنية، «By the Time I get to Phoenix». إحدى الأغنيات التي سجلتُها منذ وقت طويل.
- بالتأكيد، سيد غاردنر. لطالما قالت والدتي إن أداءك لها أفضل من سيناترا. أو أفضل حتى من تلك النسخة الشهيرة لغلين كامبل.

أومأ السيد غاردنر برأسه، ولم أتمكن من رؤية وجهه بعدها لبعض الوقت. أما فيتوريو فراحت الضوضاء التي بعثها جندوله، تتردد بين الجدران قبل أن يقودنا عبر منعطف.

مكتبة

- «لقد اعتدت أن أغنيها كثيرًا لها»، قال السيد غاردنر. «أعتقد بأنها سوف ترغب في سماعها هذه الليلة. هل تعرف لحنها؟».

كان غيتاري قد أصبح خارج علبته في تلك اللحظة، لذا رحت أعزف بعض فواصل الأغنية الموسيقية.

- «ارفعها»، قال، «حتى تصل إلى نغمة مي المنخفضة. هكذا أغنيها في الألبوم».

لذا عزفت بعض الكوردات على ذلك المقام، وربما بعد أن تجاوزت سطرًا شعريًا كاملًا، شرع السيد غاردنر في الغناء، بهدوء شديد، كاتمًا أنفاسه، كما لو أنه لا يتذكر إلا نصف الكلمات وحسب. لكن صوته كان له رنين عذب فوق تلك القناة الهادئة. لقد بدا في الواقع، جميلًا حقًّا. وللحظة ألفت نفسي وقد عدت صبيًّا مرة أخرى، في تلك الشقة، مستلقيًا على السجادة فيما والدتي جالسة على الأريكة، منهكة، أو ربما مكسورة القلب، بينما أسطوانة طوني غاردنر تدور في زاوية الغرفة.

قطع السيد غاردنر غناءه فجأة وقال: «حسنًا. سنؤدي أغنية «By the Time I get to Phoenix» على مقام مي منخفض. ثم أغنية «I Fall in Love Too Easily» ربما، كما خططنا. لننهي بـ«One for My Baby». سيكون هذا كافيًا. لن تستمع إلى أكثر من ذلك».

بعدها، بدا كأنه غرق من جديد في أفكاره، بينما رحنا نندفع بقوة التيار عبر الظلام على صوت طرطشات فيتوريو المائية اللطيفة.

- «سيد غاردنر»، قلت في نهاية المطاف، «آمل ألا تمانع في أن أسألك. لكن هل تعلم السيدة غاردنر بشأن هذا الحفلة الفردية؟ أم أن الأمر سيكون من قبيل المفاجآت الرائعة؟».

تنهد ببطء ثم قال: «أعتقد أن علينا وضع هذا كله في خانة المفاجآت الرائعة»، ثم أضاف: «الرب وحده يعلم كيف ستتفاعل. قد لا ننجح بالوصول إلى «One for My Baby».

قادنا فيتوريو عبر منعطف آخر، وفجأة تناهت إلى أسماعنا أصوات ضحك وموسيقى. كنا الآن نعبر بمطعم كبير ومضاء بشكل جيد. طاولاته بدت مشغولة بالكامل، فقد سارع النُدل من حولها، وبدا أن رواد المطعم سعداء للغاية، رغم أن الهواء لا يكون دافئًا كثيرًا في جوار القناة في ذلك الوقت من السنة. وبعد السكينة والعتمة اللتين ارتحلنا خلالهما، بدا منظر المطعم باعثًا على القلق. كأننا نحن الثابتين، نشاهد ما يحصل من على الرصيف، كلما انزلق قارب جماعتنا أكثر. لاحظت أن بضعة وجوه تنظر إلينا، لكنَّا لم نثر اهتمام أحد. وحين أصبح المطعم وراءنا، قلت:

- إنه لأمر مضحك. هل يمكنك أن تتخيل ما كان ليفعله هؤلاء السائحون إن أدركوا أن القارب الذي مر للتو فيه الأسطوري طوني غاردنر؟

فيتوريو، الذي لا يفهم اللغة الإنجليزية كثيرًا، التقط جوهر ما عنيته وضحك قليلًا. لكن السيد غاردنر لم يردَّ لبعض الوقت. كنا نعبر الآن في العتمة مرة أخرى، على طول القناة الضيقة، مارِّين بمداخل بيوت أضيئت بشكل خافت، عندما قال:

- يا صديقي، لأنك آتٍ من بلد شيوعي فأنت لا تدرك منطق الأمور هنا.
- «سيد غاردنر»، قلت، «بلادي لم تعد شيوعية. نحن الآن شعب حر».
- إنني آسف. لم أقصد تشويه سمعة أمتكم. أنتم شعب شجاع. وآمل أن تنالوا السلام والازدهار. لكن ما قصدت قوله يا صديقي، ما عنيته، هو أن يكون المرء قادمًا من حيث أتيتَ، فإن العديد من الأمور، بطبيعة الحال، ستظل تستعصي عليك. تمامًا كما سيكون هناك أشياء عديدة لن يكون بمقدوري فهمها في بلدكم.
- أعتقد أن ما تقوله صحيح، سيد غاردنر.
- هؤلاء الناس الذين مررنا بهم للتو، لو ذهبت إليهم وقلت: «مرحبًا، هل بينكم من يتذكَّر طوني غاردنر؟» البعض منهم ربما، أو معظمهم حتى، قد يقول نعم. من يعلم؟ ولكن كوننا نعبر فوق الماء تمامًا كما

حدث للتو، فإنهم حتى لو استطاعوا تمييزي، هل تعتقد أن ذلك سيثير حماستهم؟ لا أظن. لن يضع أي منهم شوكته على الطاولة، ولن يقطعوا حواراتهم الحميمة التي تجري على ضوء الشموع. لمَ يتوجب عليهم ذلك؟ فأنا محض مغنٍّ من حقبة مضت.

- لا يمكنني أن أصدق الأمر سيد غاردنر. فأنت كلاسيكي. مثل سيناترا ودين مارتن. الأعمال الفنية لطبقة ما من الفنانين، لا تبلى أبدًا. لا يشبه الأمر أغاني نجوم البوب.
- من اللطيف أن تقول لي هذا الكلام أيها الصديق. أعلم أنك تعني حقًّا ما تقوله. لكن الوقت في هذه الليلة ومن بين كل الليالي، ليس ملائمًا للمزاح معي.

كنت على وشك الاعتراض محتجًّا، غير أن شيئًا ما في أسلوبه أنبأني بأن من الأفضل تجاوز الموضوع بأكمله. فلنتابع اندفاعنا في الماء من دون أن ينبس أيٌّ منا ببنت شفة. ولأكون صادقًا، فإنني بدأت الآن أتساءل عم وضعت نفسي فيه، وما غاية كل هذا. فهما أميركيان في نهاية المطاف. وقد تطل السيدة غاردنر من نافذتها ما إن يشرع السيد غاردنر في الغناء، حاملة بندقية، وتطلق النار علينا.

الأرجح أن أفكار فيتوريو دارت في الاتجاه نفسه، ذلك أنه فور عبورنا تحت أحد المصابيح المثبتة بجانب جدار، سدد لي نظرة عكست فكرة قوامها: «يبدو أننا وضعنا نفسينا رهن شخص غريب الأطوار، أليس كذلك، يا صديقي؟». إلا أنني لم أجبه. فأنا لن أنحاز لأمثاله ضد شخص السيد غاردنر. ذلك أن فيتوريو يعتقد، بأننا نحن الأجانب، لا نسعى إلا لنهب السائحين، كما نملأ قنوات المياه بالأوساخ، وبأننا بصورة عامة، نخرّب كل ما في هذه المدينة اللعينة. أما إذا كان سيئ المزاج في بعض الأيام، فتجده يزعم بأننا محض جوالين - بل مغتصبين للنساء حتى. سألته ذات مرة وجهًا لوجه، إذا ما كان صحيحًا نشره لهكذا أقاويل، لكنه أقسم بأن ذلك لا يتعدى كونه حزمة أكاذيب. كيف يمكن أن يكون عنصريًّا إذا كانت لديه خالة يهودية أحبَّها مثل أمه؟ لكني بعد ظهر أحد الأيام، وفيما

كنت أبدد وقت الاستراحة بين وصلتين، مائلًا على جسر في دورسودورو، مراقبًا جندولًا يمر من تحتي، وقد جلس فيه ثلاثة سائحين، كان فيتوريو واقفًا مع مجذافه، يتحدث باسهاب، وبصورة حاسمة، متلفظًا بالهراء نفسه. لذا، بامكانه النظر إلى عينيَّ قدر ما شاء، لكنه لن يحظى مني بأية صداقة حميمة.

- «اسمح لي أن أبوح لك بسر صغير»، قال السيد غاردنر فجأة. «سر صغير يتعلق بأداء الأغاني. سر من موسيقي محترف إلى آخر. المسألة في غاية البساطة. ينبغي عليك أن تكون على معرفة بشيء ما، بغض النظر عن أهمية هذا الشيء، المهم أن يكون شيئًا عن جمهورك. شيئًا من أجلك، ففي ذهنك، سيكون هذا الجمهور متميزًا عن ذلك الجمهور الذي غنيت أمامه الليلة الماضية. لنفترض أنك في ميلووكي. ستسأل نفسك، ما هو المختلف هنا، وما الذي يميز جمهور ميلووكي؟ ما الذي يجعلهم مختلفين عن جمهور ماديسون؟ ستعجز عن إيجاد الفارق، لكنك لن تكف عن المحاولة حتى تنجح في ذلك. ميلووكي، ميلووكي. لديهم شرائح لحم خنزير جيدة في ميلووكي. ستكون هذه الفكرة مفيدة، وهو ما ستلجأ إليه فور ظهورك أمامهم. لن تبوح بكلمة واحدة في هذا الموضوع، لكن هذا ما سيبقى ماثلًا في ذهنك أثناء غنائك. بأن هؤلاء الناس أمامك، يتناولون شرائح لحم خنزير بجودة رفيعة. ما يعني أن معاييرهم ستكون عالية كلما تعلق الأمر بشرائح لحم الخنزير. هل تفهم ما أقوله؟ بهذا الشكل يصبح الجمهور كمجموعة، أشبه بشخص تعرفه جيدًا، شخص بامكانك أن تؤدي أمامه. هذا هو سري الصغير. سر من موسيقي محترف إلى آخر».

- حسنًا، شكرًا لك سيد غاردنر. لم أفكر قط في الأمر على هذا النحو. نصيحة من شخص مثلك لن أنساها أبدًا.

- «الليلة»، تابع، «سنؤدي أمام ليندي. ليندي ستكون جمهورنا. لذا عليَّ أن أخبرك شيئًا عن ليندي. هل تريد أن تسمع شيئًا عنها؟».

- «طبعًا، سيد غاردنر»، قلت، «أودُّ سماع الكثير عن ليندي».

وهكذا ظللنا على مدى الثلث ساعة التالية تقريبًا، في الجندول، نطوف في جولة إثر جولة، من دون أن ينقطع السيد غاردنر عن الحديث.

كان صوته ينخفض أحيانًا إلى دمدمة، كما لو أنه يكلم نفسه. وأحيانًا أخرى، وحين يصب مصباح أو نافذة عابرة بعضًا من ضوئهما في قاربنا، يتذكر بأنني موجود معه، فيرفع صوته، ليقول شيئًا من قبيل: «هل تفهم ما أقوله، يا صديقي؟».

قال لي إن زوجته، جاءت من بلدة صغيرة في ولاية مينيسوتا، وسط أميركا، وبأنها مرت بأوقات عصيبة وعانت مع معلماتها بسبب انشغالها الدائم بقراءة مجلات نجوم السينما بدلًا من الدراسة.

- «ما لم تدركه أولئك السيدات قط، هو أن ليندي كان لديها خطط كبيرة. انظر إليها الآن. ثرية، جميلة، تسافر إلى كل أنحاء العالم. أما أولئك المعلمات، فأين هن اليوم؟ أي نمط حياة يعشنه؟ لو أمضين بعضًا من وقتهن في تفحص مجلات الأفلام، لو كان لديهن القليل من الأحلام، لحظين هن أيضًا ببعض مما لدى ليندي اليوم».

في التاسعة عشرة من عمرها، سافرت بالمجان مستقلة السيارات العابرة الى كاليفورنيا، كان دافعها تلك الرغبة المتقدة للوصول الى هوليوود. إلا أنها وجدت نفسها بدلًا من ذلك، على أطراف لوس انجيلوس، تعمل نادلة في مطعم على جانب الطريق.

- «المفاجئ»، قال السيد غاردنر، «أن ذلك المطعم، ذلك الركن الصغير الذي لا يميزه شيء، بجانب الطريق السريع، اتضح أنه أفضل مكان يمكن لها العمل فيه. فهو مكان تفد إليه الفتيات الطموحات من الصباح وحتى الليل. يجتمعن هناك، سبع، ثمان، أو دزينة منهن، يطلبن القهوة، وسندويشات هوت دوغ، ويجلسن لساعات ويتحدثن».

أولئك الفتيات، وجميعهن أكبر سنًّا من ليندي، قدمن من جميع ولايات أميركا ليستقر بهن الحال في منطقة لوس أنجيلوس لسنتين أو ثلاث على الأقل. كن يجئن إلى المطعم للثرثرة والنميمة والبوح بقصص حظهن العاثر، ونقاش مشاريعهن أيضًا، والاطلاع كذلك على سير أمورهن. غير أن أكثرهن فتنة وجاذبية كانت ميغ، وهي امرأة في الأربعينات، والنادلة التي عملت ليندي إلى جانبها.

- كانت بمثابة أخت كبرى لأولئك الفتيات، ينبوع الحكمة الخاص بهن وحدهن، لأنها كانت في أحد الأيام في موضعهن تمامًا. عليك أن تدرك أنهن كن فتيات غاية في الجدية، طَموحات وعازمات. هل تحدثن عن ملابسهن، أحذيتهن، ومكياجهن كعموم الفتيات الأخريات؟ بالتأكيد فعلن. لكن حديثهن كان عن نوع الملابس والأحذية والمكياج الذي ينبغي ارتداؤه للزواج من نجم. هل تحدثن عن الأفلام؟ عن المشاهد الموسيقية؟ أراهن بأنهن فعلن. لكن حديثهن كان عن نجوم السينما والمغنين العازبين في ذلك الوقت، كما أولئك ممن كان زواجهم تعيسًا، وممن طلقوا زوجاتهم. ميغ، كما يمكنك أن تتخيل، أخبرتهن بكل تلك التفاصيل، بل وأكثر بكثير. لقد سلكت ميغ الطريق نفسه قبلهن. وكانت ملمة بكل القواعد، وكل الحيل التي قد تفضي إلى الزواج من نجم. ليندي جالستهن وتعلمت كل شيء. ذلك المطعم الصغير، كان بمثابة جامعة هارفرد الخاصة بها، أو ييل. مجرد فتاة في التاسعة عشرة من عمرها في مينيسوتا؟ يقشعر بدني لمجرد التفكير في الذي كان يمكن أن يحدث لها. غير أن الحظ ابتسم لها.
- «سيد غاردنر»، قلت، «عذرًا على المقاطعة. ولكن إذا كانت ميغ تتحلى بذلك القدر من الحكمة فيما يتعلق بكل شيء، لِمَ لم تتزوج قط بنجم؟ وظلت تعمل في تقديم الهوت دوغ في ذلك المطعم؟».
- سؤالك في محله، إلا أنك لا تدرك كيف تجري هذه الأمور بالضبط.

حسنًا، هذه السيدة، ميغ، لم تُوَفَّق. لكن النقطة الجوهرية، هي أنها راقبت كل اللواتي نجحن. هل فهمت قصدي، يا صديقي؟ لقد كانت في منزلة أولئك الفتيات يومًا من الأيام، شاهدت بعضهن ينجحن، وبعضهن يخفقن. شاهدت مزالق، وسلالم من ذهب. كان بإمكانها سرد تلك القصص لهن، والفتيات يصغين لها بتركيز تام. منهن من تعلَّمت شيئًا. ليندي، على سبيل المثال. مثلما قلت، كان ذلك المطعم بمثابة جامعة هارفارد بالنسبة لها. لقد جعلها تصبح ما هي عليه. أمدَّها بالقوة التي ستحتاج إليها في وقت لاحق، وكم كانت محتاجة إلى تلك القوة يا رجل. استغرقها الأمر ست سنوات قبل أن تحظى بأول استراحة لها. هل يمكنك أن تتخيل ذلك؟ ست سنوات من المناورة، التخطيط، وإيجاد مكان لها في الطابور، وتلقي ضربات أرجعتها إلى الوراء. مرارًا وتكرارًا. مثلما هو الحال في عملنا. إذ لا يمكنك أن تنقلب إلى الخلف وتتخلى عن مكانك بعد اللكمات الأولى. الفتيات اللواتي فعلن ذلك، يمكنك أن تراهن في أي مكان، متزوجات من أشخاص لا قيمة لهم ويعشن في بلدات لا أهمية لها. ولكن عددًا قليلًا منهن، مثل ليندي، تعلمهن كل لكمة يتعرضن لها شيئًا ما، فيعدن إلى الطابور أقوى، أكثر صرامة، أكثر عزمًا ويكافحن من جديد. هل تظن أن ليندي لم تعانِ الإذلال؟ حتى بذلك الجمال والسحر اللذين تتمتع بهما؟ لا يدرك الناس أن الجمال ليس حتى نصف ما يجب التحلي به. لو استخدمته بطريقة غير صحيحة، فإن الجميع سيعاملك كعاهرة. على أية حال، فإنها بعد ست سنوات، حظيت بفرصتها أخيرًا.

- هذا عندما التقت بك، سيد غاردنر؟

- «أنا؟ لا، لا. أنا لم أظهر على الساحة إلا بعد فترة من ذلك. تزوجتْ دينو هارتمان. ألم تسمع أبدًا بدينو؟». هنا، أطلق السيد غاردنر ضحكة فظة بعض الشيء. «مسكين دينو. أعتقد أن ألبومات دينو لم

تفلح في الوصول إلى البلدان الشيوعية. لكن دينو كان اسمًا ذا شأن في تلك الأيام. غنى كثيرًا في لاس فيغاس، وكان لديه عدد قليل من الألبومات الممتازة. لكنه كما قلت لك، كان فرصة ليندي الكبيرة. حين التقيتها أول مرة، كانت متزوجة من دينو. ميغ الخبيرة، شرحت لها أن الأمور تسير هكذا دومًا. طبعًا، يمكن أن يبتسم الحظ للفتاة من المرة الأولى، فتنتقل رأسًا إلى العُلى، وقد تتزوج بسيناترا أو براندو. غير أن الأمور لا تسير على هذا المنوال دائمًا، إذ على الفتاة أن تكون مستعدة للخروج من المصعد في الطابق الثاني والتجول في المكان. عليها اعتياد هواء ذلك الطابق. ولربما، ستلتقي يومًا ما، في الطابق الثاني، بشخص رغب في النزول من شقتة العلوية لبضع دقائق، ربما لإحضار غرض ما. وهذا الرجل يقول لها، مهلًا، ما رأيك لو أتيت معي، صعدتِ، إلى أعلى طابق في كل المبنى. أدركت ليندي أن تلك هي الطريقة التي تسير فيها الامور. لم تضعف عندما تزوجت بدينو، لم تقتطع جزءًا من طموحها، لم تقلصه. كان دينو رجلًا لائقًا. لطالما أحببته. لهذا السبب، وعلى الرغم من أن ليندي أثارت إعجابي بشكل تام لحظة وقعت عيناي عليها، إلا أنني لم أبادر بخطوة نحوها. كنت جنتلمانًا مثاليًا. اكتشفت لاحقًا أن هذا هو ما جعل ليندي أكثر تصميمًا. لا يمكنك إلا أن تعجب بفتاة من هذا النوع! عليَّ أن أقول لك، يا صديقي، لقد كنت نجمًا، نجمًا ساطعًا في كل مكان في ذلك الوقت. لا بد أن ذلك في الفترة التي كانت والدتك تستمع فيها إليَّ. لكن دينو، كان نجمه قد بدأ يأفل بسرعة. ولم يكن سهلًا على الكثير من المطربين الإستمرار في تلك المرحلة. كل شيء كان يشهد تغييرًا. فالشبان بدأوا يستمعون إلى البيتلز، ورولينغ ستونز. مسكين دينو، كم بدا، إلى حد كبير، مثل بينغ كروسبي. ألبوم البوسا نوفا الذي أطلقه أثار ضحك المستمعين. وكانت تلك بالطبع اللحظة المناسبة لليندي

كي تنفصل عنه. لا يمكن لأحد اتهام أي منا بشيء في تلك الحالة. حتى دينو، لا أعتقد أنه ألقى لومًا علينا. لهذ السبب، قمت بالخطوة التالية. هكذا بلغتْ ليندي الشقة الأعلى في المبنى.

تزوجنا في لاس فيغاس، وطلبنا من الفندق ملء حوض الاستحمام بالشمبانيا. الأغنية التي سنؤديها الليلة، هي «I Fall in Love Too Easily». هل تعرف لماذا وقع اختياري عليها؟ هل تريد أن تعلم؟ كنا في لندن ذات مرة، ولم يكن قد مضى وقت طويل على زواجنا. صعدنا إلى غرفتنا بعد الفطور فيما الخادمة تنظف جناحنا. لكني وليندي كنا مُثارين كأرنبين. لذا، دخلنا، وكان بإمكاننا سماع الخادمة تنظف الصالة بالمكنسة الكهربائية، لكن لم يمكنّا رؤيتها من خلال الحاجز الفاصل. فتسللنا على رؤوس أصابعنا، كطفلين، هل تتصور كيف؟ تسللنا إلى غرفة النوم، وأغلقنا الباب. كان واضحًا أن الخادمة فرغت من غرفة النوم فعلًا، ولربما لن يكون لديها داع لتعود، غير أنّا لم نكن متأكدين تمامًا من ذلك. في كلتا الحالتين، لم نكترث للأمر. مزقنا ملابسنا، ومارسنا الحب على السرير، فيما الخادمة كل الوقت في الطرف الآخر من الجناح، تنتقل فيه، ولا فكرة لديها بأننا أصبحنا في الداخل. أقول لك، كنا مثارين، لكننا بعد ذلك، وجدنا ما حدث مضحكًا جدًّا، فلم نتوقف عن الضحك. ثم انتهينا وكنا لا نزال في أحضان بعضنا البعض، والخادمة موجودة. ولو أنك تعرف ماذا فعلت بعدها، بدأت في الغناء! فرغت من المكنسة الكهربائية، وراحت تغني بأعلى صوتها. كم كان صوتها رديئًا يا رجل! أخذنا نضحك ونضحك، محاولين في الوقت نفسه كتم ضحكاتنا. وماذا حدث بعدها؟ توقفت عن الغناء وشغلت الراديو. لنسمع فجأة صوت شيت بيكر. كان يغني «إنني أقع في الحب بسهولة»، بصوت ودود، متمهل وشجي. وأنا وليندي ظللنا ممددين على السرير، نستمع إلى شيت يغني. وبعدها،

رحت أغني بصوت رقيق جنبًا إلى جنب مع شيت بيكر في الراديو، وتكورت ليندي بين ذراعيَّ. هذا ما حدث. لهذا السبب سنؤدي هذه الأغنية الليلة. رغم أني لا أعلم إذا ما كانت لا تزال تذكرها. من يعلم؟

توقف السيد غاردنر عن الحديث ورأيته يمسح دموعه. قادنا فيتوريو حول منعطف آخر وأدركت أننا مررنا بالمطعم نفسه للمرة الثانية. حتى أنه بدا أكثر حيوية من ذي قبل، وعازف البيانو، الرجل الذي يدعى أندريا، كان يلعب الآن في زاويته.

وفيما اندفعنا أكثر في الظلام، قلت: «سيد غاردنر، هذا ليس من شأني، أعرف ذلك. لكن يمكنني أن أرى أن الامور لم تكن على أفضل حال بينك وبين السيدة غاردنر في الآونة الأخيرة. أريدك أن تعلم بأنني أتفهم مسائل كهذه. غالبًا ما كانت أمي تشعر بالحزن، وربما بما أنت عليه الآن. تتصور أنها وجدت الرجل المناسب، ينتابها شعور غامر بالسعادة فتقول لي إن هذا الرجل سيكون والدك الجديد. صدقتها في أول بضع مرات. بعد ذلك، بدأت أدرك أن الأمر لن يحدث. لكن أمي لم تتوقف يومًا عن الايمان به. وكلما شعرت بالإحباط، ربما كما أنت الليلة، هل تعلم ماذا كانت تفعل؟ تشغل أحد تسجيلاتك وترافقك في الغناء. خلال تلك الشتاءات الطويلة كلها، وفي شقتنا الصغيرة، كانت تجلس وركبتاها تحتها، وكأس فيه مشروب ما في يدها، ثم تغني بطريقة عاطفية. أحيانًا، وأتذكر هذا جيدًا، سيد غاردنر، كان الجيران في الطابق العلوي يبدأون بالخبط على السقف، خصوصًا وأنت تؤدي بعض الأغنيات ذات الإيقاع السريع، مثل «High Hopes» أو «They All Laughed». اعتدت مراقبة أمي عن كثب، لكنها كانت تبدو كما لو أنها لا تسمع شيئًا، بل تستمع إليك فقط، وهي تومئ برأسها مواكبة الإيقاع، ومحركة شفتيها مع الكلمات. سيد غاردنر، ما أردت قوله لك هو أن موسيقاك ساعدت أمي خلال تلك الأوقات، ولا بد أن تكون قد ساعدت ملايين الأشخاص حول العالم. والصحيح هي أنها يجب أن تساعدك أنت أيضًا». أطلقت ضحكة متواضعة

اصطنعتها، بقصد تشجيعه، إلا أنها خرجت من فمي أعلى مما قصدت. «يمكنك الاعتماد عليَّ الليلة سيد غاردنر. سأبذل كل المهارات التي اكتسبتها. سأجعل الأمر يحدث على نحو جيد، كأي فرقة موسيقية، سترى. وستستمع السيدة غاردنر إلينا، ومن يدري؟ ربما تسير أموركما على ما يرام مجددًا. كل الأزواج يمرون بأوقات صعبة».

ابتسم السيد غاردنر. «أنت رجل لطيف. أقدر دعمك لي الليلة. لكن لم يعد هناك وقت لتبادل الأحاديث. ليندي في غرفتها الآن. بإمكاني رؤية النور مضاء».

كنا نعبر مرة أخرى من أمام المبنى الفخم الذي مررنا به مرتين على الأقل قبل الآن، فأدركت لمَ تعمَّد فيتوريو سوقنا في جولات دائرية. ذلك أن السيد غاردنر كان يترقب انبعاث الضوء من إحدى النوافذ، وكلما وجد بأنها لا تزال مظلمة، أكملنا سيرنا لإتمام دائرة أخرى. على أن نافذة الطابق الثالث هذه المرة، كانت مضاءة، والمصاريع مفتوحة، ومن مكاننا في الأسفل، أمكننا رؤية قسم صغير من السقف بعوارضه الخشبية الداكنة. أعطى السيد غاردنر الإشارة إلى فيتوريو بالتوقف، إلا أن الأخير كان قد توقف بالفعل عن التجديف، ورحنا نندفع ببطء حتى أصبح الجندول تحت النافذة مباشرة.

وقف السيد غاردنر، بشكل جعل القارب يهتز بصورة مقلقة مرة أخرى، وكان على فيتوريو تغيير مكانه بسرعة ليثبّته. ثم نادى السيد غاردنر، بصوت بدا هادئًا أكثر من اللازم: «ليندي؟ ليندي؟»، قبل أن ينادي بصوت أعلى من ذلك بكثير: «ليندي!».

دفعت يدٌ مصراعي النافذة إلى الخارج، ثم ظهر شخص على الشرفة الضيقة. كان ثمة مصباح مثبَّت إلى جدار المبنى الفخم غير بعيد عنا، إلا أن ضوءه لم يكن عظيمًا، بحيث بدت فيه السيدة غاردنر صورة ظلِّية الآن. لكني، رغم ذلك، رأيت بأنها رفعت شعرها بخلاف ما كانت عليه حين تقابلنا في الساحة، ربما لدعوة عشاء في وقت سابق.

- «أهذا أنت، حبيبي؟»، مالت على مسند الشرفة الحديدي. «ظننت بأنك اختُطفت أو شيئًا من هذا القبيل. لقد أثرت قلقي».
- لا تكوني حمقاء، حبيبتي. ما الذي يمكن أن يحدث لي في مدينة كهذه؟ لقد تركت لك ملحوظة على أية حال.
- لم أر أية ملحوظة، حبيبي.
- لقد تركت لك الملحوظة. كي لا تقلقي.
- أين هي، هذه الملحوظة؟ وماذا قلت فيها؟
- «لا أتذكر حبيبتي». بدا السيد غاردنر الآن منزعجًا. «مجرد ملحوظة عادية. أقول فيها إنني ذهبت لشراء سجائر أو شيء آخر».
- وهل هذا ما تفعله هناك الآن؟ شراء سجائر؟
- لا محبوبتي. هذا شيء مختلف. سأغني لك.
- هل هذه مزحة؟
- «لا حبيبتي، ليست مزحة. إنها البندقية. وهذا ما يفعله الناس هنا». ثم تحوَّل إلينا أنا وفيتوريو، كما لو أن وجودنا برفقته أثبت وجهة نظره.
- الهواء بارد نوعًا ما بالنسبة إليَّ من هنا، حبيبي.

تنهد السيد غاردنر بعمق، «إذن يمكنك الاستماع من داخل الغرفة. عودي إلى الغرفة حبيبتي، وأريحي نفسك. أبقي النوافذ مفتوحة وستسمعيننا بوضوح».

ظلت تحدِّق إليه لفترة من الوقت، فيما بادلها هو النظرات نفسها من الأسفل، من دون أن ينبس أي منهما بكلمة. بعد ذلك ذهبتْ إلى الداخل، وبدا أن السيد غاردنر يشعر بخيبة أمل، رغم أنه هو من اقترح كل ذلك. أخفض رأسه متنهدًا مرة أخرى، وأستطيع أن أجزم بالقول إنه كان مترددًا في المضيِّ قدمًا. فقلت:

- هيا، سيد غاردنر، دعنا نؤدِّها. دعنا نؤدِّ «By the Time I get to Phoenix».

عزفت جملة الافتتاح بلطف، من دون إيقاع، بطريقة يمكن أن تفضي إما إلى الدخول في قلب الأغنية أو بهتان اللحن. حاولت جعل الأغنية تبدو كأنها

أميركا، بتلك الحانات الحزينة على جانب الطريق، والطرق السريعة الطويلة والفسيحة. وأعتقد أنني كنت أفكر أيضًا في أمِّي، وكيف كنت أذهب إلى الغرفة وأراها على الأريكة تحدِّق إلى غلاف الورق المقوى للألبوم الذي يحمل صورة لطريق أميركية، أو ربما مغنٍّ جالس في سيارة أميركية. ما أعنيه هو، أنني حاولت عزفها بحيث تستطيع أمي تمييزها كما لو أنها قادمة من العالم نفسه، عالم الألبوم على الغلاف.

غير أني وقبل أن أدرك الأمر، وقبل أن أضبط نفسي على ايقاع أثبت عليه، بدأ السيد غاردنر في الغناء. كانت وضعيته، وقوفًا في الجندول، غير مستقرة تمامًا، وخشيت أن يفقد توازنه في أية لحظة. غير أن صوته خرج بالطريقة التي أتذكرها - لطيفًا، تقريبًا أجشَّ، ولكن بكثافة هائلة، كما لو أنه آتٍ من مايكروفون غير مرئي. ومثل أفضل المطربين الأميركيين، كان هناك هذا الشعور بالسأم في صوته، بل وبلمحة من التردد كذلك، كأنه رجل غير معتاد على فتح قلبه بهذا الشكل. أسلوب كل العظماء.

مضينا في الأغنية، المليئة بالسفر والوداعات. رجل أميركي يهجر امرأته. لكنه لا يكف عن التفكير فيها فيما يعبر بين المدن، واحدة تلو الأخرى، جملة جملة، فينيكس، البوكيرك، أوكلاهوما، يقود على الطريق الطويل بشكل لم تكن أمي تستطيع فعله. لو أمكننا فقط ترك الأشياء وراءنا بتلك الطريقة - أعتقد أن هذا ما كانت أمي تفكر فيه. لو أن الحزن يمكنه أن يكون على هذه الشاكلة.

وصلنا إلى النهاية وقال السيد غاردنر:

- حسنًا. فلننتقل مباشرة إلى أغنية «I Fall in Love Too Easily».

كانت تلك المرة الأولى التي أعزف فيها مع السيد غاردنر، فوجب عليَّ أن أتلمَّس طريقي معه في كل تفصيل. ولكنَّا أتممنا الأمر كما ينبغي. ولأنه أخبرني بقصة هذه الأغنية، فقد بقيت أنظر إلى النافذة، إلا أن السيدة غاردنر لم تقم بردة فعل، لا حركة، لا صوت، ولا أي شيء. أنهينا أداءنا، ليحل الهدوء والظلام على كل شيء من حولنا. وعلى مقربة، سمعت أحد الجيران يدفع مصاريع النافذة

لفتحها، ربما ليصبح قادرًا على السماع بشكل أفضل. لكن لا شيء خرج من نافذة السيدة غاردنر.

لعبنا «One for My Baby» ببطء شديد، إذ إنه عمليًّا لم يكن هناك أي إيقاع اطلاقًا، هذا قبل أن يسود الصمت بشكل تام. بقيت أنظارنا شاخصة إلى النافذة، ثم في نهاية المطاف، وربما بعد مرور دقيقة كاملة، سمعنا الصوت. كان بامكانك بالكاد تمييزه، لكن لم تكن لتخطئه أبدًا. فالسيدة غاردنر كانت في غرفتها تبكي بحرقة.

- «لقد نجحنا، سيد غاردنر!»، همست. «لقد نجحنا. أصبناها في القلب مباشرة».

غير أن السيد غاردنر لم يبد سعيدًا. هز رأسه كأنه محطم، وأومأ إلى فيتوريو. «خذنا في جولة من الجانب الآخر. حان الوقت لكي أدخل».

وفيما بدأنا التحرك من جديد، خيل لي بأنه يتفادى النظر إلى وجهي، كما لو أنه خجلان مما فعلناه، وبدأت أفكر في أن هذه الخطة ما هي إلا دعابة خبيثة بطريقة ما من قبل السيد غاردنر. إذ كما أعلم، فإن هذه الأغاني محملة بمعانٍ رهيبة للسيدة غاردنر. لذا، وضعت غيتاري جانبًا وجلست، وربما كنت متجهم الوجه بطريقة ما، وعلى هذ الحال، رحنا نتنقل بالجندول لفترة من الوقت.

بعدها، خرجنا إلى قناة أوسع بكثير، ومر مركب أجرة سريعًا بنا سالكًا الاتجاه المعاكس، وتجاوزنا بسرعة، مخلفًا الكثير من التموجات تحت جندولنا. لكن، كنا قد وصلنا تقريبًا إلى الجهة الأمامية من مبنى السيد غاردنر الفخم. وفيما تركنا فيتوريو نندفع نحو الرصيف، قلت:

- سيد غاردنر، لقد لعبت دورًا هامًّا في حياتي خلال نشأتي. والليلة هذه، كانت ليلة خاصة جدًّا بالنسبة إلي. إن قلنا وداعًا الآن ولم أرك مجددًا، فاعلم أنني، ولبقية حياتي، سأظل أتساءل دومًا. لذا أرجوك سيد غاردنر أخبرني من فضلك، هل كان بكاء السيدة غاردنر بسبب أنها سعيدة أو لأنها مستاءة؟

لم أظن بأنه كان ليجيب عن سؤالي. وتحت الأضواء الخافتة، بدت صورته مجرد شكل محدودب في الجزء الأمامي من القارب. وبينما انشغل فيتوريو بربط الحبل، قال بهدوء:

- أعتقد أنها كانت سعيدة لغنائي لها بتلك الطريقة. لكنها من دون شك، كانت مستاءة. كلانا يشعر بالاستياء. سبعة وعشرون عامًا هي فترة طويلة وسننفصل بعد انتهاء هذه الرحلة. إنها رحلتنا الأخيرة معًا.
- «إنني آسف بالفعل لسماعي هذا، سيد غاردنر»، قلت بلطف. «أعتقد أن زيجات كثيرة تصل إلى النهاية، حتى بعد مرور سبعة وعشرين عامًا. إلا أنك أقلُّه قادر على انهاء العلاقة بهذا الشكل. عطلة في البندقية. غناء من على متن جندول. لا يوجد العديد من الأزواج الذين ينفصلون ويبقون بهذا التمدن».
- وما الذي يمنع أن يكون انفصالًا متمدنًا؟ نحن ما زلنا نحب بعضنا البعض. هذا هو سبب بكائها فوق. لأنها لا تزال تحبني بقدر ما أحبها.

كان فيتوريو قد صعد إلى الرصيف، غير أنَّا بقينا، أنا والسيد غاردنر، جالسين في الظلام. انتظرت منه أن يضيف شيئًا إلى كلامه، إلا أنه بعد لحظة، أكمل:

- كما قلت لك، فقد وقعت في حب ليندي منذ حطت عيناي عليها للمرة الأولى. لكن هل أحبتني هي في تلك اللحظة؟ أشك في أن يكون هذا السؤال قد راود ذهنها. كنت نجمًا، وهذا كل ما اكترثتْ له. جسَّدتُ كل ما حلمت به، كل ما خططت للحصول عليه في ذلك المطعم البعيد. وسواء أحبتني أم لا، فإن ذلك لم يحدث بعمق. غير أن سبعة وعشرين عامًا من الزواج يمكن أن تخلِّف وراءها أشياء غريبة عجيبة. أزواج كثر يتوقفون عن حب بعضهم، ثم يصابون بالإرهاق من بعضهم، وفي نهاية المطاف تدب الكراهية بينهم. أحيانًا، تسير الأمور في الاتجاه المعاكس. استغرق الأمر بضع سنوات، ولكن ليندي، بدأت تحبني شيئًا فشيئًا. لم أجرؤ على تصديق الأمر بداية،

ولكن بعد فترة، بات حبها لي الشيء الوحيد الذي يدعو للتصديق. لمسة طفيفة على كتفي فيما نحن نغادر الطاولة. ابتسامة صغيرة مثيرة للضحك في غرفتنا حيث لا يكون هناك ما يثير الابتسام، عدا تهريجها وحسب. أراهن أنها فوجئت بذلك كأي شخص، لكن هذا ما حدث. بعد خمس أو ست سنوات، وجدنا أن ما بيننا يمضي بسلاسة. وبأننا نقلق ونكترث لبعضنا البعض. مثلما قلت لك، لقد وقع أحدنا في حب الآخر. وما زال هذا الحب قائمًا إلى يومنا هذا.

- لا أفهم سيد غاردنر. لماذا ستنفصلان إذن أنت والسيدة غاردنر؟

متنفسًا الصعداء مرة أخرى بطريقته المعهودة، قال: «كيف يمكن أن تفهم الوضع يا صديقي، إذا ما نظرنا إلى البلاد التي أتيت منها؟ لكن بما أنك كنت لطيفًا للغاية معي هذه الليلة، سأحاول شرح المسألة لك. الحقيقة هي أنني لم أعد اليوم نجمًا أساسيًا كما كنت في السابق. اعترض قدر ما تشاء، ولكن لا يمكنك تجنب شيء من هذا القبيل في الوسط الذي أنتمي إليه. أنا لم أعد اسمًا رئيسيًا. ولا يسعني إلا تقبل هذ المصير وأن يتلاشى أثري. أنا أعيش على أمجاد غابرة. يمكنني القول، إنني لم أنته. ليس بعد. بعبارة أخرى، يا صديقي، بامكاني العودة. كثر فعلوا هذا، سواء أكانوا بمستوى شهرتي نفسه أو أقل. غير أن العودة ليست لعبة هينة. إذ ينبغي أن تكون مستعدًّا لإجراء الكثير من التغييرات، بعضها بالغ الصعوبة. قد تغير أسلوبك. وتخضع كذلك بعض الأشياء التي تحبها لتغييرات».

- سيد غاردنر، هل تريد القول إنكما أنت والسيدة غاردنر مضطران للانفصال بسبب عودتك إلى المشهد؟

- انظر إلى الفنانين، ممن نجحوا في العودة. وانظر إلى أبناء جيلي المتسكعين هنا وهناك. كل منهم تزوج من جديد. مرتين، وأحيانًا ثلاث مرات. كل واحد منهم لديه زوجة شابة تشبك ذراعها بذراعه. سنصبح أنا وليندي مادة للسخرية. كما أن هناك سيدة شابة حطت عيناي عليها، والعكس. ليندي مدركة لهذه النتيجة. بل كانت قد أدركتْ هذا المآل

قبلي بفترة طويلة، ربما منذ أيام عملها في ذلك المطعم وهي تصغي إلى ميغ. لقد تحدثنا في هذا الأمر. هي تدرك بأن الوقت قد حان ليذهب كل منا في طريق.

- ما زال الأمر متعذرًا على الفهم بالنسبة إليَّ، سيد غاردنر. فالمكان الذي أتيتُما منه أنت والسيدة غاردنر لا يختلف كثيرًا عن أي مكان آخر. لهذا السبب، يا سيد غاردنر، لهذا السبب فإن كل تلك الأغاني، التي قدمتها على مدار تلك السنوات، محملة بالمعاني للناس في كل مكان. حتى في ذلك المكان حيث عشت. ثم، ما الذي تقوله تلك الأغاني؟ إن وقع شخصان في الحب وتحتَّم عليهما الفراق فسيكون أمرًا محزنًا. أما إذا ما قررا الحفاظ على حبهما، فيتوجَّب عليهما حينها البقاء معًا إلى الأبد. هذا ما تقوله تلك الأغاني.

- إنني مدرك لكل ما تقوله يا صديقي. وقد يبدو الأمر عسيرًا عليك، أعلم ذلك. ولكن هكذا تسير الأمور. اسمع، الأمر متعلق بليندي أيضًا. الأفضل لها أن نقوم بذلك الآن. إنها ليست عجوزًا بعد. لقد رأيتَها، لا تزال امرأة جميلة، وفي حاجة لأن تغادر الآن، حيث لا يزال لديها الوقت لذلك. الوقت للعثور على حب جديد، وزواج آخر. إنها في حاجة لأن تحظى بفرصتها الآن وإلا فات الأوان.

لا أتذكر ما قلتُه تعليقًا على ذلك، ولكن الأمر فاجأني حين قال لي: «والدتك. أعتقد أن والدتك لم تحظ بفرصتها».

تأملت كلامه ثم قلت بهدوء: «لا، سيد غاردنر. لم تحظ بفرصتها قط. لم تعش طويلًا بما يكفي لرؤية ما حدث من تغييرات في بلادنا».

- هذا سيئ للغاية. إنني على ثقة بأنها كانت امرأة جيدة. إذا كان ما تقوله صحيحًا، وإن موسيقاي ساعدت على جعلها سعيدة، فإن الأمر يعني الكثير بالنسبة لي. من السيئ أنها لم تغادر. لا أريد أن يحدث الأمر

نفسه لليندي. لا سيدي. ليس لليندي محبوبتي. أريد لليندي حبيبتي أن تحظى بفرصتها.

كان الجندول يرتطم بالرصيف على نحو لطيف. ثم طلب منا فيتوريو بصوت هادئ المغادرة، مادًّا إلينا يده. بعد بضع ثوان، نهض السيد غاردنر وغادر الجندول. وفي الوقت الذي تسلقت فيه المركب مع غيتاري - إذ لم أكن أنوي استجداء فيتوريو من أجل أي ركوب مجاني - كان السيد غاردنر قد أخرج محفظته.

بدا فيتوريو سعيدًا بالمال الذي منحه إياه السيد غاردنر، ليعود إلى جندوله بالعبارات الجميلة المعتادة والإيماءات المناسبة، منطلقًا في القناة.

رحنا نراقبه وهو يغادر ليتلاشى أثره بالكامل في الظلام. أما الشيء الآخر الذي فعله السيد غاردنر بعد ذلك، فكان بأن وضع الكثير من النقود الورقية في يدي. قلت له إن ذلك أكثر من اللازم، وإن الأمر كان بأية حال شرفًا كبيرًا لي، إلا أنه لم يشأ سماع أي شيء يتعلق بإعادة المال له.

- «لا، لا»، قال ملوحًا بيده أمام وجهه، كما لو أنه يود ختم كل شيء، لا فيما يتعلق بالمال وحسب، بل وبي كذلك، كما الأمسية، وربما هذا الجزء من حياته برمته. أخذ يسير باتجاه المبنى الفخم، لكنه بعد بضع خطوات توقف، ليعاود النظر إليَّ. كان كل شيء من حولنا غارقًا في الصمت، الشارع الصغير حيث نحن الآن، والقناة، بل وكل شيء حولنا ما عدا صوت تلفاز بعيد.
- «لقد عزفت بشكل جيد هذه الليلة يا صديقي. لديك لمسة لطيفة»، قال.
- شكرًا لك، سيد غاردنر. وأنت غنيت بشكل عظيم. كما في أي وقت.
- قد آتي إلى الساحة مرة أخرى قبل أن نغادر. من أجل الاستماع إليك عازفًا مع فرقتك.
- آمل ذلك، سيد غاردنر.

غير أني لم أره مرة أخرى. سمعت بعد بضعة أشهر، في الخريف، أن السيد والسيدة غاردنر تطلَّقا - أحد الندل في فلوريان قرأ الخبر في مكان ما وأبلغني به. استعدت كل ما حدث ذلك المساء، بل إن التفكير فيه جعلني أشعر بالحزن بعض الشيء، ذلك أن السيد غاردنر كان رجلًا لائقًا، وكيفما نظرتَ إلى الأمر، سواء أعاد إلى الساحة أم لم يعد، فإنه سيبقى دائمًا أحد أولئك المغنين العظام.

Come Rain or Come Shine

أحبت إميلي، مثلي تمامًا، أغاني برودواي الأميركية القديمة، فكانت تميل إلى الأغنيات ذات الإيقاع السريع، مثل «Cheek to Cheek» لإيرفينغ برلين و«Begin the Beguine» لكول بورتر، في حين فضَّلتُ الأغاني الراقصة الحلوة والمريرة - «Here's That Rainy Day» أو «It Never Entered My Mind». إلا أنه كان هناك تقاطع كبير بيننا. وعلى أية حال، ففي تلك الأيام كان من قبيل المعجزة أن نعثر في حرم الجامعة، جنوب إنجلترا، على شخص آخر يقاسمنا هذا الشغف. أما اليوم، فالأرجح أن أي شاب سيبدي اهتمامًا بكل أنواع الموسيقى. ابن أخي، الذي يبدأ عامه الجامعي هذا الخريف، يمر الآن بمرحلة التانغو الأرجنتيني. يحب أيضًا إديث بياف وأغاني الفرق الموسيقية البديلة المستقلة. ولكن أذواقنا تلك الأيام، لم تكن بذلك التنوع تقريبًا. فزملائي من الطلاب كانوا ينتمون إلى أحد معسكرين شاسعين: الهيبيُّون بشعورهم الطويلة وملابسهم الفضفاضة، وهؤلاء عشقوا «الروك التقدمي»، وهناك المتأنقون، أصحاب بدلات التويد، ممن اعتبروا أي شيء خارج الموسيقى الكلاسيكية ضوضاء فظيعة. كان يحدث أحيانًا أن تلتقي بشخص يزعم اهتمامًا بالغًا بالجاز، وسرعان ما تكتشف بأنه ليس سوى طارئ على هذا المجال الموسيقي - بارتجالات لا حصر لها، ومن دون احترام للأغاني الأصلية، المكتوبة بأسلوب جميل، والتي تمثل نقاط انطلاق لمقطوعات الجاز.

لذا كان من قبيل الراحة أن يكتشف المرء شخصًا آخر، وفتاة، ممن كان لديهم تقدير لكتاب الأغاني الأميركية العظيمة. فإميلي، مثلي تمامًا، اهتمت

بجمع اسطوانات الأغاني الطويلة، التي تؤديها أصوات حساسة من دون أي زخرفة للأغنيات الأصلية - بإمكانك العثور وفي كثير من الأحيان على مثل هذه الألبومات وبأسعار رخيصة في المتاجر التي تبيع أشياء غير مرغوب فيها، أو مهملة من قبل جيل والدينا. فضّلتْ سارة فوغان وشيت بيكر، فيما فضلتُ أنا جولي لندن وبيجي لي. لم يكن أيٌّ منا كبيرًا على سيناترا أو إيلًا فيتزجيرالد.

في سنتها الدراسية الأولى، أقامت إميلي في الكلية، وكان لديها في غرفتها مشغل أسطوانات محمول، من النوع الذي كان رائجًا جدًّا في ذلك الوقت. بدا مثل علبة قبعة كبيرة، وقد كستْها أسطح من الجلد الصناعي بلون أزرق شاحب واتصلت بمكبر صوت مدمج. وإذا ما رفعت غطاءها، سيظهر أمامك القرص الدوار جاثمًا في الداخل. أما صوته فكان بدائيًا جدًّا قياسًا إلى معايير أيامنا هذه. لكني أتذكر كيف كنا نتحلّق حوله بسعادة لساعات، منطلقين من أغنية، وخافضين الإبرة بعناية على أغنية أخرى. أحببنا الاستماع إلى إصدارات مختلفة للأغنية نفسها، مثيرين جدالًا يتعلق بكلماتها، أو أداء مغنّيها. هل كان من الصواب فعلًا أن تؤدى الجملة هذه، بتلك اللهجة الساخرة؟ هل كان من الأفضل أن تغنى «Georgia on My Mind» بطريقة توحي أن جورجيا امرأة أو مكان في أميركا؟ كنا نشعر بمتعة خاصة حين نعثر على تسجيل - مثل غناء راي تشارلز «Come Rain or Come Shine» - التي كانت كلماتها سعيدة، بعكس الأداء الذي كان يفطر القلب.

كان عشق إميلي لتلك التسجيلات عميقًا لدرجة أني كنت أصاب بذهول كل ما وجدتها تحدث طلابًا آخرين عن بعض فرق الروك المزيفة أو كاتب أغان تافه من كاليفورنيا. في بعض الأحيان، كانت تدخل في جدال ما حول ألبوم «مفاهيمي» بالطريقة نفسها التي قد نناقش فيها غيرشوين أو هوارد أرلين، ما يضطرني إلى عض شفتي للحؤول دون إظهار غيظي.

كانت إميلي، في ذلك الوقت، ضئيلة الجسد وفاتنة، ولو لم تكن قد استقرت في علاقتها على تشارلي في وقت مبكر من حياتها الجامعية، فمن المؤكد أن

رجالًا كثرًا كانوا سيتنافسون عليها. لكنها لم تكن أيضًا راغبة في الغزل أو ترتدي ملابس فاضحة. لذا، فما إن أصبحت رفيقة تشارلي حتى انسحب الآخرون ممن فكروا في التماس ودها.

«لهذا السبب أعمل على إبقاء تشارلي حولي كل الوقت»، قالت لي مرة، بوجه كانت ملامحه من الجدية حد الموت، قبل أن تنفجر في الضحك حين بدت الصدمة على وجهي. «مجرد نكتة، سخيفة. تشارلي حبيبي، حبيبي، حبيبي».

تشارلي كان أقرب أصدقائي في الجامعة. خلال السنة الأولى، تسكعنا معًا طوال الوقت، وهكذا تعرفت بإميلي. وفي السنة الثانية، حصل شارلي وإميلي على منزل مشترك في المدينة. ورغم أنني غدوت زائرًا دائمًا لهما، فإن تلك النقاشات مع إميلي حول مشغل أسطواناتها كانت قد أصبحت من الماضي. في البداية، كنت كلما دعيت إلى المنزل أجد العديد من الطلاب الآخرين جالسين في المكان، يضحكون ويتحدثون، وكان هناك الآن نظام ستيريو فاخر يرغي ويزبد بموسيقى الروك بحيث يتحتم عليك الصراخ إذا ما أردت أن تتكلم.

ظللنا أنا وتشارلي صديقين مقربين لسنوات وسنوات. قد يحدث ألا يرى أحدنا الآخر بقدر ما كان الأمر سابقًا، لكننا نعزو الأمر بشكل أساسي إلى المسافة، إذ أمضيت سنوات من حياتي هنا في إسبانيا، كما في إيطاليا والبرتغال، بينما استقر تشارلي بشكل دائم في لندن. لكن إذا كان ذلك سيجعل الأمر يبدو وكأنني الدائم الترحال ويجعل تشارلي الملازم لوطنه، فإن هذا سيكون مثيرًا للضحك. ذلك أن الذي يسافر كل الوقت هو تشارلي في الواقع - نحو تكساس وطوكيو ونيويورك - لاجتماعاته الفائقة في حيويتها، في حين ظللت عالقًا في المباني الرطبة نفسها عامًا بعد عام، تارة لكتابة الاختبارات الإملائية أو إجراء المحادثات نفسها بإنجليزية مبطَّأة. اسمي- راي. ما - هو - اسمك؟ هل - لديك - أطفال؟

حينما احترفت تدريس اللغة الإنجليزية بعد تخرجي من الجامعة، بدا لي الأمر نذيرًا لأسلوب حياة جيدة، واستمرارًا لحياة الجامعة. كانت مدارس اللغات

منتشرة في جميع أنحاء أوروبا كالفطر. وإذا كان التدريس مملًّا وساعاتُ عمله نوعًا من الاستغلال، فإنك في ذلك الزمن لم يكن ليؤثر فيك هذا الأمر كثيرًا. فأنت تنفق وقتًا كثيرًا في الحانات ويسهل عليك بناء الصداقات، كما تشعر بأنك جزء من شبكة واسعة متنشرة على امتداد المعمورة. كان بامكانك لقاء أشخاص من بيئة محلية في البيرو أو تايلاند ما يجعلك تفكر في أنَّك لو شئت، سيكون بمقدورك الطواف في جميع أنحاء العالم وإلى أجل غير مسمى، متكئًا على علاقاتك الاجتماعية للظفر بوظيفة في أي ركن قصي تحلم به، وأنك ستكون جزءًا من هذه العائلة المريحة ذات التقارب الحميمي من المعلمين المسافرين، وتتبادل وإياهم، وأنتم تشربون، قصصًا عن زملائهم السابقين ومدراء المدارس بوصفهم مرضى نفسيين، وموظفي المجلس البريطاني كأشخاص غريبي الأطوار.

دار الحديث في أواخر الثمانينيات عن إمكانية جني مال وفير من خلال التعليم في اليابان، وأعددتُ خططًا بجدية تامة للذهاب إلى هناك، إلا أن الأمر لم ينجح. فكرت أيضًا في البرازيل، حتى أنني قرأت بعض الكتب حول الثقافة والتقاليد وملأت بعض الإستمارات. ولكن بطريقة أو بأخرى لم أذهب قط إلى أي مكان بعيد هكذا، عدا جنوب إيطاليا، والبرتغال لفترة قصيرة، قبل المجيء إلى هنا في إسبانيا. لكنك تجد نفسك في السابعة والأربعين فجأة، من دون أن تعرف كيف حدث ذلك. أما أولئك الذين بدأت حياتك معهم منذ زمن طويل، فقد حلَّ مكانهم جيل آخر مهتم بالثرثرة في مواضيع مختلفة أشد الإختلاف، ويتعاطى أنواعًا مختلفة من المخدرات، ويستمع كذلك إلى نوعٍ موسيقي مختلف.

في الوقت نفسه، فإن تشارلي وإميلي تزوجا واستقرا في لندن. أخبرني تشارلي مرة بأنهما حين سينجبان أطفالًا، سأكون عرابهم. إلا أن ذلك لم يحدث قط. ما قصدت قوله هو أنهما لم يرزقا بطفل، وأفترض أنه فات الأوان لذلك الآن. لا بد لي من الاعتراف، بأنني شعرت دومًا بخيبة أمل بسبب هذا، ربما لتصوري دومًا بأن كوني عرابًا لأحد أطفالهما سيضع فيما بيننا صلة رسمية، مهما كانت واهية، بين حياتهما في إنجلترا وحياتي هنا.

على أية حال، فإنني في بداية هذا الصيف ذهبت إلى لندن للإقامة معهما. كنت قد رتبت كل شيء مسبقًا، وحين اتصلت هاتفيًا قبل بضعة أيام من ذلك للتحقق بأن كل شيء على ما يرام، أخبرني تشارلي بأن كل شيء بينهما «جيد على نحو رائع». لهذا، لم يكن هناك أي سبب لأتوقع شيئًا آخر غير الإسترخاء وتدليل نفسي خصوصًا بعد أن كنت أمضيت بضعة أشهر لم تكن الأفضل في حياتي.

الواقع، أن أفكاري تركزَّت، حينما خرجت من محطة مترو الأنفاق في ذلك اليوم المشمس، على التحسينات الممكنة التي قد تكون قد أضيفت إلى غرفة «نومي» قياسًا إلى آخر زيارة لي. فلطالما جرى الأمر على هذا المنوال على مر السنين. مرة يكون هناك أداة إلكترونية لمَّاعة منتصبة في الزاوية، ومرة أخرى، يكون قد أعيد تصميم المكان بأسره. وكنقطة مبدئية، كان يتم إعداد الغرفة لي على طريقة فندق فخم فيما يتعلق بكل التفاصيل: المناشف وكيفية وضعها، وعلبة بسكويت بجانب السرير، إضافة إلى مجموعة منتقاة بعناية من الأقراص المدمجة على طاولة الكومودينو. قبل بضع سنوات، دعاني تشارلي إلى دخول الغرفة، وبكبرياء شخص غير مبال بدأ بنقر الأزرار، بحيث أضيئت وأطفئت بمهارة كل أنواع اللمبات السرية: تلك التي وراء لوح السرير الأمامي، وفوق الخزانة، وهلمَّ جرًا. مفتاح آخر أطلق صوت هدير لتبدأ الستائر ذات الأضلاع في الهبوط وتغطي النافذة.

«مهلًا، تشارلي، لم قد أحتاج لستائر بأضلاع؟»، سألته حينها. «أريد أن أكون قادرًا على رؤية المنظر الخارجي حين أستيقظ. الستارة ستكون كافية».

«إنها ستائر سويسرية»، قال، كما لو أن هذا التفسير كاف.

إلا أن تشارلي هذه المرة قادني عبر الدرج مغمغمًا لنفسه، وحينما وصلنا إلى غرفتي لاحظت أنه بدأ يفتعل الأعذار، ورأيت الغرفة كما لم أرها من قبل. كان السرير عاريًا، والفرشة فوقه مبقَّعة ومجعَّدة. كما انتشرت على الأرض أكوام من المجلات وكتب الجيب، وحزم من الملابس القديمة، وعصا هوكي ومكبر

صوت سقط على جانبه. وقفت عند العتبة وأخذت أحدِّق إلى ذلك بينما تشارلي يفسح مجالًا لوضع حقيبتي.

«تبدو كأنك على وشك أن تطلب رؤية المدير»، قال بسخرية.

«لا، لا. كل ما هنالك هو أنه ليس مألوفًا لي رؤية الغرفة على هذه الحال».

«إنها فوضى، أعلم. فوضى». جلس على الفراش وتنهد. «ظننتُ أن عاملات التنظيف اهتممن بالأمر. ولكن طبعًا لم يفعلن. الله وحده يعلم السبب».

بدا انه مخدوع، ولكنه بعد ذلك وثب فجأة على قدميه من جديد.

- انظر، دعنا نذهب لتناول الغداء. سأترك ملحوظة لإميلي. يمكن لنا أن نحظى بغداء طويل ومن دون عجلة وبحلول وقت عودتنا، تكون غرفتك - بل الشقة بأكملها - قد نظفت.
- ولكن، لا يمكننا أن نطلب من إميلي ترتيب كل شيء.
- أوه، لن تقوم بالأمر بنفسها. ستتصل بعمال النظافة. وهي تعرف كيف تتعقبهم. ليس بحوزتي أرقام هواتفهم. الغداء، فلنتناول الغداء. ثلاثة أطباق، وزجاجة نبيذ، وكل شيء.

ما سماه تشارلي بالشقة لم يكن سوى الطابقين العلويين من تيراس بأربعة أدوار في شارع يمتاز بالفخامة، وبالحركة الناشطة كذلك. دلفنا من الباب الأمامي مباشرة لننضم إلى حشد من الناس وحركة المرور. تبعت تشارلي في عبوره بالمحلات التجارية والمكاتب باتجاه مطعم إيطالي صغير وحاذق. لم يكن لدينا حجز، لكن الندل استقبلوا تشارلي كصديق واصطحبونا إلى إحدى الطاولات. اكتشفت بالنظر من حولي، أن المكان يعج برجال الأعمال ممن ارتدوا بدلات وربطات عنق، وكنت سعيدًا بأن تشارلي بدا مهلهلًا على شاكلتي. لا بد أنه خمَّن ما أفكر فيه، لذلك فما إن جلسنا حتى قال:

«أوه، كم توحي بأنك من الأقاليم المحيطة بلندن، راي. كل شيء تغيَّر الآن على أية حال. لا تنسَ أنك بقيت لفترة طويلة خارج البلاد». ثم وبصوت عال مثير للانتباه، قال: «يبدو كأنه صنيع يدينا. كل شخص آخر هنا يبدو كما لو أنه

من الإدارة المركزية». ثم مال نحوي وقال بصوت أكثر هدوءًا: «علينا التحدث. إنني بحاجة أن تسدي لي خدمة».

لا أتذكر متى كانت آخر مرة التمس فيها تشارلي مني المساعدة في شيء، لكنني أومأت له بصورة عفوية في انتظار ما سوف يقوله. أخذ يقلِّب قائمة الطعام لبضع ثوان، ثم وضعها جانبًا.

- الحقيقة، أننا نمر أنا وإميلي، بمرحلة صعبة نوعًا ما. حتى أننا، في الآونة الأخيرة، بدأنا بتجنب بعضنا البعض. لهذا السبب لم تكن إميلي موجودة للترحيب بك. أما الآن، فأخشى، أن عليك أن تختار البقاء برفقة واحد فقط من بيننا. مثل تلك المسرحيات حينما يلعب الممثل نفسه دورين. لا يمكنك أن تجدنا أنا وإميلي في الغرفة عينها في الوقت نفسه. الأمر سخيف، أليس كذلك؟
- من الواضح أن الوقت ليس مناسبًا لزيارتكما. سأرحل، مباشرة بعد الغداء. أمكث برفقة عمتي كايتي في فينتشلي.
- عم تتحدث؟ أنت لا تصغي إليَّ. لقد أخبرتك للتو. أريدك أن تسدي لي خدمة.
- اعتقدت أنها طريقتك في قول....
- لا، أيها الأحمق، أنا من يتوجَّب عليه الرحيل. ينبغي عليَّ الذهاب إلى اجتماع في فرانكفورت. سأطير بعد ظهر اليوم. لكني سأعود في غضون يومين، الخميس على أقصى تقدير. ويمكنك في هذا الوقت البقاء هنا. عالج الأمر، وأعِدْ كل شيء إلى طبيعته من جديد. بعدها أعود من السفر، ألقي السلام ببهجة، أقبِّل زوجتي الحبيبة، فالأمر لم يحدث منذ شهرين، ونكون رجعنا إلى بعضنا البعض.

في هذه اللحظة، وصلت النادلة لأخذ طلبنا، لكنها بعد أن ذهبتْ بدا تشارلي مترددًا في فتح الموضوع مرة أخرى. وبدلًا من ذلك، أطلق وابلًا من الأسئلة حول حياتي في إسبانيا، وكلما أخبرته أمرًا، سيئًا كان أو جيدًا، افتعل تلك الابتسامة

الفظة وهز رأسه، كما لو أنني بكلامي أثبت له أسوأ مخاوفه. وفيما كنت أخبره كم أنني تحسنت كطاهٍ، وأنني عمليًا قمت بتحضير بوفيه كريسماس لأكثر من أربعين طالبًا ومعلمًا من دون مساعدة أحد، قاطعني في منتصف الجملة.

- «أصغِ إليَّ»، قال. «وضعك ميؤوس منه. عليك أن تقدم استقالتك. لكن أولًا، ينبغي أن تجد عملًا جديدًا مناسبًا. هذا البرتغالي الكئيب، استخدمه كوسيط. أمِّن منصبك في مدريد، ثم تخلص من شقتك. حسنًا، إليك ما يجب فعله. واحد».

رفع يده وبدأ يعد كل نقطة في قائمة التعليمات التي وضعها من أجلي. وصل طعامنا وكان ما يزال لديه بضع أصابع للعد، لكنه تجاهل ذلك وواصل حديثه إلى أن انتهى تمامًا. ثم ومع بدئنا في تناول الطعام قال:

- أجزم بأنك لن تفعل شيئًا مما قلته لك.
- لا، لا. يبدو كل ما قلته عميقًا.
- ستعود أدراجك وتواصل حياتك بالطريقة ذاتها. وحين نجتمع هنا بعد عام ستشكو من الأشياء نفسها.
- لم أكن أشكو...
- هل تعلم راي، أشياء كثيرة يمكن أن يقترحها عليك الآخرون. لكن في مرحلة معينة يتحتم عليك تولي مسؤولية حياتك.
- حسنًا، سأفعل، أعدك. لكنك كنت تتحدث قبلها عن إسدائي خدمة لك.
- «آه نعم». مضغ طعامه مستغرقًا في التفكير. «بصراحة، هذا هو الدافع وراء دعوتي لك. من الرائع طبعًا أن أراك. لكن بالنسبة إلي، فإن الأمر الأساسي هو أن تقوم بشيء من أجلي. فأنت قبل كل شيء صديق قديم، صديق مدى الحياة...».

راح يأكل من جديد فجأة، وأدركت مذهولًا بأنه ينشج بصمت. مددت يدي من فوق الطاولة ووكزتُ كتفه بإصبعي، إلا أنه بقي يغرف المعكرونة ويضعها في

فمه من دون أن يرفع رأسه. وبعد دقيقة تقريبًا، مددت يدي إليه بوكزة صغيرة، إلا أن أثرها فاق وكزتي الأولى. ظهرت النادلة بعد ذلك بابتسامة ودودة للتحقق من تقييمنا للطعام. فقلنا إن كل شيء ممتاز. بدا تشارلي كأنه عاد ذلك الشخص الذي عرفته دومًا.

- أوكي راي، إسمع. ما أريده منك أمر بسيط. أن تخرج مع إميلي خلال الأيام القادمة، وتكون ضيفًا تستمتع برفقته. هذا كل ما في الأمر. فقط إلى حين عودتي.
- أهذا كل شيء؟ أنت تطلب مني فقط الاهتمام بها ريثما تعود؟
- هذا كل ما في الأمر. أو بالأحرى، دعها هي تهتم بك. فأنت الضيف. لقد رتبت لك بعض النشاطات التي يمكنك فعلها. تذاكر مسرح وغيرها. ستكون عودتي بحلول يوم الخميس على أبعد تقدير. مهمتك أن تجعل مزاجها رائقًا وتبقيه هكذا، بحيث إنني حين أعود قائلًا «مرحبا حبيبتي»، وأعانقها، تجيبني بالقول «آه مرحبًا، حبيبي. أهلًا بعودتك إلى المنزل، هل سارت الأمور على ما يرام؟»، وتعانقني بدورها، فنكمل حياتنا بعد ذلك كما في السابق، قبل أن تبدأ كل تلك الأشياء الرهيبة. هذه مهمتك. وهي فعلًا مهمة بسيطة للغاية.
- «سأكون سعيدًا لفعل أي شيء أقدر عليه»، قلت، «لكن تشارلي، هل أنت متأكد من أنها في مزاج يسمح لها بالترفيه عن الضيوف؟ من الواضح أنكما تمران بمحنة، ولا بد أن تكون مستاءة مثلك. بصراحة تامة، لا أفهم لماذا تطلب مني كل هذا الآن؟».
- ماذا تقصد بأنك لا تفهم؟ إنني أطلب منك ذلك كونك أقدم صديق لدي. أنت محق، نعم، إنني محاط بالعديد من الأصدقاء. لكن حينما يصل الأمر إلى تلك المسألة، حين أفكر مليًا في الأمر، أدرك بأنك الصديق الوحيد الذي بمقدوره مساعدتي.

أعترف بأنني تأثرت بكلامه. ورغم ذلك، لاحظت بأن شيئًا ما لا يسير على ما يرام هنا، أن ثمة شيئًا لم يبح به.

- «أستطيع أن أفهم دعوتك لي لزيارتكما لو كنتما لا تزالان تعيشان معًا»، قلت، «أستطيع أن أرى كيف سينجح الأمر. تكونان متخاصمين، فتدعوان ضيفًا لتمضية أوقات مسلية، تظهران أفضل ما لديكما من سلوك، فيبدأ الجليد في الذوبان. لكن الأمر لن ينجح في هذه الحالة، لأنك لن تكون موجودًا».
- قم بالأمر من أجلي. أعتقد أنه من الممكن أن ينجح. لطالما سُرَّت إميلي لرؤيتك.
- سُرَّت لرؤيتي؟ أتعلم تشارلي، كنت أود المساعدة. لكن الأرجح أنك مخطئ بعض الشيء في مقاربتك للمسألة، لأن لديَّ انطباعًا، وبصراحة مطلقة، بأن إميلي لن تسر إطلاقًا حين تراني، حتى في أفضل الظروف. في زياراتي الأخيرة، كانت.. حسنًا، ضيقة الصدر معي.
- راي، ثق بي وحسب. إني أعرف ما أفعله.

كانت إميلي في الشقة عند عودتنا. يتوجَّب عليَّ القول بأني تفاجأت لمقدار تقدمها في السن. لم يكن الأمر متعلقًا بان حركتها باتت، منذ زيارتي الأخيرة، أثقل بشكل ملحوظ: بل إن وجهها، الذي لطالما كان جميلًا من دون بذل مجهود للاعتناء به، بات الآن، وبوضوح، مرتخيًا متهدِّلًا كخدَّي كلب بولدوغ، وهناك مسحة استياء ثابتة على الفم. كانت جالسة على أريكة غرفة المعيشة تتصفح الفايننشال تايمز، ونهضت بوجه كالح حينما دخلت.

- «تسرني رؤيتك ريموند» قالت، وهي تقبلني بسرعة على خدي، قبل أن تعاود الجلوس.

الطريقة التي رحبت بي فيها جعلتني أرغب، ومن دون أي تفكير، بتقديم اعتذار لتطفلي عليهما في هذا التوقيت غير المناسب. لكن وقبل أن أتفوه بكلمة،

أفسحت لي مجالًا بجانبها على الأريكة، قائلة: «اجلس ريموند، وأجب الآن عن أسئلتي. أريد أن أعرف كل شيء عن حياتك في الفترة الأخيرة».

جلست لتبدأ في استجوابي، تمامًا كما فعل تشارلي في المطعم. كان تشارلي في تلك الأثناء منشغلًا بتوضيب حقيبته تحضيرًا لرحلته، وقد أخذ يتمشى داخلًا خارجًا من الغرفة في بحثه عن أشياء مختلفة. لاحظت أنهما لم يتبادلا النظر إلى بعضهما البعض ولو لمرة واحدة، لكن لم يبد أي منهما منزعجًا لوجود الآخر في الغرفة نفسها، على عكس زعم تشارلي. لم يتبادلا أي حديث بشكل مباشر، إلا أن تشارلي ظل يشارك في الحديث بطريقة غريبة وبعيدة عن أي منطق. مثلًا، حينما قلت لإميلي إنه من الصعب أن أجد زميل شقة يقاسمني عبء الإيجار، صاح تشارلي من المطبخ:

- المكان الذي يسكنه غير مهيأ لشخصين، بل لشخص واحد، وشخص لديه مال يفوق قليلًا كل ما سيجنيه طوال حياته.

لم ترد إميلي على هذا، ولكن لا بدَّ من أنها استوعبت المعلومة، إذ تابعت: «ريموند، لم يكن عليك الإقامة في شقة كتلك».

بقي الأمر على هذا المنوال مدة العشرين دقيقة التالية على الأقل، تشارلي مقدمًا مساهماته من على الدرج أو أثناء مروره عبر المطبخ، قائلًا بصوت عالٍ بعض العبارات التي تشير إليَّ بصفة الغائب. وفي إحدى اللحظات، قالت إميلي فجأة:

- آه، بصراحة يا ريموند. أنت تسمح لنفسك بأن تُستغَلَّ بكل طريقة ممكنة، من قبل مدرسة اللغات المحطمة للنفس تلك، تسمح بأن يمزقك المالك، وكيف تتصرف؟ ترافق فتاة بلهاء تعاني مشكلة إدمان ولا مهنة لديها حتى تغطي تكاليف ذلك، كما لو أنك تتعمد إزعاج أي شخص لا يزال مهتمًّا بأمرك!

- لا تتوقع بقاء كثيرين من هذه القبيلة على قيد الحياة!»، أعلن تشارلي بصوت مدوٍّ من الردهة. وأمكنني أن أعرف أن حقيبته باتت جاهزة الآن. «إنك تتصرف مثل مراهق بعد مرور عشر سنوات على انتهائه

من تلك المرحلة. لكن أن تواصل القيام بذلك وأنت في الخمسين من العمر تقريبًا!».

- إنني في السابعة والأربعين فقط...
- «ماذا تعني بأنك في السابعة والأربعين فقط؟»، كان صوت إميلي مرتفعًا بشكل لا ضرورة له نظرًا لكوني جالسًا بجانبها. «في السابعة والأربعين فقط. هذه الـ «فقط»، إنها ما يدمر حياتك يا ريموند. فقط، فقط، فقط. أبذل ما في وسعي فقط. في السابعة والأربعين فقط. ستغدو قريبًا في السابعة والستين وحينها ستجد نفسك تسير في دوائر لعينة محاولًا العثور على سقف لعين لإيوائك».
- «إنه في حاجة لأن يستجمع مؤخرته اللعينة!»، صاح تشارلي من أعلى الدرج، «أن يبذل جهدًا لتحسين سلوكه لكي يتحسن جوهر حياته».
- «ريموند، ألا يحدث أن تتوقف أحيانًا وتسأل نفسك من تكون؟»، سألت إميلي، «حينما تفكر بكل ذلك الجهد المهدور، ألا تشعر بالخجل؟ انظر إلى أين تسير حياتك! إنه.. إنه ببساطة أمر يثير الغيظ. يشعر المرء بالاستياء لذلك».

ظهر تشارلي في المدخل الرئيسي بمعطفه الواقي من المطر، وللحظة ما، كان كل منهما يصيح متفوهًا من أجلي بنصائح مختلفة في وقت واحد. ثم قطع تشارلي حديثه معلنًا أنه سيغادر - كما لو أنه أحس بالاشمئزاز مني - ليغيب عن الأنظار.

غيابه عن أنظارنا جعل إميلي توقف خطبتها اللاذعة، فاغتنمتُ الفرصة لأنهض، قائلًا: «المعذرة، سأذهب لمساعدة تشارلي في حمل أمتعته».

«ولم قد أحتاج مساعدة في أمتعتي؟»، قال تشارلي من الردهة، «لن آخذ معي إلا حقيبة واحدة فقط».

غير أنه سمح لي باللحاق به حتى الشارع ليتركني مع حقيبته فيما اتجه إلى حافة الرصيف لإيقاف سيارة تاكسي. بدا أن لا سيارة متوافرة في الأرجاء، غير أنه ظل محنيًا قامته بقلق، وذراعه نصف مرفوعة.

ذهبت إليه قائلًا: «تشارلي، لا أظن أن الأمر سينجح».

- أي أمر هذا الذي لن ينجح؟
- إميلي تكرهني جملة وتفصيلًا. هكذا كان تصرفها فور رؤيتي لبضع دقائق. كيف ستكون إذن بعد ثلاثة أيام؟ ما الذي يدفعك إلى التفكير بأنك ستعود لتجد الوفاق والمرح؟

لكني شعرت وأنا أتفوّه بهذا الكلام بأنه من المحتمل أن أفهم المسألة بعد وقت ما، أو لا أفهمها إطلاقًا، فصمتُّ. استدار تشارلي، ملاحظًا التغير الذي طرأ عليَّ، وتفحصني بعناية.

- «أعتقد»، قلت أخيرًا، «أن لدي فكرة تفسر لم وقع الاختيار عليَّ من دون أي شخص آخر».
- أها، هل يمكن أن يكون راي قد عرف الوفاق والمرح؟
- نعم، لربما أنا كذلك فعلًا.
- ولكن هل سيغير هذا شيئًا في الموضوع؟ فالأمر سيبقى على حاله، على حاله بالضبط، وهذا ما أطلب منك القيام به.

كانت عيناه مغرورقتين بالدموع الآن مرة أخرى. «هل تتذكر، راي، حين كانت إميلي تقول إنها مؤمنة بي؟ هذا ما كانت تردده لسنوات وسنوات. أؤمن بك تشارلي، يمكنك تولي زمام الأمور، أنت فعلًا موهوب. حتى قبل ثلاث سنوات أو ربما أربع، كانت لا تزال تقول الأمر نفسه. هل تعلم ماذا كانت نتيجة ذلك؟ فعلت كل ما في وسعي. بل إنني أبذل كل ما في وسعي. وكان كل شيء على ما يرام. إلا أنها ظنت بأنه مقدَّر لي أن أكون.. والله أعلم، زعيمًا لهذا العالم اللعين، الله أعلم! فأنا مجرد شخص عادي ينجز عمله وواجباته على نحو جيد. لكنها لا ترى الأمر على هذا النحو. هذا هو صلب الموضوع، صلب كل شيء سار بطريقة خاطئة».

راح يسير على طول الرصيف مطرقًا، فيما هرعت لاحضار حقيبته وجررتها على العجلات المزودة بها. كان الشارع لا يزال مزدحمًا إلى حد ما، لذا كان

البقاء خلفه تمامًا من دون صدم الحقيبة بالمارة عملًا شاقًّا. غير أن تشارلي واصل مشيه بسرعة ثابتة، غافلًا عن العناء الذي أتكبده.

- «إنها تظن بأنني تركت نفسي أتدهور»، قال، «لكني لم أفعل هذا، بل حرصت على القيام بكل شيء كما ينبغي. من الجيد وضع آفاق لا نهاية لها نصب عينيك وأنت لا تزال يافعًا. لكن في عمرنا هذا، يجب أن يكون لديك.. أن يكون لديك منظور ما. هذا ما دار في ذهني دائمًا كلما وصلت إلى حائط مسدود عند تطرقها للمسألة. المنظور، إنها في حاجة إلى منظور. ظللت أقول لنفسي، انظر، أنت تقوم بكل شيء على نحو جيد. انظر إلى الناس الآخرين، الناس الذين تعرفهم. انظر إلى راي. انظر كيف أن حياته، بسببه، أشبه بمؤخرة خنزير. إنها تحتاج إلى منظور».

- وعلى هذا الأساس قررتَ دعوتي لزيارتكما كي أكون السيد منظور.

توقف تشارلي في النهاية، وحدَّق إلى عينيَّ. «لا تفهمني خطأ يا راي. لا أقول إنك محض فشل ذريع أو شيء من هذا القبيل. إنني أدرك أنك لست مدمنًا أو قاتلًا. لكن قياسًا بي، فلنواجه الأمر، أنت لا تبدو بما أنجزته إلى الآن في قمة حياتك. لهذا، فإنني أسألك، أطلب منك بأن تفعل ذلك من أجلي. حياتنا وصلتْ إلى المحطة الأخيرة. إنني يائس. أحتاج أن تساعدني. وما الذي طلبته، بحق الله؟ فقط أن تتصرف كما أنت، بذلك اللطف المعهود. لا أكثر، ولا أقل. قم بالأمر من أجلي فقط، ريموند. من أجلي ومن أجل إميلي. لم تنته علاقتنا بعد، أعرف أنها لم تنته. كن نفسك وحسب لبضعة أيام حتى عودتي. إن ما أطلبه منك ليس كثيرًا».

سحبتُ نفسًا عميقًا وقلت: «حسنًا، حسنًا، في حال كنت تعتقد بأن الأمر سيساعدك. لكن ألن تدرك إميلي الحقيقة عاجلًا أم آجلًا؟».

- «ولم يتوجب عليها ذلك؟ إنها تعلم بأن لدي اجتماعًا مهمًا في فرانكفورت. بالنسبة إليها، هكذا هي المسألة بكل صراحة. هناك

ضيف وسوف تهتم به، هذا كل ما في الامر. وهي تحب القيام بذلك، وتحبك. انظر، هناك تاكسي». لوَّح له بحماسة، ومع اقتراب السائق منا أمسك بذراعي: «شكرًا راي. سوف تُوفَّق في إنجاز مهمتك، من أجلنا. أعلم بأنك ستفعل».

حين عدت إلى المنزل وجدت أن أسلوب إميلي تغيَّر جذريًّا. رحبت بي في الشقة بالطريقة التي يمكن أن ترحب فيها بقريب لها طاعن في السن وواهن. كان ثمة ابتسامات محفِّزة، ولمسات لطيفة على الذراع. عندما وافقت على احتساء بعض الشاي، اصطحبتني إلى المطبخ، أجلستني إلى الطاولة، ولبضع ثوان وقفت تنظر إليَّ باهتمام ارتسمت علاماته على وجهها. ثم قالت بصوت هادئ في نهاية المطاف:

- «آسفة للطريقة التي عاملتك بها قبل قليل، يا ريموند. لم يكن يحق لي أن أتحدث معك بذلك الأسلوب». ثم قالت، مبتعدة قليلًا لتحضير الشاي: «لقد مضت سنوات طويلة منذ أن كنا زميلين في الجامعة. دائمًا ما أنسى ذلك. دائمًا ما أنسى هذه النقطة. ما كنت لأحلم بالتحدث إلى أي صديق بهذه الطريقة. لكن حينما تكون أنت، حسنًا، أفترض بأنني أكترث لأمرك وحالنا يبدو كما لو أننا لا نزال في تلك الأيام، كما كنا جميعًا. إنني فقط أنسى. لا تأخذ الأمر على محمل الجد».
- لا، لا. أنا لم آخذ الأمر على محمل الجد.

كنت لا أزال أفكر في المحادثة التي دارت للتو مع تشارلي، والأرجح أنني بدوت مشتتًا. أما إميلي، فأعتقد أنها أساءت فهم الموضوع، نظرًا إلى صوتها الذي غدا أكثر لطفًا.

- «إنني آسفة جدًّا لمضايقتك». أخذت تضع بعناية صفوفًا من البسكويت على صحن أمامي. «كل ما في الأمر ريموند، أننا في تلك الأيام، كان

بامكاننا أن نعطي رأينا بوضوح في أي شيء يتعلق بحياتك، كنت تضحك ونضحك معك. يتحول كل شيء إلى نكتة كبيرة. من الغباء التفكير بأنك لا تزال كذلك».

- حسنًا، الواقع أنني لا أزال كذلك نوعًا ما، إذ أنني لم آخذ الأمر كما ذكرتِ.
- «لم أدرك ذلك»، تابعت، وبدا كما لو أنها لا تسمع ما أقول، «كم أنت مختلف الآن. كم بت قريبًا من حافة الهاوية».
- اسمعي إميلي، حالتي ليست سيئة إلى هذه الدرجة....
- أعتقد أن السنوات التي مرت بحياتك خلفت فيك جفافًا. مثل رجل يقف على شفير الهاوية. دفعة صغيرة من الخلف، وتتشقق.
- أسقط، تقصدين.

كانت خلال ذلك تلهو بالغلّاية، لكنها الآن استدارت وحدَّقت إليَّ مجددًا. «لا، ريموند، لا تتكلم هكذا. ولو مزاحًا حتى. لا أريد سماعك تتكلم هكذا».

- لا، لقد أسأتِ فهمي. لقد قلتِ إنني سوف أتشقق، لكني إذا كنتُ واقفًا على شفير الهاوية، فإنني سأسقط لا سأتشقق.
- «أوه، يا مسكين». بدا أنها لا تزال عاجزة عن استيعاب ما أقوله. «أنت مجرد قشرة لريموند الذي عرفناه في الأيام الخوالي».

فضَّلت ألَّا أجيب هذه المرة، فانتظرنا لبضع لحظات، وبهدوء، أن تغلي الماء. أحضرت كوبًا من أجلي، لكن ليس لها، ووضعته أمامي.

- إنني آسفة يا راي، لكن عليَّ العودة إلى المكتب الآن. هناك إجتماعان لا يمكنني تحت أي ذريعة التغيُّب عنهما. لو كنت أعرف بأن وضعك سيكون على هذا الحال، لبقيت معك. كنت سأهتم بعمل ترتيبات أخرى. لكني لم أفعل ذلك، وهم الآن يترقبون وصولي. مسكين يا ريموند. ما الذي ستفعله هنا، وأنت بمفردك كل الوقت؟

- سأحظى بأوقات رائعة. حقًّا. في الواقع، كنت أفكر. لم لا أقوم بتحضير طعام العشاء فيما أنتِ خارج البيت؟ قد لا تصدقين هذا، لكني طباخ ماهر هذه الأيام. في الواقع، كان لدينا ذلك البوفيه قبل الكريسماس...
- هذا لطفٌ منك، لطفٌ إلى حد لا يصدق، أن ترغب في مساعدتي. لكن الأفضل لك، كما أعتقد، هو أن تأخذ قسطًا من الراحة. فأيُّ مطبخ أنت غير معتاد عليه قد يصبح مصدرًا للتوتر الشديد. لم لا تتصرف وحسب كما لو أنك في منزلك؟ خذ حمامًا بالمستحضرات العشبية، واستمع إلى بعض الموسيقى. سأهتم بالعشاء عند عودتي.
- لكن ما الذي يدفعك للاهتمام بمسألة الطعام بعد يوم عمل طويل في المكتب؟
- «لا راي، أنت هنا فقط من أجل أن تسترخي وحسب». أخرجت بطاقة عليها اسمها وعملها ورقم هاتفها، ووضعتها على الطاولة. «تجد عليها رقم هاتفي المباشر، وليس فقط الخليوي. عليَّ الذهاب الآن، لكن بإمكانك الإتصال بي وقتما شئت. والآن تذكر، لا تفعل أي شيء يثير توترك في غيابي».

منذ فترة، وأنا أجد صعوبة في الاسترخاء في شقتي كما يجب. إذا ما كنت بمفردي في المنزل، لا أهدأ، بل يتزايد توتري وضيقي لفكرة أنني مفتقد لذلك اللقاء الذي سيكون مصيريًا في حياتي. أما إذا وضعت نفسي في مكان ليس مكاني، فينتابني شعور غامر بالسلام. أحب أن أغرق في أريكة لست معتادًا عليها، برفقة أي كتاب قريب إليَّ. وهو الأمر الذي كان أول شيء فعلته، بعد أن غادرت إميلي. أو لنقل إنني، على الأقل، استطعت قراءة بعض فصول رواية «مانسفيلد بارك» قبل أن أغطَّ في النوم لعشرين دقيقة تقريبًا.

عندما استيقظت، كانت أشعة شمس ما بعد الظهيرة قد دلفت إلى الشقة. وبعد نهوضي عن الأريكة، رحت أتفحص المكان، فلربما جاء عمال النظافة فعلًا أثناء تناولي الغداء مع تشارلي، أو رتبت إميلي كل شيء بنفسها. أيًّا يكن الأمر، فإن غرفة المعيشة الكبيرة بدت نظيفة جدًّا. وبصرف النظر عن ذلك، فإن الأثاث كان تصميمه عصريًا بمقتنيات فيها لمسة فنية، رغم أن شخصًا ما قد يقول، من باب الفظاظة، بأنها موضوعة لتخلف أثرًا في النفس. رحت أتصفح الكتب، ثم ألقيت نظرة خاطفة على مجموعة من الأقراص المدمجة. كانت في معظمها إما بوب أو روك أو موسيقى كلاسيكية، لكني في النهاية، وبعد بحث، وجدت قسمًا صغيرًا، مدسوسًا في جانب معتم، وقد خصص لفريد أستير، وشيت بيكر، وسارة فوغان. أثار حيرتي أن إميلي لم تضع المزيد من مجموعتها الثمينة من الفينيل، بجانب الأقراص المدمجة المتناسخة عنها. غير أني لم أفكر عميقًا في الأمر، بل تمشَّيت إلى أن دخلت المطبخ.

وأثناء انشغالي بفتح بعض الخزائن بحثًا عن بسكويت أو لوح شوكولاتة، لاحظت ما بدا أنه دفتر ملاحظات صغير على طاولة المطبخ. كان غلافه مبطنًا وبلون أرجواني، ما جعله بارزًا وسط أسطح المطبخ الملساء والناعمة والمُنَمنمَة. فإميلي، وفي عجلة من أمرها قبيل مغادرتها، أفرغت وأعادت ملء حقيبتها على الطاولة بينما كنت أحتسي الشاي. ومن الواضح أنها تركت دفتر الملاحظات بطريق الخطأ. غير أن فكرة أخرى وردت إلى ذهني، في اللحظة التالية فقط: لا بد أن الدفتر الأرجواني يتضمن مذكرات حميمة نوعًا ما، وقد تركته إميلي على الطاولة عمدًا، بهدف جعلي ألقي نظرة عليه، فهي ولسبب ما، شعرت بأنها غير قادرة على الإفشاء بأسرارها صراحة، لذا لجأت إلى هذه الطريقة لتشاركني اضطراباتها الداخلية.

بقيت واقفًا في مكاني لوهلة أحدِّق إلى دفتر اليوميات. ثم مددت جسمي إلى الامام، مدخلًا سبابتي بين الصفحات في المنتصف ورفعتها بحذر شديد. رؤية خط إميلي، المتراص على نحو محكم، جعلتني أسحب إصبعي، وأبتعد

عن الطاولة، قائلًا لنفسي إنَّ لا شأن لي في كل ذلك، ولا يجب عليَّ الاذعان لنوايا إميلي التي ظهرت في لحظة غير عقلانية.

رجعت إلى غرفة المعيشة، لأستقر في الأريكة قارئًا بضع صفحات من «مانسفيلد بارك». غير أني لم أكن قادرًا على التركيز الآن، إذ بقي ذهني يعود إلى الدفتر الأرجواني. ماذا لو لم يكن تصرف إميلي تلقائيًّا؟ وأنها خططت لهذا لأيام وأيام؟ ماذا لو أن المكتوب فيه أُلِّفته من أجلي، وبحرص شديد، كي أقرأه؟

بعد مرور عشر دقائق على هذا، عدت إلى المطبخ لأمعن النظر أكثر في الدفتر الأرجواني. ثم جلست على الكرسي نفسه الذي جلست عليه لأحتسي الشاي، وسحبت دفتر المذكرات لينزلق صوبي، وفتحته.

غير أن شيئًا واحدًا سرعان ما تجلى بوضوح، وهو أنه إذا كانت إميلي قد دونت تأملاتها العميقة في دفتر مذكرات، فإن هذا الدفتر لا بد أن يكون في مكان آخر غير المطبخ. ذلك أن ما كان ماثلًا أمام عينيَّ هو في أحسن الأحوال دفتر مواعيد مبجَّل، خربشتْ فيه بشكل يومي، ملاحظات متفرقة من أجلها، بعضها حمل طموحًا ببُعد لافت، تدوينة برأس قلم كتبت بخط عريض هكذا: «إن كنتِ لم تتصلي إلى الآن بماتيلدا، فلماذا بحق الجحيم لا تفعلين؟ افعليها!!!».

تدوينة أخرى انطلقت كالتالي: «أنهي فيليب روث اللعين. عودي إلى ماريون!».

ثم، وفيما بقيت أقلب الصفحات، عبرتُ بـ: «ريموند آتٍ الاثنين. تذمري، تذمري!».

قلبت عددًا من الصفحات الأخرى لأجد: «راي غدًا. كيف يمكن لي البقاء على قيد الحياة؟».

ثم أخيرًا: «اشتري نبيذًا احتفاء بوصول أمير المتذمرين»، والمكتوبة صباح اليوم نفسه، وسط مذكرات حول واجبات روتينية متفرقة.

أمير المتذمرين؟ استغرقني وقتٌ لأستوعب أن هذا التوصيف يشير حقًّا إليَّ. جربت كل الاحتمالات - أهو زبون؟ سبَّاك؟ وفي نهاية المطاف، وبالنظر

إلى التاريخ والسياق، أذعنت لفكرة أن لا مرشح حقيقيًا آخر سواي. شعوري بالغبن، لمنحي هذ الوصف، ولَّد لديَّ صدمة غير متوقعة، وقبل أن أعرف ذلك، وأدرك الأمر، وجدت نفسي أغلق أصابعي على الصفحة المسيئة.

لم يكن تصرفي شرسًا للغاية: فأنا لم أمزق الصفحة حتى. بل ببساطة أغلقت قبضتي عليها بحركة واحدة، وفي غضون ثانية سيطرت على نفسي، لكن بالطبع، كان قد فات الأوان، إذ فتحت قبضتي لأكتشف بأنني لم أمزق الصفحة المعنية وحسب، بل إن الصفحتين اللتين تحتها سقطتا أيضًا ضحية غضبي. حاولت أن أُملِّس الصفحات لتعود إلى وضعها الطبيعي، إلا أنها كانت تتجعلَك من جديد، كأن أعمق أمنياتها كانت بأن تتحول إلى كرة قمامة.

مع ذلك، قمت في حركة مذعورة، بفعل حركيٍّ بيدي، فوق الصفحات المتضررة. كنت على وشك أن أقتنع بأن جهودي ذاهبة سدى - فكل ما أفعله لا يمكن أن ينجح بإخفاء رد فعلي - حينما أدركت أن الهاتف يرن في مكان ما من الشقة.

قررت تجاهله، ومضيت في التفكير بعواقب فعلتي. غير أن المجيب الآلي انطلق وأمكنني سماع صوت تشارلي أثناء تركه رسالة لي. لربما هو إحساسي بأن ثمة حبل نجاة، ولربما شعوري وحسب بأنني أحتاج شخصًا أئتمنه على سري الآن. لكني هرعت إلى غرفة المعيشة ورفعت سماعة الهاتف من على طاولة القهوة الزجاجية.

- «أوه، أنت هنا»، بدا تشارلي منزعجًا بعض الشي لأني قاطعت رسالته.
- تشارلي، اسمع. لقد قمت بتصرف أخرق.
- «إنني في المطار»، قال. «لقد تأخرنا في رحلة الاقلاع. وددت الإتصال بخدمة السيارة التي ستقلني من مطار فرانكفورت، لكني لم أحضر رقمهم. لذا، فإنني أريدك أن تقرأه لي».

بدأ بإعطائي تعليمات تتعلق بالمكان الذي يمكن أن أجد فيه دليل الهاتف، لكني قاطعته، قائلًا:

- انظر، لقد قمت بتصرف سيئ. ولا أعرف ماذا أفعل.

ساد صمت لبضع ثوان بيننا. ثم قال: «ربما أنت تفكر يا راي. تفكر أن ثمة شخصًا آخر، وبأنني سافرت لأراه. لقد خطر في ذهني أنك قد تكون فكرت بهذا. ففي النهاية، قد تنطبق ظنونك على كل شيء رأيته. الطريقة التي تصرفت فيها إميلي حين غادرت، وكل شيء. لكنك مخطئ».

- نعم، أتفهم وجهة نظرك. لكن اسمع، ثمة مسألة أريد أن أحدثك بشأنها...
- اقبل الأمر وحسب يا راي. أنت مخطئ. ليس هناك امرأة أخرى. إنني ذاهب الآن إلى فرانكفورت لحضور اجتماع يتعلق بتغيير وكالتنا في بولندا. هذا هو المكان الذي سأذهب إلى الآن.

مكتبة

- نعم، أفهمك.
- لم تكن هنالك امرأة أخرى في أي مرحلة. لم أكن أبدي اهتمامًا بأي امرأة، على الأقل ليس بأي شكل جدي. هذه هي الحقيقة. إنها الحقيقة اللعينة ولا شيء يمكن زيادته عليها!

بدأ يصرخ، إلا أن ذلك كان سببه عى الأرجح الضجيج من حوله في صالة المغادرة. أما الآن وقد أصبح هادئًا، فقد ركزت باهتمام معه لأعرف إذا ما كان يبكي مرة أخرى، غير أن كل ما سمعته كان ضوضاء المطار. ثم فجأة قال:

- أعرف بماذا تفكر. أنت تفكر، حسنًا، بأن ليس ثمة امرأة أخرى. لكن ربما هناك رجل آخر؟ هيا، اعترف بالأمر، هذا ما تفكر فيه، أليس كذلك؟ هيا، قلها!
- الواقع، لا. لم يحدث أن خطر في بالي أن تكون مثليًا. حتى عندما ثملت وتظاهرت بذلك بعد الامتحانات النهائية....
- صه، أيها الأحمق! قصدتُ رجلًا آخر، كعشيق لإميلي! عشيق لإميلي، هل هذه الفكرة اللعينة موجودة في رأسك؟ هذا ما أدركه. والإجابة، بحسب رؤيتي للأمر، هي لا، لا، لا. بعد كل تلك السنوات، يمكنني

قراءة تصرفاتها بشكل جيد. لكن المشكلة، كي أكون دقيقًا، ولأنني أعرفها جيدًا، يمكنني أن أخمن أمرًا آخر أيضًا. يمكنني القول إنها بدأت تفكر في الأمر. هذا صحيح، راي، إنها تبحث عن رجال آخرين. رجال مثل ديفيد كوري اللعين!

- من يكون هذا؟
- ديفيد كوري اللعين متملق بغيض ومحام في المحاكم العليا وحياته تسير على خير ما يرام. أعرف تمامًا إلى أي مدى تسير بشكل جيد، لأنها تخبرني إلى أي مدى تسير حياته بشكل جيد، بل وبالتفاصيل المثيرة.
- أتظن... أنهما يتواعدان؟
- لا، لقد أخبرتك للتو! لا يوجد شيء بينهما، ليس بعد! على أية حال، فإن ديفيد كوري اللعين لن يمنحها أية فرصة. فهو متزوج بامرأة فاتنة تعمل لدى كوندي ناست.
- أنت إذن في الأمان...
- أنا لست في الأمان. فهنالك أيضًا مايكل أديسون، وروجر فان دن بيرغ وهو نجم صاعد في ميريل لينش وقد اعتاد الذهاب إلى المنتدى الاقتصادي العالمي كل عام....
- انظر يا تشارلي، أرجوك أصغِ. لدي مشكلة هنا. مشكلة صغيرة كيفما نظرتَ إليها، أعترف. لكنها تبقى مشكلة مع ذلك. أرجوك أصغِ فقط.

في النهاية، كان عليَّ إخباره بما حصل. استعدت كل شيء بالصراحة التي استطعتها، رغم أني تفاديت نوعًا ما التطرق إلى مسألة أن تكون إميلي قد تركت رسالة لي.

- «أعلم أنه كان من قبيل الغباء»، قلت، وأنا أقترب من نهاية القصة، «لكنها تركته هناك، على طاولة المطبخ».
- «نعم»، بدا أن تشارلي بات الآن أكثر هدوءًا وبشكل ملحوظ. «نعم. وأنت سمحت لنفسك بالاطلاع عليه».

ثم ضحك. شجعني هذا، فضحكت أيضًا.

- «أعتقد أنني بالغت في رد فعلي»، قلت. «الدفتر في النهاية، لا يتضمن مذكراتها الشخصية أو شيئًا من ذلك القبيل. إنه فقط مفكرة...».

توقفت عن الضحك، فتشارلي ظل يضحك، وكانت هناك لمسة هستيرية نوعًا ما في ضحكاته. ثم توقف وقال بشكل قاطع:

- «إذا اكتشفتِ الأمر، فسترغب في اقتلاع خصيتيك من جذورهما». ساد صمت مقتضب بيننا أصغيتُ خلاله إلى ضوضاء المطار، ثم تابع:
- «قبل حوالي ست سنوات أو قرابة ذلك، فتحت الدفتر بنفسي بشكل عرضي وحسب، بينما كنت جالسًا إلى طاولة المطبخ، وهي منشغلة بتجهيز الطعام. كما تعرف، فتحته بنقرة سريعة وأنا أتلفظ بشيء ما، مشتت الذهن. لاحظتِ الأمر فورًا وأخبرتني بأن ما فعلته لا يسرها. الواقع، كان ذلك حين أخبرتني بأنها ستنشر خصيتي. وبما أنها كانت منهمكة باستعمال الشوبك وبمهارة لافتة في تلك اللحظة، فإنني أشرتُ بالقول إلى أنها لا تستطيع تنفيذ تهديدها بالشوبك. فقالت لي إن الشوبك سيأتي للمرحلة التالية، لما ستفعله بخصيتيَّ بعد قطعهما.

دوى في الخلفية صوت إعلان عن رحلة ما.

- «ما الذي تقترح عليَّ فعله؟»، سألت.
- ماذا يمكنك أن تفعل؟ فقط استمر بتمليس الصفحات. لربما لن تلاحظ.
- لقد قمت بذلك لكن الأمر لا يجدي نفعًا. لا يمكن إلا أن تلاحظ....
- انظر، راي، أمور كثيرة تشغل تفكيري. ما أحاول قوله لك هو إن كل أولئك الرجال الذين تحلم إميلي بهم، ليسوا في الواقع عشاقًا حقيقيين، بل مجرد صور تعتقدُ بأنها رائعة كونها مؤمنة بأنهم أنجزوا الكثير. إنها لا ترى بثورهم. لا ترى وحشيتهم الصرف. جميعهم مُكلِفون للغاية بالنسبة إليها. النقطة الرئيسة، وهو ما يثير الحزن والسخرية حد البؤس،

النقطة الرئيسة، هي أنها تحبني. إنها لا تزال تحبني. يمكنني قول ذلك، يمكنني قول ذلك.

- إذن، لا نصيحة لديك يا تشارلي.
- «لا! ليست لدي أي نصيحة لعينة من أجلك»، انفجر صارخًا فيَّ وعلى نحو تام مرة أخرى. «ستكتشف الأمر بنفسك! استقل طائرتك ولأستقل طائرتي ونرى أي طائرة منهما ستتحطم!».

عند هذا، أغلق تشارلي الخط. هبطت مسترخيًا في الأريكة آخذًا نفسًا عميقًا. قلت لنفسي إن عليَّ إبقاء كل شيء في مكانه، في حين شعرت بذعر ولَّد في معدتي إحساسًا بغثيان غامض. أفكار مختلفة أخذت تدور في خاطري. أحد الحلول كان في أن أفر من الشقة وأقطع لسنوات كل صلة لي بتشارلي وإميلي، وأرسل لهما رسالة ذات طبيعة متحفظة، مكتوبة بعناية. لكني رفضت هذه الخطة، رغم وضعي الحرج، باعتبارها مسألة بائسة للغاية. خطة أفضل كانت تقتضي بأن أستهلك محتوى الزجاجات المحفوظة في خزانة الشراب، وحين تصل إميلي تجدني ثملًا إلى حد مثير للشفقة. أستطيع عندها الإدعاء بأنني خلال هذياني الكحولي، ألقيت نظرة على دفتر مذكراتها وأتلفت الصفحات. يمكنني في سكري الجنوني لعب دور الطرف المجروح في كرامته، صارخًا ومشيرًا إلى نقاط ما، وأخبرها كم عانيت أذيتها ومرارتها خلال قراءتي ما كتبته عني، باعتبارها شخصًا لطالما اعتمدت على صداقته ومحبته لي، ما أعانني على الصمود في أحلك لحظات حياتي في بلاد غريبة ومنعزلة. وفيما تضمنت هذه الخطة نقاطًا يمكن الإشادة بها على نحو عملي، أمكنني أن أحدس شيئًا - شيئًا قريبًا من عمق الموضوع، شيئًا لم أجرؤ على تفحصه عن كثب - لعلمي أن الامر سيغدو مستحيلًا عليَّ. بعد فترة ما، بدأ الهاتف يرن وسمعت صوت تشارلي ينبعث من الآلة مجددًا. حينما رفعت السماعة بدا أنه أهدأ بكثير من ذي قبل.

- «إنني عند بوابة الطائرة الآن»، قال. «آسف إذا ما بدوت مضطربًا قبل قليل. المطارات تجعلني هكذا. لا أهدأ إلا حين أكون جالسًا

عند البوابة. راي، اسمع، هناك شيء فكرت فيه، فيما يتعلق باستراتيجيتنا».

- استراتيجيَّتنا؟

- نعم، استراتيجيتنا بأبعادها الشاملة. لقد أدركتَ بطبيعة الحال أن الوقت ليس مناسبًا لإحداث تغييرات وتعديلات طفيفة بغية وضع نفسك تحت أضواء أفضل. إنه ليس الوقت المناسب إطلاقًا لهكذا كذبة بيضاء لتبجيل الذات. لا، لا. أنت تتذكر، ألست تتذكر، لمَ كلفت بهذه المهمة في المقام الأول. راي، إنني أعتمد عليك لتظهر لإميلي على طبيعتك. أبقِ على ذلك، تبقى استراتيجيتنا على المسار الصحيح.

- حسنًا، نادرًا ما أعتبر بطلًا عظيمًا في عيني إيميلي كلما اتبعت هذا المسار خلال زياراتي لكما...

- نعم أنت تقدِّر الوضع وأنا ممتن لك. لكن شيئًا ما فكرت فيه. هناك شيء واحد، شيء صغير لن يجدي نفعًا ضمن الأدوار التي ستؤديها. كما تعرف يا راي، فإن في رأسها تلك الفكرة التي تقول بأنك تتحلى بذائقة موسيقية عظيمة.

- آه..

- المناسبات الوحيدة تقريبًا التي تلجأ فيها إميلي إلى الاستعانة بوجودك للتقليل من شأني هي في مجال الذائقة الموسيقية. إنه المجال الوحيد الذي يجعلك غير مناسب البتة لمهمتك التي كلفت بها. لهذا راي، عدني بألا تتحدث معها في هذا الشأن.

- بحق الله...

- قم بالأمر وحسب كرمى لي يا راي. ليس كثيرًا ما أطلبه منك. فقط لا تقترب في حديثك من.. من تلك الدندنات الموسيقية النوستالجية التي تعشقها إميلي. أما إذا فتحتْ هي معك الموضوع، فتظاهر كما لو

أنك مغفَّل. هذا كل ما أطلبه منك. عدا ذلك، كن على طبيعتك. راي، أستطيع الإعتماد عليك في هذا، أليس كذلك؟

- نعم، أفترض ذلك. كل هذا الكلام نظري بحت على أية حال. لا أعتقد أننا سنثرثر في أي شيء هذا المساء.
- جيد، اتفقنا إذن. فلننتقل الآن إلى معضلتك الصغيرة. سيسرك أن تعرف بأنني فكرت في الأمر قليلًا. بل إنني استنبطت حلًّا لها. هل أنت مصغ إلي؟
- نعم إنني مصغ.
- هناك هذان الزوجان اللذان يستمران بزيارتنا. أنجيلا وسولي. إنهما لطيفان، لكن لو لم نكن جيرانًا، ما كان ليجمعنا بهما شيء. هما دائمًا ما يكونان في محيطنا. يهبطان من دون سابق إنذار، متوقعين أن يشربا معنا فنجان شاي. هذا ما وددت الإشارة إليه، بأنهما يأتيان في أية لحظة، كلما أخذا هندريكس في جولة خارج البيت.
- هندريكس؟
- هندريكس رائحته كريهة، ولا يمكن السيطرة عليه. إنه على الأرجح كلب لبرادور قاتل. بالنسبة إلى أنجيلا وسولي، فإن هندريكس بالطبع هو الطفل الذي لم يلداه. أو قل الطفل الذي لم ينجباه إلى الآن، وربما لا يزالان صغيرين على إنجاب أطفال. لكن لا، فهما يفضلان هندريكس حبيب قلبيهما، حبيب قلبيهما. وحين يأتيان لزيارتنا، فإن هندريكس الحبيب يتصرف وبشكل روتيني على أنه سيهدم المكان بإصرار لص ساخط. يوقع المصباح العمودي. آه يا حبي، انس الأمر، يا حبي، هل أخافك المصباح؟ وصلتك الصورة. اسمع الآن. قبل عام، كان لدينا كتاب يوضع على طاولة القهوة، كلفنا مبلغًا من المال، كان مليئًا بالصور الفنية لشبان مثليين بوضعيات مختلفة في القصبة بشمال أفريقيا. أحبت إميلي إبقاءه مفتوحًا عند صفحة معينة، ظنًّا منها أنها

تتلاءم والأريكة. وكانت تجنُّ لو قلبت الصفحة. على أية حال، جاء هندريكس قبل سنة، ومضغ الصفحة بأكملها. غرز أسنانه بالضبط في الفوتوغرافيا اللمَّاعة، بل ومضى في مضغ ما يقارب العشرين صفحة كاملة قبل أن تقنعه الماما بالكف عن فعل ذلك. تدرك الآن لِمَ أخبرك بهذا، أليس كذلك؟

- نعم، أرى أنك تلمح إذن لوجود مخرج للهرب، لكن...
- صحيح، سأوضح الأمر الآن. هذا ما ستقوله لإميلي: «رن جرس الباب، ففتحت، لأرى هذين الزوجين مع هندريكس الذي أخذ يشد الحزام المربوط به بعزم. قالا لك إنَّهما أنجيلا وسولي، صديقان أتيا لاحتساء كوب من الشاي. أدخلتهما، هندريكس تصرف بوحشية ومضغ الدفتر». خطة معقولة تمامًا. ماذا هناك؟ لم لا تشكرني؟ ألم أفكر في الأمر من أجلك يا سيدي؟
- إنني ممتن جدًّا، تشارلي. كل ما هنالك أنني أفكر في الأمر. تبقى نقطة واحدة، ماذا لو أتى ذانك الجاران فجأة؟ أعني بعد عودة إميلي إلى البيت.
- محتمل جدًّا. كل ما يمكنني قوله هو إنك ستكون سيئ الحظ عندها، سيئ الحظ إلى حد فظيع، إذا حدث ذلك. عندما قلت إنهما يجيئان كثيرًا، قصدت ربما مرة في الشهر على الأكثر. كفَّ إذن عن رصد الثقوب وكن ممتنًّا.
- لكن يا تشارلي، أليس احتمالًا بعيدًا القول إن هذا الكلب لم يمضغ إلا دفتر المذكرات، وتحديدًا تلك الصفحات؟

سمعته يتنفس الصعداء. «ظننت أن لا حاجة لأكمل بقية الخطة. سيكون عليك بطبيعة الحال الاهتمام بالمكان بعض الشيء. أسقط المصباح العمودي، بعثر السكر على أرض المطبخ. اظهر الأمر كما لو أن هندريكس زوبع في

المكان. اسمع، إنهم ينادون على ركاب الرحلة. عليَّ الذهاب. سأعود إليك فور وصولي إلى ألمانيا.

بينما رحت أصغي إلى تشارلي، راودني إحساس مشابه لما أشعر به عادة حين يبدأ شخص ما في وصف حلم رآه، أو ظرف غريب أدى إلى اصطدام طفيف بباب سيارته. كانت خطته بحذافيرها جيدة - بل غاية في البراعة حتى - إلا أنني لم أر كيف يمكن لكل ذلك أن يكون له علاقة بما يفترض بي قوله أو القيام به بعد عودة إميلي إلى البيت، فوجدت بأنني بت متبرمًا أكثر فأكثر. لكن ما إن غاب تشارلي حتى اكتشفت أن اتصاله كان له أثر المنوم المغناطيسي عليَّ. حتى وعقلي يرفض الفكرة بشكل قاطع، بوصفها حمقاء، فإن ذراعيَّ وساقيَّ كانت تستعد للبدء بوضع «الحل» الذي ابتكره قيد التنفيذ.

بدأت كل شيء بوضع المصباح العمودي على جنبه. كنت حريصًا ألا أصدمه بشيء، ففصلت كمته أولًا، واضعًا إياها إلى الوراء بزاوية مائلة. وبعد أن اتخذ كل شيء الترتيب الذي ينبغي أن يكونه على الأرض، تناولت المزهرية من على رف الكتب ووضعتها على السجادة، ناثرًا حواليها الأعشاب المجففة التي كانت داخلها. ثم اخترت بقعة مناسبة قرب طاولة القهوة لـ«أسقط» سلة المهملات المخصصة للورق. مضيت في عملي بأسلوب متحرر روحيًّا بشكل غريب. لم أعتقد أن أيًّا من ذلك من شأنه أن يحقق نتيجة، إلا أنني وجدت أنه إجراء مهدئ للتوتر. تذكرت بأن التخريب هذا يفترض به أن يتعلق بدفتر اليوميات، فدلفت إلى داخل المطبخ.

بعد التفكير لوهلة قصيرة، تناولت زبدية السكر من الخزانة، ووضعتها على الطاولة غير بعيد من دفتر اليوميات الأرجواني، وأملتها ببطء حتى انزلق السكر منها. توجب عليَّ القيام بمجهود لأحول دون تدحرج الزبدية من على حافة الطاولة، لكني في النهاية نجحت في إبقائها في مكانها. مع مضي الوقت، فإن الشعور بالذعر الذي كان قد انتابني تبخر. لم أكن هادئًا تمامًا، لكن بدت لي إعادة نفسي إلى الحال التي كنت فيها أمرًا سخيفًا.

عدت إلى غرفة المعيشة، استلقيت على الأريكة وتناولت كتاب جين أوستن. بعد قراءة بضعة أسطر، شعرت بتعب شديد يجتاحني. وقبل أن أدرك الأمر كنت قد غططت في النوم مجددًا.

أيقظني الهاتف. وحينما سمعت صوت إميلي يخرج منه جلست وأجبت عليه.

- أوه، ريموند العجوز، أنت في المنزل. كيف حالك يا عزيزي؟ كيف تشعر الآن؟ هل استطعت أن تنعم ببعض الراحة؟

أكدت لها بأنني أخذت قسطًا من الراحة وبأنني كنت نائمًا.

- هذا مؤسف! الأرجح أنك لم تحظ بنوم جيد لأسابيع، وفور تجد لحظة مناسبة للراحة، أقوم بازعاجك! إنني آسفة! وإنني آسفة أيضًا، راي، لأنني سأخيب ظنك. ثمة أزمة كبيرة هنا ولن أكون قادرة على العودة إلى البيت كما كنت آمل. الواقع أنني سأتأخر ساعة على الأقل. ستكون قادرًا على الاهتمام بنفسك، أليس كذلك؟

كررت لها من جديد كم أشعر بالاسترخاء والسعادة.

- نعم، أنت تبدو مرتاحًا الآن. إنني آسفة، ريموند، لكن عليَّ الذهاب وحل المسألة. اهتم بنفسك، فيما يخص أي شيء ترغب فيه. الوداع، عزيزي.

أغلقتُ السماعة ومططت ذراعيَّ. كان ضوء النهار قد بدأ يتلاشى الآن، فتنقلت في الشقة مشعلًا الأضواء. ثم تأملت غرفة معيشتي «المحطمة»، وكلما أمعنت النظر فيها، بدت لي أكثر بأنها ملفقة، وبشكل يبعث ارتباكًا في النفس. بدأ الشعور بالذعر يضرب معدتي مرة أخرى.

رن الهاتف مجددًا. كان تشارلي هذه المرة. أخبرني، بأنه، عند حزام الأمتعة في مطار فرانكفورت، وأن الأمر سيستغرق وقتًا طويلًا لعينًا، إذ لم تخرج أية حقيبة إلى الآن. «كيف حالك هناك؟ هل المدام في المنزل؟».

- لا، ليس بعد. انظر، تشارلي، خطتك تلك لن تجدي نفعًا.
- ماذا تقصد بكون الخطة لن تجدي نفعًا؟ لا تقل لي إنك أمضيت الوقت في اللعب بابهاميك والتفكير في أن الأمر انتهى.
- فعلت ما اقترحتَه. عبثت بالمكان، لكن الأمر لا يبدو مقنعًا. لا يبدو الأمر كأن كلبًا كان هنا، بل أشبه بمعرض فني.

صمت للحظة، مركِّزًا اهتمامه ربما على حزام الأمتعة. ثم قال: «يمكنني فهم مشكلتك، كون المكان ملكية لأشخاص آخرين. لا بدَّ من أن تكون مثبط العزيمة. لذا، اسمع، سأذكر بعض المقتنيات التي أرغب كثيرًا في أعماقي بأن أراها محطمة. هل أنت مصغٍ إليَّ، راي؟ أريد أن تلحق ضررًا بهذه الأشياء. ثور الخزف الغبي. إنه بجانب مشغل الأقراص المدمجة. هدية من ديفيد كوري اللعين بعد رحلة قام بها إلى لاغوس. يمكنك تهشيمه كبداية. الواقع أنني لا أهتم لما ستحطمه. دمر كل شيء!».

- تشارلي، أعتقد أن عليك أن تهدأ.
- حسنًا، حسنًا. لكن هذه الشقة مليئة بالأغراض غير المرغوب فيها. تمامًا كما هو حال زواجنا الآن. إنه مليء بكل ما هو منهَك وغير مرغوب. تلك الأريكة الحمراء الإسفنجية، تعرف أي واحدة أعني، راي؟
- نعم. الواقع أنني كنت نائمًا عليها للتو.
- كان يجب ازالتها منذ وقت طويل. لمَ لا تمزق الغطاء وتبعثر النسيج الصوفي في الأرجاء؟
- تشارلي، يجب أن تتمالك أعصابك. أعتقد بأنك لا تساعدني على الإطلاق، بل تستخدمني كأداة للتعبير عن إحباطك وغضبك...
- «أوه كف عن التفوه بهذه الهراء! إنني بالطبع أحاول مساعدتك. ومن دون شك أن خطتي جيدة، بل إنني أكفل لك نجاحها. إميلي تكره ذلك الكلب، إنها تكره سولي وأنجيلا، لذا ستغتنم كل فرصة ممكنة لتعزيز كراهيتها لهما أكثر فأكثر. اسمع». انخفض صوته فجأة ليقارب

الهمس. «سأمنحك نصيحة كبيرة. الخلطة السرية التي ستكفل لك اقتناع اميلي بكل شيء. كان عليَّ أن أفكر في هذا قبل الآن. كم تبقى لديك من الوقت؟».

- ساعة أو نحو ذلك...

- جيد. اصغِ بعناية. الرائحة. هذا صحيح. اجعل للمكان رائحة كلب. ستتذمر فور دخولها المنزل، حتى وإن كان ذلك بغير وعي. ثم تقف في الغرفة، لتلاحظ أن ثور ديفيد الخزفي العزيز على قلبها مهشمٌ على الأرض، وأن النسيج الصوفي للأريكة الحمراء الخرقاء متناثرٌ هنا وهناك...

- اسمع الآن، لم أقل بأني سـ...

- اصغِ وحسب! حين ترى كل ذلك الحطام، ستربط الأمر، بوعي أو بغير وعي، فورًا برائحة الكلب. المشهد بأكمله بوجود هندريكس سيومض بصورة واضحة في رأسها، حتى قبل أن تكون قد تفوهتَ بكلمة. هذا هو سحر خطتنا.

- أنت تتكلم بحماقة يا تشارلي. حسنًا، كيف يمكن أن أجعل منزلك تفوح منه رائحة نتنة لكلب؟

- «أعرف تمامًا كيف يمكن تركيب رائحة كلب». كان صوته لا يزال هامسًا لكنه ممتلئٌ حماسة. «أعرف بالضبط كيف يمكنك أن تصنعها، فأنا وطوني راتون اعتدنا تركيبها في الصف الأوَّل الثانوي. كانت لديه وصفة، لكني عملت على صقلها».

- لكن لم؟

- لم؟ لأن الرائحة كانت أقرب إلى الملفوف منها إلى الكلب، وهذا هو السبب.

- لا، عنيت لماذا فكرتما بفعل ذلك... انظر، لا مانع لدي، طالما أن الأمر لا يستلزم أن أخرج لشراء علبة من مختبر كيميائي.

- «جيد. أنت الآن على وشك الانطلاق. أحضر قلمًا، راي. وسجل. آه، أخيرًا، هذا ما سنفعله». لا بد أنه وضع الهاتف في جيبه، إذ سمعت للحظات بعد ذلك أصواتًا آتية من أعضائه. ليعود إليَّ قائلًا:
- عليَّ الذهاب الآن. سجل هذا عندك. هل أنت مستعد؟ قِدرٌ متوسط الحجم. الأرجح أنك ستجده على الموقد. ضع فيه حوالي نصف لتر من الماء. أضف مكعبين من لحم البقر، ملعقة تحلية واحدة من الكمون، ملعقة كبيرة من الفلفل الحلو، ملعقتين من الخل، والكثير من ورق الغار. هل فهمت ذلك؟ الآن ضع فيه حذاء من الجلد أو بوطًا، ضعه رأسًا على عقب، وبالتالي فإن الكعب لا يكون غاطسًا في المزيج. ما يعني أنه لن يكون هنالك أي رائحة تدل على حريق مطاط. قم بعدها بتشغيل الغاز، ثم دع الخلطة تغلي، واتركها تُطهى على نار هادئة. بعدها بقليل، ستلاحظ انبعاث رائحة. لن تكون رائحة فظيعة. وصفة طوني بارتون الأصلية اشتملت على رخويات من الحديقة، لكن هذه الوصفة حاذقة أكثر. تمامًا كرائحة كلب كريهة. أعلم، بأنك ستسألني أين أجد المكونات. جميع الأعشاب والأشياء الأخرى يمكنك العثور عليها في خزائن المطبخ. ولو اتجهت إلى الخزائن تحت الدرج، فستلقى زوجًا من الأحذية المهملة هناك. ليس من ماركة ويلينغتونس. أعني حذاء كرة المضرب، انها أشبه بالأحذية المستخدمة لزيادة الطول. اعتدت ارتداءها في مناسبات غير رسمية. وهي بانتظار أن يرفعها أحد. خذ واحدًا منها. ما الأمر؟ اسمع راي، نفذ ما أقوله لك وحسب، حسنًا؟ أنقذ نفسك. لأنني أقول لك، إميلي ليست شخصًا هينًا حين تكون غاضبة. يجب عليَّ الذهاب الآن. أوه، وتذكر. لا تتباهَ بما لديك من معرفة موسيقية رائعة.

ربما كان ذلك ببساطة هو التأثير الذي يتخلف بعد تلقي مجموعة من التعليمات الواضحة، مهما كانت مريبة: إذ حين أغلقت سماعة الهاتف، داهمني

مزاج، مثل مزاج رجال الأعمال التجارية، وأمكنني أن أرى ما ينبغي عليَّ فعله. اتجهت إلى المطبخ وأشعلت الأضواء للتأكد بأن القدر «المتوسط الحجم» آخذ مكانه على الموقد، بانتظار تكليفه بالمهمة المقبلة. ملأته حتى المنتصف بالماء، ثم وضعته من جديد على الموقد. لكني أدركت وأنا أفعل ذلك، بأن ثمة شيئًا آخر عليَّ القيام به قبل المضي قدمًا: أعني التأكد من أنني سأحظى بالوقت اللازم لإكمال مهمتي. ذهبت إلى غرفة المعيشة، التقطت الهاتف، واتصلت بمكان عمل إميلي.

تكلمت مع مساعدتها التي قالت لي إن إميلي في اجتماع. ألححت، في نبرة تُوازن بين اللطافة والحزم بأن تخرج إميلي فورًا من اجتماعها، «هذا إذا ما كانت في اجتماع أصلًا». في اللحظة التالية، كانت إميلي على الخط.

- ما الأمر ريموند؟ ماذا حدث؟
- لم يحدث شيء. اتصلت بك فقط لأطمئن عليكِ.
- راي، تبدو غريب الأطوار. ما الأمر؟
- ماذا تعنين بغريب الأطوار؟ اتصلت بك لأتثبت من موعد عودتك. أعلم أنك تعتبرينني شخصًا عديم النفع، لكني أثمِّن الجداول الزمنية بكل أصنافها.
- ريموند، لا داعي للتفوه بأشياء من هذا القبيل. دعني أرى. سيلزمني ساعة أخرى قبل أن أعود... أو ربما ساعة ونصف. إنني آسفة بحق، لكن ثمة أزمة حقيقية هنا...
- ساعة إلى تسعين دقيقة. لا بأس. هذا كل ما أحتاج معرفته. حسنًا، أراك قريبًا. يمكنك العودة إلى عملك الآن.

لربما كانت على وشك أن تقول أشياء أخرى، إلا أنني أغلقت السماعة وخطوت عائدًا إلى المطبخ، معتزمًا ألا أسمح لمزاجي، الذي بدأ بحسم الأمور، في التبخر. الواقع، أن شعورًا واضحًا بالحبور قد بدأ يتولَّد لديَّ، بل إنني لم أفهم كيف سمحت لنفسي بالدخول في حال من اليأس قبل وقت سابق. مررت

بالخزائن وصففت، في طابور منظم قرب الفرن، الأعشاب والتوابل التي كنت في حاجة إليها. ثم أضفتها إلى كمية مناسبة من الماء، حرَّكتها بسرعة قبل أن أذهب لإحضار حذاء.

الخزائن تحت الدرج أخفت عن الأنظار الأحذية البائسة المظهر. وبعد البحث للحظات عثرت على أحد الأحذية التي وصفها تشارلي بالتأكيد - عينة مهترئة بآثار طين قديم على امتداد حواف الكعب. حملته برؤوس أصابعي إلى المطبخ ووضعته بعناية في الماء بحيث يكون النعل متجهًا إلى السقف. ثم أشعلت اللهب تحت القدر، وجلست إلى الطاولة منتظرًا أن يسخن الماء. حين رن الهاتف من جديد ترددت في الابتعاد عن القدر، لكن صوت تشارلي بدأ بالتحدث على الآلة. لذا أخفضت اللهب في نهاية المطاف وذهبت للرد عليه.

- «ما الذي قلته؟»، سألت، «بدا كأنه إشفاق على الذات لكني كنت منشغلًا ففاتني ذلك».
- إنني في الفندق. ثلاث نجوم لا غير. هل يمكنك أن تصدق الوقاحة! شركة ضخمة كتلك! ومحض غرفة صغيرة ورديئة!
- لكنك ستمكث هناك لبضع ليال فقط...
- اسمع، راي، هناك تفصيل لم أكن صادقًا تمامًا بشأنه في وقت سابق. ذلك ليس منصفًا بحقك. فأنت في النهاية تسدي لي خدمة، أنت تقوم بالأفضل لي، تحاول إصلاح الأشياء مع إميلي، وها أنذا، لا أكون صريحًا معك.
- إن كنت تتحدث عن وصفة رائحة الكلب، فقد فات الأوان. الطبخة على النار. بوسعي إضافة عشبة أخرى أو شيء من هذا القبيل...
- إذا لم أكن مستقيمًا معك من قبل، فهذا لأنني لم أكن مستقيمًا مع نفسي. لكني الآن، وبما أنني بعيد، فبإمكاني التفكير بشكل أكثر وضوحًا. راي، قلت لك إنه لا يوجد شخص آخر، لكن هذا ليس صحيحًا تمامًا. هنالك تلك الفتاة. نعم، إنها فتاة، في أوائل الثلاثينات

على الأكثر. وهي مهتمة جدًّا بقطاع التعليم في العالم النامي، وتحسين التجارة العالمية على نحو أكثر إنصافًا. لم يكن انجذابًا جنسيًّا في الواقع، لكنه نوع من الحصيلة الثانوية. إنها مثاليتها التي لا تشوبها شائبة. ذكرتني كيف كنا جميعًا ذات يوم. هل تذكر ذلك، راي؟

- إنني آسف يا تشارلي، لكن لا أتذكر أنك كنت يومًا، وعلى نحو خاص، مثاليًا. الواقع أنك لطالما كنت أنانيًّا وساعيًا وراء المتع...
- حسنًا، لربما كنا جميعنا سذَّجًا منحطين في ذلك الوقت، أغلبُنا. لكن لطالما كان هناك تشارلي الآخر، في مكان ما في أعماقي، منتظرًا الخروج. هذا ما جذبني إليها...
- تشارلي، متى حدث ذلك؟
- ما الذي متى حدث؟
- العلاقة بينكما؟
- ليس هنالك أية علاقة! لم أمارس معها الجنس، ولا أي شيء. حتى أنني لم أتناول الغداء معها. إنني فقط.. حرصت على التأكد بأن أراها دومًا.
- ما الذي تعنيه بأنك حرصت على رؤيتها؟

كنت قد انتقلت هذه المرة إلى المطبخ محدِّقًا إلى خلطتي.

- «حسنًا، بقيت أراها»، قال، «ظللت آخذ مواعيد لرؤيتها».
- أتعني أنها عاهرة تدعوها من خلال الهاتف؟
- «لا، لا، قلت لك، لم نمارس الجنس. إنها طبيبة أسنان. بقيت أذهب إليها، مصطنعًا ألمًا هنا، أو شعورًا بعدم الراحة في لثتي. أنت تعرف، لم يعد بوسعي السيطرة على نفسي. وبطبيعة الحال، عرفت إميلي بالأمر في النهاية». لثانية، بدا تشارلي كأنه مختنق ويكتم نشيجه. ثم انفجر السد. «لقد اكتشفتِ الأمر.. اكتشفته.. لأنني بدأت أنظف أسناني بالخيط كثيرًا». كان صوته الآن عبارة عن نصف صراخ. «قالت، لم

يحدث في أي وقت مضى أن نظفت أسنانك بالخيط إلى هذا الحد».

- لكن هذا غير منطقي. إن كنت تعتني بأسنانك أكثر، فهذا يعني أن لديك أسبابًا أقل لتعود إلى عيادتها...
- منَ يأبه لما هو منطقي؟ لقد أردت إرضاءها وحسب!
- اسمع تشارلي، إن لم تخرج معها، ولم تمارسا الجنس، فأين القضية؟
- القضية هي أنني لطالما أردت أن أكون مع شخص مثلها، شخص يُخرج ذلك الآخر مني، الآخر المحاصر في داخلي...
- تشارلي، اصغ إلي. منذ آخر مكالمة لك، استجمعتُ نفسي إلى حد كبير. وبصراحة شديدة، أعتقد أن عليك أن تتمالك أعصابك. يمكننا مناقشة المسألة برمتها بعد عودتك. لكن إميلي ستكون في المنزل بعد ساعة أو نحو ذلك، ويجب أن يكون كل شيء جاهزًا. إنني في أوج عملي الآن، تشارلي. أعتقد أن بامكانك تخمين ذلك من صوتي.
- هذا رائع! أنت في أوج عملك. عظيم! يا لك من صديق لعين...
- تشارلي، أعتقد أن استياءك سببه عدم رضاك عن الفندق. لكن عليك أن تتمالك أعصابك. ضع الأشياء في منظور محدد. والجأ إلى أعماقك. إنني في ذروة عملي الآن. سأهتم بموضوع تركيب رائحة الكلب، وأقوم بدوري على أكمل وجه، كرمى لك. إميلي، عليَّ أن أقول: إميلي، انظري إليَّ، انظري كم أنني مثير للشفقة. الحقيقة أن الناس في معظمهم مثيرون للشفقة، بمقدار ما أنا. لكن تشارلي، إنه مختلف. إنه من طينة مختلفة.
- لا يمكنك قول ذلك. إنه لا يبدو طبيعيًا البتَّة.
- طبعًا لن أقول ذلك الكلام بهذه الطريقة حرفيًّا، أيها الأحمق. اسمع، دع الأمر لي. كل شيء تحت السيطرة. فلتهدأ. عليَّ الذهاب الآن.

أغلقت سماعة الهاتف لأتفحَّص القدر. كان السائل يقترب من حافة القدر عند نقطة الغليان وهناك الكثير من البخار في المكان، لكن لم يكن هناك أثر

لرائحة من أي نوع. ضبطت اللهب بحيث يبقبق المزيج بشكل متوازن. وحينها شعرت بتوق شديد لاستنشاق بعض الهواء المنعش، وبما أنني لم أتحقق إلى الآن من الشرفة، فقد فتحت باب المطبخ ودلفت إلى الخارج.

كان الطقس معتدلًا بصورة مذهلة بما يتناسب وأمسية إنجليزية لأوائل يونيو. شيء فقط في النسيم أنبأني بأنني لست في إسبانيا. السماء لم تكن معتمة بشكل تام بعد، لكنها كانت ممتلئة بالنجوم. خلف الحائط، الذي شكَّل نهاية الشرفة، أمكنني أن أرى لأميال النوافذ والباحات الخلفية في الممتلكات المجاورة. الكثير من النوافذ كانت مضاءة، وإذا ضيقت عينيك، فستبدو كأنها امتداد للنجوم. أما شرفة السطح فلم تكن فسيحة، لكن كان هناك مسحة رومانسية تتعلق بها. كان بامكانك أن تتخيل ثنائيًا يأتي إلى هنا في خضم حياة المدن الصاخبة، لقضاء أمسية دافئة، فيتنزه الإثنان سيرًا على الأقدام، مازَيْن بالشجيرات المزروعة في أصص، يتبادلان حكايات يومهما وكل منهما يعانق الآخر.

كان بامكاني البقاء على الشرفة لفترة أطول، لكني خشيت أن أفقد ذلك الزخم، فعدت إلى المطبخ، وتمشيت حول القدر المغلي، ثم وقفت عند عتبة غرفة المعيشة لأمسح بنظري ما قمت به. خطئي الأكبر، وهو ما صعقني، تمثل في فشلي التام في النظر إلى المهمة من وجهة نظر كائن مثل هندريكس. أما النقطة المفصلية فكانت في أن أزجَّ نفسي داخل روح هندريكس ورؤيته.

بمجرد ما التزمت بوجهة النظر تلك، لم أكتشف وحسب بأن جهودي كانت كلها بلا جدوى، بل كذلك كم كان القسم الأكبر من اقتراح تشارلي بائسًا، إذ كيف يمكن لكلب مليء بالحيوية أن يستخرج ثور خزف من وسط نظام الصوتيات عالي الدقة ويهشمه؟ كما أن فكرة بَقْر الأريكة ونثر النسيج القطني بدت حمقاء. لكي يفعل هندريكس ذلك، يجب أن يكون فمه مزودًا بأسنان مثل الشفرة. أما وعاء السكر المقلوب في المطبخ فبدا أن لا بأس فيه، بخلاف غرفة المعيشة، التي أدركت، بأنه يجب أن يعاد تصوُّرها من الصفر.

ذهبت إلى غرفة المعيشة جاثمًا على أربع بحيث أستطيع رؤية الأشياء من خط نظر هندريكس. وبشكل فوري، قدمت كومة المجلات اللماعة على طاولة القهوة نفسها على أنها هدف واضح، فدفعتها عن سطح الطاولة في مسار يتناسب مع اندفاع خطم هائج. أما الطريقة التي حطت فيها المجلات على الأرض فقد بدت جديرة بالتصديق إلى حد مُرضٍ تمامًا. وهو الأمر الذي شجعني، فركعت وفتحت إحدى المجلات ورحت أمضغ إحدى الصفحات بصوت مسموع، في أسلوب أملت أن يجد صداه حين تقوم اميلي بتفحص دفتر اليوميات. إلا أنَّ النتيجة هذه المرة كانت مخيبة للآمال: إذ من الواضح بما لا يقبل الشك أن هذا التخريب من صنيعة يد إنسان لا أسنان كلب. لقد كررت مجددًا خطئي السابق: فأنا لم أندمج بشكل كاف في دور هندريكس.

لذا، جثمت على أربع، خافضًا رأسي نحو المجلة نفسها، غارزًا أسناني في صفحاتها. كان للمجلة نكهة عطر، لكنها لم تكن منفرة بأي شكل. فتحت مجلة أخرى من تلك التي كانت قد وقعت أرضًا، عند منتصفها تقريبًا، وكررت فعل الأمر نفسه. التقنية التي بدأت ببنائها شيئًا فشيئًا بدت مثالية، إذ لم تكن تشبه ألعاب المعارض حيث يحاول المرء قضم التفاحات المهتزة في الماء من دون استخدام يديه. أفضل شيء كان حركة المضغ البطيئة، الخفيفة، بأن تدع الفكين يتحركان بشكل مرن كل الوقت: فهذا من شأنه أن يجعل الصفحات تتشقق وتتجعد بشكل محكم. أما العضة المركزة، من الناحية الأخرى، فإنها تجعل الصفحات تتدبَّس ببعضها من دون أن يكون لها تأثير عظيم.

وبسبب انغماسي في مهمتي وضرورة إنجازها بدقة، فإنني لم أدرك قبل هذه اللحظة بأن إميلي كانت تقف في الردهة تراقبني من وراء المدخل. ما إن أدركت وجودها حتى شعرت بشيء لا يشبه الإحساس بالذعر أو الإحراج، وإنما بأنني تعرضت لأذى متعمد كونها بقيت واقفة من دون أن تعلن عن وصولها بأية طريقة. حين أتذكر الآن كيف اضطررت للإلحاح بأن يتم وصلي بمكتبها قبل دقائق فقط من كشفها الحالة التي كنت غارقًا فيها الآن أشعر بأنني وقعت ضحية خداع

متعمد. لهذا ربما، فإن أول رد فعل لي كان أن أصطنع بكل بساطة تنهيدة متعَبة ومن ثم أتخلى عن وضعيتي الجسمانية على أربع. تنهُّدي دفع إميلي إلى دخول غرفة المعيشة لتضع يدها برفق بالغ على ظهري. لست متأكدًا في الواقع ما إذا كانت هي نفسها قد ركعت، لكن وجهها كان قريبًا للغاية من وجهي حين قالت:

- «ريموند، لقد عدتُ. فلنجلس سويًّا، هل يمكننا فعل ذلك؟». أخذت تهدئني بأن ساعدتني في الوقوف على قدميَّ، فقاومت الرغبة في التخلص منها.
- «الأمر كما تعلمين، غريب»، قلت، «فأنتِ منذ بضع دقائق كنت على وشك الدخول إلى اجتماع».
- كنت سأفعل ذلك، نعم. لكني بعد المكالمة أدركت أن الأولوية هي أن أعود إلى المنزل.
- ماذا تعنين بالأولوية؟ أرجوكِ، إميلي، ليس عليكِ الإستمرار في الإمساك بذراعي بهذه الطريقة. فأنا لن أنقلب. ماذا تعنين بأولوية العودة إلى المنزل؟
- مكالمتك. أدركت علام اشتملت. كانت نداء استغاثة.
- «لم تشتمل على أي شيء من هذا القبيل. لقد حاولت أن...»، لكني توقفتُ، منتبهًا لأنَّ إميلي تنظر في أرجاء الغرفة وعلى وجهها تعبير دهشة.
- «آه ريموند»، تمتمت، تقريبًا لنفسها.
- أظن أنني كنت خرقاء قليلًا من قبل. لقد كان عليَّ أن أرتب المكان، لكنك وصلت مبكرًا.

مددت يدي لألتقط المصباح العمودي الملقى على الأرض، لكن إميلي منعتني.

- هذا غير مهم، راي. إنه حقًّا غير مهم. يمكننا ترتيب كل شيء لاحقًا. اجلس فقط واسترخ.

- اسمعي إميلي، أدرك أنه منزلك. لكن لماذا انسللتِ إليه بهدوء شديد؟
- لم أنسلَّ، يا عزيزي. لقد ناديتُ عليك فور دخلت، لكني ظننت أنك لست هنا. لهذا دلفت إلى المرحاض، وحين خرجت، حسنًا، رأيتك أمامي. لكن ما فائدة التطرق إلى كل هذا؟ لا شيء فيه مهم. إنني في البيت الآن، ويمكن لنا قضاء أمسية مريحة سويًّا. أرجوك، اجلس ريموند. سأحضر بعض الشاي.

كانت تسير فعلًا نحو المطبخ وهي تقول ذلك، فيما كنت منشغلًا بمعالجة كمة المصباح، لذا فإنني لم أنتبه للحظات لما كان يحدث هناك - إلا أن الأوان كان قد فات. رحت أصغي لرد فعلها، إلا أنه لم يكن هناك أي شيء، عدا الصمت. في نهاية المطاف، وضعتُ أرضًا كمة المصباح وشققت طريقي إلى المطبخ.

كان القدر لا يزال يغلي على نحو أنيق، والبخار يتصاعد من حول نعل البوط المقلوب. الرائحة، التي بالكاد استطعت التقاطها حتى تلك اللحظة، كانت أكثر كثافة في المطبخ نفسه. كانت لاذعة، بما يكفي، وبنكهة كاري غامضة. لكنها فوق ذلك أعادت إلى الأذهان تلك اللحظات حين تخلع البوط من قدمك بحركة عنيفة، بعد رحلة سيرًا على الأقدام، فتفوح منه رائحة تعرُّق.

كانت إميلي واقفة على بعد خطوات من الموقد تحرك عنقها بما يسمح بإلقاء نظرة متفحصة على القدر من مسافة آمنة. بدت غارقة كليًّا في المشهد، وحينما أطلقت قهقهة صغيرة معلنًا عن وجودي لم تنقل عينيها، ولا حتى التفتت صوبي.

اصطدمت بها وأنا أعبر لأجلس إلى طاولة المطبخ، فاستدارت نحوي في النهاية بابتسامة لطيفة. «هذا عذب إلى حد رهيب، يا ريموند».

بعد ذلك، وكما لو أنه ضد إرادتها، نقلت عينيها نحو وعاء الطهي.

أمكنني رؤية زبدية السكر المائلة - ودفتر المذكرات - واعتراني شعور

هائل بالارتباك. كل شيء بدا غامرًا، وقررت أن لا مفر من التوقف عن القيام بكل هذه الألاعيب والاعتراف. سحبت نفسًا عميقًا، قائلًا:

- «اسمعي إميلي. قد يبدو كل شيء من حولك مثيرًا للاستغراب نوعًا ما. لكنه متعلق بدفتر المذكرات خاصتك. هذا الدفتر». فتحت الدفتر على الصفحة التي تعرضت للضرر وأريتُها لها. «لقد كان خطأ فادحًا مني، وأنا أعتذر بصدق. غير أن ما حدث هو أنني فتحته، ومن ثمَّ، حسنًا، حدث أن مضغت الصفحة بشراهة هكذا...». قلدت ما فعلته قبل قليل لكن بنسخة يملؤها الحقد، ثم نظرت إليها.

ما أثار دهشتي هو أنها لم تمنح اليوميات أكثر من مجرد نظرة خاطفة قبل أن تستدير نحو القدر قائلة: «أوه، إنه دفتر لتدوين أشياء على عجل وباختصار. لا شيء خاص. لا داعي للقلق حيال ذلك، راي». ثم اقتربت خطوة من القدر لتتفحصه على نحو أفضل.

- ما الذي تعنينه؟ ما الذي تعنينه بأن لا داعي للقلق حياله؟ كيف يمكنك قول ذلك؟

- ما الأمر، ريموند؟ إنه مجرد دفتر لتدوين ملاحظات يمكن أن تُنسى.

- «لكن تشارلي قال لي إنك ستنفجرين غضبًا!». كان إحساسي بالمهانة الآن قد زاد عليه حقيقة أن إميلي نسيت بصورة واضحة ما كانت قد كتبته عني.

- حقًّا؟ هل قال تشارلي بأنني سأغضب؟

- نعم! وبأنكِ في الواقع قلت له إنك ستنشرين خصيتيه إذا ما حدث وألقى نظرة واحدة داخل دفترك الصغير هذا!

لم أكن متأكدًا ما إذا كانت الحيرة في نظرة إميلي سببها ما قلته، أو أنها ما بقي بعد التحديق مطولًا في القدر. جلست إلى جانبي وفكرت للحظة.

- «لا»، قالت، أخيرًا. «لقد كان ذلك بسبب شيء آخر. أتذكر كل شيء بوضوح الآن. حدث ذلك في مثل هذا الوقت من العام الفائت. شعر تشارلي بالقنوط لسبب ما، فسألني ماذا سأفعل لو انتحر. كان ذلك

اختباره لي. إنه أكثر جبنًا من أن يقوم بفعلة كهذه. إلا أنه سألني، وأخبرته بأنني سأنشر خصيتيه إذا ما فعل ذلك. تلك كانت المرة الوحيدة التي أقول له فيها شيئًا كذلك. أعني إنها ليست لازمة تتكرر عندي».

- لا أفهم. لو انتحر، فإنك ستفعلين ذلك به؟ بعد انتحاره؟
- مجرد مجاز، ريموند. حاولت أن أعبر عن مدى بغضي لفكرة أن ينهي حياته. كان الغرض من ذلك جعله يشعر بقيمته.
- لم تفهمي وجهة نظري. إذا ما فعلتِ ذلك بعد انتحاره، فإنه لن يكون مثبطًا حقًّا، أليس كذلك؟ أو لربما أنتِ على حق، سيكون...
- ريموند، فلننس الأمر. لننس كل هذا. هناك كسرولة لحم ضأن من يوم أمس، وفيها لا يزال أكثر من نصف الطبخة. كان مذاقها لذيذًا ليلة أمس، ولا بد أنها أفضل حالًا هذه الليلة. يمكننا أيضًا فتح زجاجة نبيذ بوردو. كان عذبًا منك أن تقوم باعداد شيء من أجلنا. لكن الكسرولة هي ما سنتناوله الليلة، ما رأيك؟

كل المحاولات لتفسير الوضع الراهن بدت دون متناولي. «حسنًا، حسنًا. كسرولة لحم الضأن. رائع. نعم، نعم».

- يمكننا إذن وضع ذلك الشيء جانبًا الآن؟
- نعم، نعم. أرجوك قومي بذلك. أرجوكِ ضعيه جانبًا.

نهضتُ واتجهتُ نحو غرفة المعيشة - التي كانت لا تزال عبارة عن فوضى، لكن لم يكن لدي أي طاقة للبدء في ترتيبها. بدل ذلك، استلقيت على الأريكة وأخذت أحدِّق إلى السقف. كنت مدركًا في لحظة ما، أن إميلي قادمة إلى داخل الغرفة، وتصورت أنها لا بدَّ من أن تكون مرت بالردهة، قبل أن أدرك بأنها رابضة في الركن البعيد من الغرفة تعبث بنظام الصوتيات العالي الدقة، ليعقب ذلك امتلاء الغرفة بالألحان الوترية الشهوانية، وترومبيت البلوز، وسارة فوغان تغني «Lover Man».

داهمني شعور بالراحة والاسترخاء لأترك رأسي يهتز صحبة الإيقاع البطيء. أغمضت عينيَّ، مستذكرًا كيف أننا كنا خلال تلك السنوات، في غرفتها بالكلية، نتناقش لساعة حول ما إذا كانت بيلي هولياداي تؤدي هذه الأغنية أفضل أم سارة فوغان.

لمست إميلي كتفي وسلمتني كأسًا من النبيذ. كانت ترتدي مئزرًا مزخرفًا فوق بدلة عملها، وكانت تحمل كأسها. جلست في الناحية البعيدة من الأريكة، قرب قدميَّ، ورشفت منه، ثم أخفضت الصوت قليلًا بجهاز التحكم عن بعد.

- «كان يومًا رهيبًا»، قالت. «لا أتحدث فقط عن العمل الذي كان محض فوضى تامة، بل أعني ذهاب تشارلي، وكل هذه التفاصيل. لا تظن بأنني لا أتألم للأمر، أن يسافر هكذا بينما لم تسوَّ الأمور بيننا بعد. وخاتمة أحداث اليوم السيئة، أن تأتي أنتَ وتزيد الطين بلة»، مطلقة تنهيدة طويلة.
- لا، حقًّا إميلي، الأمر ليس بهذا السوء. أنتِ بادئ ذي بدء، العالم بأسره لتشارلي. أما أنا، فإنني بخير، إنني فعلًا بخير.
- هراء.
- لا، حقًّا أشعر أنني بخير...
- أقصد قولك بأن تشارلي يظن بأني العالم.
- آه، هكذا إذن. حسنًا، إن كنتِ تظنين بأن الأمر هراء، فإنك مخطئة تمامًا. إنني أعلم في الواقع بأن تشارلي يحبك أكثر من أي وقت مضى.
- كيف تعرف، ريموند؟
- أعرف لأن.. حسنًا، لقد أخبرني عن الأمر بشكل ما، بينما كنا نتناول الغداء. لكن حتى وإن لم يتلفظ بالأمر، فإنني أستطيع تأكيد ذلك. اسمعي يا إميلي، أعلم أن الأمر بينكما الآن يمر بمرحلة صعبة بعض

الشيء. لكن عليك التمسك بالنقطة الأكثر أهمية هنا، وهي أنه لا يزال يحبك من صميم قلبه.

أطلقت تنهيدة أخرى. «لم أستمع، كما تعلم، إلى هذه التسجيلات منذ زمن طويل. بسبب تشارلي. فهو يبدأ بالتذمر فور أن أشغل هذه الموسيقى».

لم نقل شيئًا لبضع لحظات، بل رحنا نستمع وحسب إلى سارة فوغان. وحين جاء وقت الاستراحة الموسيقية، قالت إميلي: «أفترض يا ريموند بأنك تفضل أداءها الآخر لهذه الأغنية. النسخة التي أدتها برفقة البيانو والباص».

لم أجب، لكني أسندت نفسي على الأريكة بحيث أستطيع احتساء نبيذي بصورة أفضل.

- «أراهن بأنك تفضّل»، قالت، «أنت تفضل نسختها الأخرى، أليس كذلك، يا ريموند؟».
- «حسنًا»، قلت، «إنني فعلًا غير متأكد. لأقل الحقيقة، فإنني لا أتذكر النسخة الأخرى».

كان بامكاني أن أشعر بحركة إميلي عند طرف الأريكة. «لا بدَّ من أنك تمزح يا ريموند».

- «قد يبدو أمرًا مضحكًا، لكني لم أعد أستمع إلى هذا النوع من الموسيقى هذه الأيام. الواقع أنني نسيت كل ما يتعلق بها تقريبًا. حتى أنني لست متأكدًا مما تدور حوله هذه الأغنية». اصطنعتُ ضحكة صغيرة لم تخرج بشكل جيد في الحقيقة.
- «ما الذي تتحدث عنه؟»، بدت حردانة فجأة. «أي كلام سخيف هذا. كما لو أنك خضعت لجراحة في فصوص المخ. لا يمكن أن تكون نسيت».
- حسنًا، لقد مضت سنوات طويلة. الأشياء تتغير.
- «ما الذي تتحدث عنه؟». كان ثمة شيء من الذعر في صوتها. «الأشياء لا يمكن أن تتغير إلى هذا الحد».

ولأنني أصبحت مستقتلًا للخروج من هذا الموضوع، قلت:

- من المؤسف أن تكون الأمور في عملك تسري بذلك الحد من الفوضى.

تجاهلت إميلي ما قلته تمامًا. «ما الذي تقوله إذن؟ بأنك لا تحب هذه الأغنية؟ أتريدني أن أوقفها، أهذا ما تريده؟».

- لا، لا، إميلي، أرجوكِ، إنها أغنية جميلة. لكنها... لكنها تعيد إليَّ بعض الذكريات. فلنعد رجاء إلى ذلك الاسترخاء والهدوء اللذين كنا عليهما قبل دقيقة من الآن.

تنهدت مرة أخرى، وحين بدأت في التحدث مجددًا بدا صوتها لطيفًا مرة أخرى.

- إنني آسفة، يا عزيزي. لقد نسيت. كأن ما ينقصك هو أن أصرخ في وجهك. إنني آسفة جدًّا.

- «لا، لا، لا بأس». رفعت نفسي ببعض الجهد لأتخذ وضعية الجلوس. «كما تعلمين إميلي، تشارلي رجل لائق. رجل لائق جدًّا. كما أنه يحبك. لن تكوني أفضل حالًا إلا معه، كما تعلمين».

هزت إميلي كتفيها واحتست بعض النبيذ. «ربما أنت على حق. إضافة إلى أننا لم نعد شابين. لا أحد منا أسوأ من الآخر. الأجدى أن نعتبر نفسينا محظوظين. لم يبدُ علينا في أي يوم أنَّنا راضيان عن علاقتنا. لا أعلم ما سبب ذلك. لكن حين أتأمل الأمر أدرك بأنني لا أريد رجلًا آخر سواه».

ظلت، خلال الدقيقة التالية أو قرابة ذلك، تحتسي النبيذ وتستمع إلى الموسيقى. ثم قالت: «كما تعلم ريموند، حين تكون في حفلة، راقصة. وربما يكونُ الرقص بطيئًا، وفيما أنت برفقة الشخص الذي تريد اكمال حياتك معه، يفترض بكل ما عدا ذلك في الغرفة أن يتلاشى. لكن هذا لا يحدث، بطريقة ما. لا يحدث. ليس هنالك شخص لديه نصف لطافة الشخص الذي بين ذراعيك. حتى الآن... ثم، هناك أولئك الناس الموزعون في أرجاء الغرفة. هم لا يدعونك

وشأنك. يواصلون الصراخ ويلوحون بأيديهم ويقومون بإشارات سخيفة لشد انتباهك. «أوه! كيف يمكن أن تكون راضيًا عما أنت فيه؟ بإمكانك أن تحظى بما هو أفضل من ذلك! انظر هنا!» الأمر يبدو كما لو أنهم يصيحون بكلام كهذا طوال الوقت، فيصبح الأمر مدعاة لليأس، إذ لا يعود بإمكانك أن ترقص بهدوء مع شريكك. هل تدرك ما أعنيه، ريموند؟».

تأملت ما قالته لوهلة، ثم قلت: «حسنًا، إنني لست محظوظًا كما أنتِ وتشارلي. ليس في حياتي أي شخص مميز كما هو حالكِ. لكني بطريقة ما، أعرف تمامًا ما تقصدينه. يصعب علينا معرفة أين نستقرُّ. علامَ نستقرُّ».

- صحيح تمامًا. أتمنى أن يبتعدوا مؤقتًا، كل أولئك الطفيليين. أتمنى أن يستريحوا وأن يدعونا وشأننا.
- إميلي، كما تعلمين، فإنني لم أكن أمزح. أنتِ تمثلين العالم بأسره بالنسبة إلى تشارلي. إنه يشعر بالاستياء لأن الأمور لم تسر بشكل جيد بينكما.

كانت تدير ظهرها بعض الشيء إليَّ، ولم تنبس بكلمة لوقت طويل. ثم بدأت سارة فوغان أغنيتها الجميلة «April in Paris»، التي كانت ربما مبطأة بشكل مفرط. وثبت إميلي كما لو أن سارة نادت باسمها. ثم استدارت نحوي وهزت رأسها.

- لا يمكنني تجاوز المسألة، يا راي. لا أفهم كيف أنك لم تعد تستمع إلى هذه الموسيقى. لقد اعتدنا لعب كل هذه الأسطوانات في تلك الأيام. بمشغل الأسطوانات الذي ابتاعته أمي من أجلي قبيل مجيئي إلى الجامعة. كيف يمكن أن تكون نسيت؟

نهضت ومشيت عبر الأبواب الفرنسية، وأنا لا أزال أحمل كأسي. حين نظرت إلى الشرفة أدركت أن عينيَّ مغرورقتان بالدموع. فتحت الباب وخطوت إلى الخارج بحيث أمكنني مسحهما من دون أن تلاحظ إميلي شيئًا، لكنها كانت تسير في أعقابي، وقد تكون لاحظت، لا أعرف.

كانت أمسية دافئة على نحو دمث، وجاءت سارة فوغان وفرقتها مندفعين إلى الشرفة. كان ضوء النجوم أكثر توهجًا من ذي قبل، وأنوار الحي لا تزال تومض كأنها امتداد للسماء الليلية.

- «أحب هذه الأغنية»، قالت إميلي. «أفترض أنك نسيت هذه الأغنية أيضًا. لكن حتى وإن كنت قد نسيتها، بمقدورك أن ترقص عليها، أليس كذلك؟».
- نعم. أفترض أن بمقدوري فعل ذلك.
- يمكننا أن نكون كفريد أستير وجينجر روجرز.
- نعم، يمكننا ذلك.

وضعنا كأسينا على الطاولة الحجرية وبدأنا نرقص. لم نرقص بصورة مميزة على وجه الخصوص - بقي أحدنا يتعثر بركبتي الآخر - لكني أبقيت إميلي على مقربة مني، معبئًا حواسي بملمس ثيابها، وشعرها وبشرتها. ممسكًا بها هكذا، فكرت في الوزن الذي اكتسبه جسمها.

- «أنت محق ريموند»، قالت، بهدوء في أذني. «تشارلي على حق. علينا أن نتولى ترتيب شؤوننا».
- نعم. عليكما ذلك.
- أنت صديق جيد، ريموند. ماذا كنا لنفعل من دونك.
- إن كنتِ تعتبرينني صديقًا جيدًا، فهذا شيء يسعدني. لأنني لست جيدًا في أي شيء آخر. الواقع أنني عديم الفائدة بدرجة كبيرة، حقًّا.

شعرت بأنها تشد بشكل حاد على كتفي.

- «لا تقل ذلك»، همست. «لا تتكلم هكذا». وبعد لحظة، قالت مرة أخرى: «يا لك من صديق جيد، يا ريموند».

كانت تلك نسخة سارة فوغان من «April in Paris» التي سجلتها عام 1954 مع كليفورد براون على الترومبيت. لذلك، أعرف أنها ستكون أغنية طويلة، لحد الثماني دقائق على الأقل. شعرت بالسرور إزاء ذلك، لأنني أدركت بأننا بعد

انتهاء الأغنية لن نرقص مجددًا، وإنما سندخل لتناول كسرولة الضأن. وكنت متأكدًا بأن إميلي ستعيد النظر بما فعلتُه بمفكرتها وستقرر هذه المرة بأن الأمر ليس مجرد إساءة عديمة الأهمية. لا علم لدي بما كان سيحدث؟ لكن لبضع دقائق قادمة على الأقل، كنا آمنين، وواصلنا رقصنا تحت تلك السماء المرصعة بالنجوم.

تلال مالفيرن

أمضيت فصل الربيع في لندن، وبالإجمال، حتى وإن لم أكن قد حققت شيئًا مما طمحت إليه، فقد كانت فترة مثيرة. لكن مع انقضاء الأسابيع واقتراب الصيف، فإن التململ القديم بدأ يعود إلى مزاجي شيئًا فشيئًا. أحد أسباب ذلك هو شعوري المبهم بالذعر من احتمال أن ألتقي بأي من أصدقائي السابقين في الجامعة. فالتجول في كامدن تاون، أو الخروج إلى متاجر وست إند الكبرى، لشراء الأقراص المدمجة من تلك التي أستطيع تحمل كلفتها، فسحَ المجال للالتقاء بالعديد من هؤلاء الذين بادروا بسؤالي عن كيفية تدبر أموري بعد تخليً عن طريقي في «البحث عن الشهرة والثروة». ليس معنى ذلك أنني شعرت بالإحراج لإخبارهم بما حل بي، وإنما كان الأمر متعلقًا بحقيقة أن أيًّا منهم - مع استثناءات قليلة - لم يكن قادرًا على استيعاب أن ما حدث، كان أو لم يكن بالنسبة لي، هو بضعة أشهر قليلة توجت بالـ«نجاح».

كما ذكرت، فإنني لم أحقق أيًّا من الأهداف التي كنت قد وضعتها نصب عيني، إلا أنها كانت أشبه بأهداف للمدى الطويل. وكل تجارب الأداء تلك، حتى الفظيعة منها، اعتبرتها تجربة لا تقدر بثمن. في كل الحالات تقريبًا، فقد كنت أحمل شيئًا معي، شيئًا تعلمته عن المشهد الفني في لندن، أو مهنة الموسيقى عمومًا.

بعض تجارب الأداء كانت مهنيَّة بما لا يقاس. كنت تجد نفسك في مستودع، أو مبنى لركن السيارات حوِّل إلى شيء آخر، ليستقبلك مدير الفرقة

أو حبيبة أحد أعضائها، فيدون اسمك ويطلب منك الانتظار، مقدمًا لك كوبًا من الشاي، فيما عزفُ الفرقة، وهو يتوقف وينطلق من جديد، يدوي آتيًا من الفسحة المجاورة. غير أن غالبية الاختبارات كانت تتم في أوضاع مخزية. في الواقع، فإنني حين رأيت بأي أسلوب تتحرك معظم الفرق الموسيقية فهمت لِمَ يمر المشهد الموسيقي في لندن بمرحلة الموت وقوفًا. كنت أعبر مرارًا وتكرارًا، بشرفات متراصة في ضواح مجهولة في أطراف المدينة، أحمل قيثارتي متسلقًا درجًا ما، وأدخل شقة تفوح منها روائح قديمة حيث فرشت أغطية للنوم على الأرض. أما أعضاء الفرقة فتراهم يغمغمون، وبالكاد ينظرون في عينيك. كنت أغني وأعزف فيما يحدِّقون إليَّ بعيون فارغة، إلى أن ينهي أحدهم المسألة بقول شيء من قبيل: «حسنًا، حسنًا. شكرًا على أية حال، غير أن ما عزفته ليس من النوع الذي نميل إليه».

أدركت سريعًا أن معظم أولئك الأشخاص هم إما يشعرون بالخجل إزاء تجارب الأداء، أو مجرد حمقى، وأنني حين أتحدث معهم في شؤون أخرى يصبحون أكثر استرخاء. كان هذا حين بدأت أنتقي لهم معلومات مفيدة من كل نوع: عناوين النوادي الليلية المهمة، أو أسماء فرق ينقصها عازف غيتار. بل حتى وإن لم يتضمن الحديث إلا تلميحًا حول عرض جديد ينبغي مشاهدته، كما قلت، فإنني لم أخرج قط خالي الوفاض.

أحبَّ الناس عمومًا أسلوبي في العزف على الغيتار، وبعضهم قال إن غنائي ملائم للتناغم الموسيقي. لكن سرعان ما اكتشفت أن عاملين يلعبان ضدي. الأول هو أنه لم يكن لدي معدات، إذ إن فرقًا كثيرة كانت في حاجة لعازف بغيتار كهربائي، ومضخمات صوت، ومكبرات، ويفضَّل أن يكون لديه أيضًا وسيلة نقل، بحيث يبقى جاهزًا ليدسَّ نفسه في جدول أمسياتهم الموسيقية الصاخبة. فأنا كنت أتنقل على قدمي، بغيتار سيئ الجودة. لذا، وبغض النظر عن عمق إعجابهم بإيقاعاتي أو صوتي، لم يكن أمامهم خيار آخر عدا استبعادي. وجدت هذا منصفًا بما فيه الكفاية.

العقبة الرئيسة الأخرى التي لاقيت صعوبة في تقبُّلها -ولا بد لي من الاعتراف بأنني فوجئت تمامًا بها- هي المشكلة التي واجهتني في أداء الأغاني الخاصة بي. لم أصدق ذلك. أكون موجودًا في شقة قذرة، عازفًا ضمن دائرة من الوجوه الفارغة، وفي النهاية، بعد صمت يمكن أن يستمر لخمس عشرة أو ثلاثين ثانية، يسأل أحدهم بشكل مثير للريبة: «أغنية من هذه؟». وعندما أقول إنها إحدى مؤلفاتي تسدل المصاريع، أسمع بعض الاستهجان، وأرى رؤوسًا تهتز، وابتسامات كيدية يتم تبادلها، قبل أن يُسمعوني ثرثرتهم التي عبَّروا فيها عن رفضي.

بعد حدوث هذا الأمر عددًا لا يحصى من المرات شعرت باستياء شديد، فقلت: «انظروا، أنا لا أفهم ماذا يحدث هنا. هل طموح هذه الفرقة أن تكون فرقة تؤدي أغاني فرق أخرى إلى الأبد؟ حتى وإن كان هذا ما تسعى إليه، فمن أين برأيكم أتت هذه الأغاني في المقام الأول؟ صحيح تمامًا. شخص ما كتبها لهم!».

لكن الرجل الذي كنت أتحدث إليه راح يحدِّق إلى وجهي، ثم قال: «لا أقصد التقليل من شأنك يا رفيقي. المسألة أن الكثير من الحمقى هذه الأيام يريدون أن يصبحوا مؤلِّفي أغان».

الغباء المتفتق عن هذا الموقف، الذي بدا أن امتداداته ضاربة في جميع أنحاء لندن، كان المفتاح الذي جعلني مقتنعًا بأن ثمة شيئًا ما يتعلق بما يدور هنا، إن لم يكن عفنًا تمامًا، فإنه على الأقل ضحل وزائف للغاية، من أساسه، وهو انعكاس لما دار في عالم صناعة الموسيقى من القاعدة إلى القمة.

بسبب هذا الإدراك، وحقيقة أنني كنت مع اقتراب فصل الصيف قد استنفدت كل الأمكنة المحتملة للمبيت والتي جعلتني أشعر بالافتتان بلندن - حتى أن أيامي في الجامعة بدت رمادية مقارنة بها - سيكون من الجيد أخذ استراحة من المدينة. لذا اتصلت بشقيقتي، ماغي، التي تدير وزوجها مقهى في تلال مالفيرن، وقررت أن أقضي فترة الصيف معهما.

ماغي تكبرني بأربع سنوات، وهي دومًا قلقة بشأني، لذا كنت متأكدًا من أنَّها ستكون جاهزة للاهتمام بي. في الحقيقة، أمكنني القول إنها شعرت بسعادة لأنها حظيت بشخص يعاونها. وحين أقول إن مقهاها يقع في تلال مالفيرن، فإنني لا أقصد غريت مالفيرن أو جانب الطريق A، إنما حرفيًا على التلال. إنه منزل قديم على الطراز الفيكتوري يطل على الجانب الغربي للمنطقة، لذا عندما يكون الطقس لطيفًا يمكنك تناول الشاي والكعك على تيراس المقهى مع إطلالة شاملة على هيرفوردشاير. تضطر ماغي وجيف الى إغلاق المكان في الشتاء، لكنه مكتظ دومًا خلال فصل الصيف، خاصة مع وجود السكان المحليين ممن يركنون سياراتهم في موقف للسيارات غرب إنجلترا على بعد مئات الياردات من المكان ليخرجوا إلى الطريق بالصنادل والفساتين المزهرة، أو ألوية المشاة بخرائطهم وأمتعتهم وأدواتهم المعقدة.

قالت ماغي إنها وجيف لا يستطيعان دفع أجر لي، الأمر الذي ناسبني تمامًا، إذ إن ذلك معناه أنه لا أحد سيتوقع أن أعمل بجد لأجلهما. رغم ذلك، وبما أنني سأُمنح سريرًا وطعامًا، فإن الجميع سيدرك بأنني الموظف الثالث. لم يكن الأمر بهذا الوضوح في البداية، وبدا جيف، على وجه الخصوص، كأنه يتمزق بين رغبته بركل مؤخرتي لعدم تنفيذي كل ما هو مطلوب مني، ورغبته في الاعتذار لطلبه مني القيام بأي شيء، كما لو أنني ضيف. لكن الأمور سرعان ما استقرت في سياق محدد. كان العمل سهلًا - وأجدت بشكل خاص صنع الشطائر - ما اضطرني أحيانًا لتذكير نفسي بالهدف الرئيس وراء مجيئي إلى هذه المنطقة في المقام الأول: فهذا لأني سأكتب مجموعة من الأغنيات الجديدة بحيث تكون جاهزة عند عودتي إلى لندن في الخريف المقبل.

أستيقظ باكرًا في العادة، لكني سرعان ما اكتشفت أن الفطور في المقهى كابوس، فالزبائن لا يكفون عن إبداء رغبتهم في تحضير البيض بهذه الطريقة، والتوست بتلك، أو أن الطعام مطهو بشكل مفرط. لذا، قررت ألا أظهر في المقهى قبل الحادية عشرة تقريبًا. وبينما كانت كل القعقعة تحدث في الطابق

السفلي، كنت أفتح نافذة غرفتي الكبيرة الناتئة إلى الخارج، وأجلس إلى عتبتها العريضة عازفًا على غيتاري وأمامي الريف ممتدًّا لأميال وأميال. شهدت صباحات رائقة تمامًا بعيد وصولي، وكان شعورًا فخمًا، كما لو أن باستطاعتي رؤية كل شيء، وبأنني إذا داعبت أوتار غيتاري ستصدح نوتاته في جميع أرجاء البلد. ولم يمكني الحصول على منظر جوي لشرفة المقهى تحتي إلا عندما كنت أستدير وأدخل رأسي مباشرة من النافذة لأدرك وجود الناس الآتين والذاهبين مع كلابهم، بما في ذلك كراسيهم التي تدفع باليد.

لم أكن غريبًا على هذه المنطقة. فقد نشأت أنا وماغي في بيرشور، على بعد بضعة أميال فقط من هنا. ولطالما اصطحبنا والدانا في نزهات سيرًا على الأقدام فوق التلال. لكن الأمر حينها لم يثر اهتمامي بأي شكل من الأشكال. وفي عمر محدد، صرت أرفض الذهاب معهم. لكني شعرت في ذلك الصيف، بأن التلال أجمل مكان في العالم، إذ أنني ولأكثر من سببٍ، آتٍ من هذه التلال وأنتمي إليها. ربما كان للأمر علاقة بانفصال والديَّ، وحقيقة أن هذا المنزل الرمادي الصغير المقابل لمصفف الشعر لم يعد منزلنا لفترة. مهما يكن، فإنني هذه المرة، وعوضًا عن شعوري برهاب الاحتجاز الذي أتذكره من طفولتي، شعرت بميل، بل حتى بنوستالجيا، لهذه المنطقة.

هكذا صرت أتجول في التلال كل يوم، حاملًا أحيانًا غيتاري إذا ما كنت متأكدًا من أنها لن تمطر. وأعجبت بشكل خاص بتابل هيل وإندي هيل، في الطرف الشمالي من النطاق، اللذين أهملهما، إلى حد ما، متنزهو النهار. كنت أهيم هناك أحيانًا مع أفكاري لساعات وساعات من دون أن أصادف كائنًا حيًّا، حتى أن الأمر بدا كما لو أنني أكتشف التلال لأول مرة، بل وأمكنني تذوق كل فكرة تنبع من ذهني تتعلق بأغنياتي الجديدة.

غير أن العمل في المقهى كان أمرًا آخر، إذ غالبًا ما كنت أسمع صوتًا أعرفه أو ألاحظ وجهًا ما في طريقه إلى المنضدة بينما أقوم بتحضير السلطة، الأمر الذي كان يضعني مجددًا في مواجهة مرحلة سابقة من حياتي. الأصدقاء

القدامى لوالدي لم يكفوا عن استجوابي حول ما أنوي عمله، وكنت أخادعهم إلى أن يقرروا بأن يدعوني بسلام وشأني. وعادة ما كانوا يغادرون بشيء من قبيل: «حسنًا، أنت على الأقل مشغول»، وهم يهزون رؤوسهم في إيماءات نحو شرائح الخبز والطماطم، قبل العودة إلى طاولتهم مع فناجينهم وكؤوسهم. أو يأتي شخص عرفته أيام المدرسة ويبدأ الحديث معي بصوته «الجامعي» الجديد، مشرِّحًا لي أحدث أفلام باتمان بلغة فائقة الذكاء، أو مسهبًا في الحديث عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء الفقر العالمي.

لم يسترع شيء من هذا اهتمامي. الواقع أنني سررت فعلًا لرؤية بعض من هؤلاء الأشخاص، عدا واحدة جاءت إلى المقهى وشعرت في اللحظة التي رأيتها فيها بأنني تجمدت. ولحظة فكَّرتُ بالتسلل إلى المطبخ كانت قد رأتني بالفعل.

إنها السيدة فريزر - أو هاغ فريزر، كما اعتدنا أن نلقبها. وقد ميَّزتُها بمجرد أن دخلت مع كلب بولدوغ صغير ملطخ بالوحول. كنت على وشك القول بأنها لا تستطيع إدخال كلبها إلى المقهى، رغم اعتياد الناس القيام بهذا عند مجيئهم لطلب شيء ما. هاغ فريزر كانت إحدى معلماتي في المدرسة في بيرشور. ولحسن الحظ، فقد تقاعدت قبل بلوغي الصف السادس. لكن ظلها أرخى حضوره على ذاكرتي، على مسيرتي المدرسية بأسرها. وإذا ما استثنينا وجودها، فإن المدرسة لم تكن بذلك السوء. كانت مصممة على أذيتي أو انتقادي منذ البداية. وأنت في الحادية عشرة من عمرك، لا تكون قادرًا على فعل الكثير للدفاع عن نفسك ضد شخص مثلها. كانت حيلها مطابقة لحيل المدرسين المنحرفين المعتادة، كأن تطرح عليَّ خلال الحصص أسئلة تعرف بأنني غير قادر على الإجابة عنها، ثم تجبرني على الوقوف بحيث يضحك تلاميذ الصف عليَّ. إلا أنها أصبحت في وقت لاحق أكثر دقة. أتذكر في إحدى المرات، وكنتُ في الرابعة عشرة من عمري، عندما قام مدرس جديد، السيد ترافيس، بتبادل بعض النكات معي في الصف. لم تكن نكاتًا ضدي، لكن الأمر بدا وكأن

لا فرق بيننا، فضحك الصف، فشعرت بالرضا حيال ذلك. لكن وبعد بضعة أيام، وفيما كنت أسير في الممر، والسيد ترافيس يسير في الاتجاه المعاكس، متحدثًا معها، أوقفتني عندما اقتربت منهما، لتوبخني بشدة لتأخري في إنجاز فروضي المنزلية أو شيء من هذا القبيل. ما أود قوله هو أنها فعلت ذلك وحسب لتجعل السيد ترافيس يظن بأنني «مثير للمتاعب»، وبأنه إذا كان معتقدًا للحظة بأنني أحد الأولاد الجديرين باحترامه، فقد ارتكب خطأ فادحًا. ربما كان ذلك بسبب كبر سنها، لا أعرف، لكن المدرسين الآخرين وافقوها الرأي دومًا، بل أخذوا بكل ما قالته وكأنه كلام من الإنجيل.

عندما جاءت هاغ فريزر إلى المقهى في ذلك اليوم، كان واضحًا بأنها تذكرتني، لكنها لم تبتسم أو تنادني باسمي. طلبت كوبًا من الشاي واشترت عبوة «كاسترد كريم»، ثم أخذت طلبها إلى التيراس. ظننت أن الأمر سينتهي عند هذا الحد، إلا أنها بعد بعض الوقت دخلت مرة أخرى، لتضع الكوب الفارغ والصحن على الطاولة، قائلة: «بما أنك لن تنظف الطاولة، فقد أحضرتها بنفسي». ثم رمقتني بنظرة أطول من اللازم لثانية أو ثانيتين - أسلوبها القديم في أن تقول ليت كان بامكاني ضربك بعنف، ثم غادرت.

استيقظتْ من جديد كل كراهيتي القديمة لذلك التنين البالي. وبحلول الدقائق التي استغرقتها ماغي للنزول إلى المقهى، كنت أستشيط غضبًا. لاحظت ماغي ذلك على الفور، لتسألني إن كان ثمة خطب ما. كان هناك عدد قليل من الزبائن في التيراس، لكن لم يكن ثمة أحد في الداخل، لذا رحت أصرخ واصفًا هاغ فريزر بكل لقب قذر تستحقه. هدأتني ماغي ثم قالت:

- حسنًا، هي لم تعد معلمة لأحد، بل مجرد سيدة مسنة بائسة هجرها زوجها.
- هذا لا يفاجئني.
- مع ذلك، عليك أن تشعر بالأسى بعض الشيء لها، إذ حينما ظنت بأن الوقت حان للاستمتاع بتقاعدها وجدت نفسها متروكة من أجل امرأة

أصغر سنًّا. إنها تدير الآن ذلك النزل الذي يؤمن المبيت والفطور، والناس يقولون إن المكان يتداعى.

كل هذه الاخبار جعلتني أبتهج إلى حد كبير. لكني بعد ذلك بقليل نسيت أمر هاغ فريزر، إذ دخلت مجموعة من الزبائن المقهى وتوجب أن أحضر الكثير من سلطات التونة. لكني بعد أيام، وفيما كنت أتحدث إلى جيف في المطبخ، عرفت منه بعض التفاصيل، كيف أن زوجها الذي في الأربعينات اختفى أثره هو وسكرتيرته، وكيف أن نزلهما بدأ أعماله بانطلاقة معقولة، ثم راح يقال إن النزلاء يطالبون بأموالهم، أو لا يلبثون أن يغادروا بعد ساعات على وصولهم. رأيت النزل مرة واحدة وأنا أساعد ماغي في بيع منتجات بالجملة، فمررنا بالمكان. يقع فندق هاغ فريزر على طريق إلغار مباشرة، وهو عبارة عن منزل من الغرانيت كبير إلى حد ما مع لافتة كبيرة تقول «نزل مالفيرن».

لا أريد التحدث عن هاغ فريزر كثيرًا، إذ إنني لست مهووسًا بها أو بفندقها، بل إنني أستعيد كل هذا الآن بسبب ما سوف يحدث لاحقًا، بمجرد دخول تيلو وصونيا المقهى.

ذهب جيف إلى غريت مالفيرن في ذلك اليوم، لذلك توجب عليَّ وعلى ماغي الاهتمام بقلعتهما. انتهت فترة الذروة التي يشهدها الغداء، لكن في الوقت الذي جاء فيه آلُ «كراوتس»، كان لا يزال لدينا الكثير للاهتمام به. ميزتهما في ذهني بوصفهما الكراوتس لحظة سمعت لهجتهما. لم أكن أتصرف بعنصرية. لكن إذا ما توجب عليك الوقوف خلف الكاونتر فسوف تتذكُّر مَن لا يرغب بالشمندر، ومن يريد خبزًا زيادة، ومن يطلب بحسب تكلفة الفاتورة، ولن يكون أمامك من خيار سوى تحويل جميع الزبائن إلى شخصيات، ومنحهم أسماء، وانتقاء خصالهم الفيزيائية. وجبة «بلوغمانز» وفنجاني قهوة لـ«وجه الحمار»، باغيت بالتونا والمايونيز لونستون تشرشل وزوجته. هكذا قمت بالأمر. وهكذا كان تيلو وصونيا آل «كراوتس».

كان الجو حارًّا جدًّا بعد ظهر ذلك اليوم، ولكن معظم الزبائن - وهم

يتحدثون الإنجليزية - كانوا لا يزالون يرغبون في الجلوس في الخارج على التيراس، حتى أن بعضهم تجنب المظلات لكي يتمكن من اكتساب اللون الأحمر الزاهي في الشمس. لكن الكراوتس جلسا في الداخل طلبًا للظل. كان كل منهما يرتدي سروالًا فضفاضًا بألوان جميلة، وحذاء رياضيًا وقميصَ تي-شيرت، لكنهما بطريقة ما بديا ذكيين، على جري عادة أناس القارة عادة. افترضت أنهما كانا في الأربعينات، أو ربما في أوائل الخمسينات - فلم أبدِ الكثير من الاهتمام في ذلك الوقت. كانا يتناولان طعام الغداء ويتحدثان بهدوء مع بعضهما، مثل أي زوجين لطيفين أوروبيين في منتصف العمر. ثم بعد مضي وقت، نهض الرجل وراح يتجول في الصالة، متوقفًا عند صورة قديمة مهترئة وضعتها ماغي على الجدار، للمنزل عام 1915، ليتفحصها. قام بعدها بفرد ذراعيه قائلًا:

- يا له من ريف بالغ الروعة! لدينا العديد من الجبال الجميلة في سويسرا. لكن ريفكم مختلف تمامًا. إنها تلالًا. أنتم تسمونها تلالًا. ولديها سحر خاص للطافتها ومناخها الودود.
- «أوه، أنتما من سويسرا»، قالت ماغي بنبرة تهذيب: «لطالما رغبت بالذهاب إلى هناك. يبدو الأمر خياليًا، جبال الألب، وعربات التلفريك».
- «بلادنا تحفل طبعًا بمزايا كثيرة جميلة. لكن لديكم هنا، في هذا المكان، سحر خاص. لطالما رغبنا ولفترة طويلة في زيارة هذا الجزء من إنجلترا. تحدثنا دومًا عن هذا الأمر، وها نحن أخيرًا هنا!»، مطلقًا ضحكة من قلبه. «إننا سعيدان جدًّا لوجودنا بينكم!».
- «هذا رائع»، قالت ماغي، «آمل أن تستمتعا. هل ستبقيان هنا لمدة طويلة؟».
- «لدينا ثلاثة أيام أخرى قبل عودتنا إلى أعمالنا. لقد تطلعنا للقدوم إلى هنا منذ أن شاهدنا فيلمًا وثائقيًا رائعًا، منذ سنوات طويلة، عن إلغار.

واضح أن إلغار أحب هذه التلال وأمضى وقتًا في استكشافها بدقة على دراجته. وها نحن في النهاية هنا!».

تجاذبت ماغي أطراف الحديث معه لبضع دقائق، فتكلما عن الأماكن التي قاما بزيارتها في إنجلترا، وما ينبغي عليهما رؤيته محليًا، الأشياء المعتادة التي يفترض بك قولها للسائحين. سمعت ذلك مرات كثيرة من قبل، بل وبإمكاني التلفظ تقريبًا بالإرشادات عينها بنفسي، وعلى نحو تلقائي، لذا لم أكن مكترثًا للأمر. فهمت وحسب بأن الكراوتس سويسريان ويتنقلان بواسطة سيارة مستأجرة. وظل الرجل يقول كم أن إنجلترا مكان رائع متحدثًا عن مقدار لطافة الجميع، مصدرًا ضحكات كبيرة وصاخبة كلما تفوَّهت ماغي بشيء نصف مضحك. لكني بقيت، كما ذكرت، غير مكترث للأمر، معتقدًا أنهما محض زوجين مملين إلى حد ما. لم أبدِ انتباهًا للأمر إلا بعد مرور لحظات، عندما انتبهت للطريقة التي حاول بها الرجل استدراج زوجته للدخول في الحديث، فيما التزمت هي الصمت، بعينين ثبتتهما على دليل السياحة، وراحت تتصرف كأنها غير مدركة إطلاقًا لأي حوار. هذا ما دفعني لإلقاء نظرة أقرب إليهما.

كانت بشرة كليهما قد اكتسبت اسمرارًا طبيعيًا بفعل الشمس، بعكس المظهر الشبيه بجراد البحر المتعرِّق لجلود سكان منطقتنا الجالسين خارجًا. وبرغم سنهما، فقد كانا على حد سواء نحيلين ولائقين بدنيًا. كان شعره رماديًا، لكنه كان لافتًا للنظر، وقد مشطه بعناية، رغم التزامه بنمط السبعينات الغامض، تمامًا مثل الرجال في فرقة أبا. أما هي، فكان شعرها أشقر، أبيضَ ثلجيًا تقريبًا، وسحنتها عابسة، مع خطوط صغيرة محفورة حول الفم أفسدت الجمال الذي كان يمكن أن تبدو عليه أي امرأة كبيرة في السن. وهكذا، كما قلت، ظل الرجل يحاول من مكانه استدراجها إلى المحادثة.

- زوجتي طبعًا تحب إلغار إلى حد كبير، لذا فإن لدينا فضولًا هائلًا بأن نزور المنزل الذي ولد فيه.

صمت.

أو: «لست معجبًا كثيرًا بباريس، يجب أن أعترف. إنني أفضل كثيرًا لندن. لكن صونيا الجالسة هنا تعشق باريس».

لا ردَّ فعل.

كلما قال شيئًا كهذا، استدار نحو زوجته في الزاوية، فتضطر ماغي إلى النظر إليها، لكن الزوجة لم تكن ترفع عينيها عن كتابها. غير أن الرجل لم يبدُ عليه الارتباك لرد فعل زوجته، بل واصل حديثه بمرح. ثم مدَّ ذراعيه مرة أخرى قائلًا: «استمحيكِ عذرًا، لكن أعتقد أنني سأذهب للحظة للتعمق في إعجابي بمناظركم الخلابة!».

اتجه إلى الخارج، وأمكننا رؤيته يتمشى في التيراس، قبل أن يختفي من مجال بصرنا. كانت زوجته لا تزال جالسة في الزاوية، تستطلع دليلها، وانتقلت ماغي بعدها بقليل إلى طاولتها وبدأت في ترتيبها. تجاهلتها المرأة بشكل تام حتى أمسكت شقيقتي بصحن لا تزال فيه بقايا رول، فأغلقت فجأة كتابها بعنف قائلة بصوت أعلى من اللازم: «لم أنتهِ بعد!».

اعتذرت ماغي تاركة لها قطعة الرول - التي لاحظتُ أن المرأة لم تمسها. نظرت ماغي إليَّ وهي تعبر بي، فهززت كتفيَّ. وبعد لحظات، سألت شقيقتي المرأة، بأسلوب لطيف للغاية، إن كان ثمة شيء آخر تريده.

- لا. لا أريد أي شيء.

أمكنني الجزم، وبالنظر إلى نبرتها ان من الأفضل تركها وشأنها. لكن ماغي أكملت في نوع من رد الفعل التلقائي فسألتْها، كما لو أنها أرادت فعلًا أن تعرف: «هل كان كل شيء على ما يرام؟».

تابعت المرأة قراءة كتابها لخمس أو ست ثوان على الأقل، كأنها لم تسمع شيئًا، ثم أخفضت كتابها مرة أخرى وحملقت في شقيقتي.

- «بما أنكِ سألتِ»، قالت، «سأخبرك إذن. الغداء كان على أحسن ما يرام، أفضل مما يقدم في العديد من الأماكن الفظيعة حولكم. مع

ذلك، فقد انتظرنا خمسًا وثلاثين دقيقة قبل أن تحضروا لنا ساندويشًا وبعض السلطة. خمس وثلاثون دقيقة».

أمكنني الآن أن أرى وجه المرأة مزرقًّا رماديًّا لشعورها بالغضب، وأنها ليست من النوع الذي يصدمك فجأة، ثم ينصرف مبتعدًا. بل إن بوسعي القول إن دماء هذه المرأة ظلت تغلي لبعض الوقت. الغضب الذي يتشكل ويبقى عند مستوى ثابت، مثل صداع سيئ، لا يخفُ أبدًا بل ويأبى العثور على مخرج مناسب. ولأن ماغي شخص يصعب استفزازه، فإنها لم تلتقط وجهة نظرها، بل ربما اعتقدت أن المرأة تشكو بأسلوب عقلاني إلى حد ما، ذلك أنها اعتذرت وراحت تقول: «لكن كما ترين، حين يزدحم المكان إلى حد كبير مثلما كان عليه قبل وقت من الآن...».

- المؤكد أن هذا ما يحدث كل يوم، أليس كذلك؟ أليس هذا صحيحًا؟ كل يوم، خلال الصيف، حين يكون الطقس جيدًا، أيكون المكان مزدحمًا إلى حد كبير؟ حسنًا؟ لم لا تجهزون أنفسكم لذلك؟ بل إن الأمر نفسه يحدث كل يوم ويفاجئك. أليس هذا ما تقولينه لي؟

كانت المرأة تحملق بشقيقتي، لكن ما إن خرجتُ من وراء الكاونتر للوقوف بجانب ماغي، حتى نقلت نظرها إلي. ربما كان للأمر علاقة بالتعبير الذي ارتسم على وجهي، إذ أنَّ غضبها ارتفع بضع درجات. التفتت ماغي ونظرت إليَّ، وراحت تدفعني برفق لكي أبتعد، لكني قاومتها، وبقيت أحدِّق إلى المرأة. كنت أريدها أن تعلم أن الامر لا يتعلق بها وبماغي فقط. والله يعلم إلامَ كان كل هذا سيفضي، لولا عودة الزوج في تلك اللحظة.

مكتبة

- يا له من منظر خلاب! بل منظر خلاب، غداء خلاب، بلاد خلابة!

انتظرت أن يدرك أي وضع دخل إليه، ولكن حتى وإن كان قد لاحظ، فإنه لم يبد أي علامة تدل على أخذه الأمر بعين الحسبان. ابتسم لزوجته قائلًا، باللغة الإنجليزية، والأرجح لصالحنا: «صونيا، يجب عليك الخروج وإلقاء نظرة. ما عليك سوى السير إلى نهاية الممر الصغير هناك!».

رطنت شيئًا بالألمانية، قبل أن تعود إلى كتابها. ثم مشى في الصالة مبتعدًا وقال لنا:

- لقد فكرنا في الذهاب إلى ويلز بالسيارة بعد ظهر اليوم. لكن تلال مالفيرن ذات روعة فائقة، وأعتقد أننا فعلًا قد نمضي الأيام الثلاثة المتبقية لنا من العطلة، هنا في هذه المقاطعة. سأكون في غاية السعادة، إذا ما وافقت صونيا!

نظر إلى زوجته التي هزت كتفيها، وقالت شيئًا ما بالألمانية، بحيث انطلقت من فمه ضحكة مجلجلة.

- جيِّد! إنها موافقة! تمت تسوية الأمر. لن نذهب بعد الآن بالسيارة إلى ويلز، بل سنتسكع في منطقتكم للأيام الثلاثة القادمة!

تفحص وجهينا، وقالت ماغي كلمات مشجعة. أما أنا فشعرت بالارتياح لمرأى الزوجة تخفض كتابها وتستعد للمغادرة، فيما اتجه الرجل إلى الطاولة، أمسك حقيبة صغيرة ووضعها على كتفه. ثم قال لماغي:

- أتساءل. هل هناك أي فندق صغير على مقربة من هنا يمكنك اقتراحه علينا؟ شرط ألا يكون باهظ التكلفة، لكن مريح وممتع. وإذا أمكن، أن يكون طابعه إنجليزيًّا!

ارتبكت ماغي بعض الشيء لطلبه وحاولت إرجاء إجابتها بقولها شيئًا لا معنى له من قبيل: «ما نوع المكان الذي تريدانه؟»، إلا أنني تدخلت بسرعة قائلًا:

- أفضل مكان هنا هو ذلك الذي تمتلكه السيدة فريزر. إنه على الطريق إلى ورسيستر، ويطلق عليه اسم «نزل مالفيرن».

- «نزل مالفيرن! يبدو أن هذا ما نحتاجه تمامًا!». أشاحت ماغي بوجهها متظاهرة بأنها منشغلة بإزالة أشياء أخرى عن الطاولة بينما رحت أزودهما بكل التفاصيل المتعلقة بالوصول إلى فندق هاغ فريزر. بعدها غادر الزوجان، وأخذ الرجل يشكرنا بابتسامات واسعة، فيما لم تلتفت المرأة إلى الخلف لترمقنا بمجرد نظرة.

رمقتني أختي بنظرة تدل على سأمها وهزت رأسها. اكتفيت بالضحك قائلًا:

- عليك الاعتراف، تلك المرأة وهاغ فريزر تستحق كل منهما الأخرى فعلًا. لم أستطع تفويت تلك الفرصة.
- «تصبح حياتك ممتازة وأنت تسلي نفسك بهذه الطريقة»، قالت ماغي وهي تدفعني نحو المطبخ. «يجب أن أعيش هنا».
- وما الذي يعنيه ذلك؟ انظري، أنتِ لن تري أبدًا هذين الكراوتس مرة أخرى. وإذا اكتشفت هاغ فريزر أننا أوصينا بمكانها للسائحين العابرين، فإنها لن تتذمر، أليس كذلك؟

هزت ماغي رأسها الذي كان يبشر بابتسامة هذه المرة.

عاد الهدوء إلى المقهى بعد ذلك، ثم وصل جيف، لذا صعدت إلى الطابق العلوي وأنا أشعر بأن ما أنجزته يفوق ما كلفت به للوقت الحالي. جلست في غرفتي، عند نافذتي الناتئة من الجدار صحبة غيتاري، منهمكًا لبعض الوقت في أغنية كتبت نصفها، إلا أنني سمعت بعد ذلك - وقد بدا الأمر كأنه حدث في لمح البصر - بدء قدوم الزبائن، وبأعداد كبيرة، لشاي ما بعد الظهيرة في الطابق السفلي. كانت ماغي تطلب مني، مضطرة، النزول، كلما أصبح الوضع خارجًا عن السيطرة، وهو ما كان يحدث عادةً - الأمر الذي لن يكون منصفًا بحقي نظرًا لما قمت به إلى الآن. لذا قررت أن التسلل إلى التلال لإكمال كتابتي الموسيقية هو أفضل ما يمكن فعله.

دلفت من الطريق الخلفي من دون أن ألتقي أيَّ شخص، وسرعان ما شعرت بسعادة لخروجي إلى الطبيعة. فقد كان الجو حارًا جدًّا، خصوصًا أنني أحمل حقيبة غيتار، وسررت بهبوب النسيم.

اتجهتُ إلى موقع محدد كنت قد اكتشفته الأسبوع الفائت. وكان عليَّ، لأصل إليه، أن أتسلق طريقًا شاهقًا، خلف المنزل، وأتابع المشي بعدها لبضع دقائق على طول منحدر متدرج إلى أن أصل إلى ذلك المقعد، وهو مقعد اخترته بعناية تامة، ليس لإطلالته الخلابة وحسب، ولكن كونه لا يقع في تقاطع

مسارات بحيث يصل أشخاص برفقة أطفالهم المرهقين، ويجلسون إلى جانبك. كما أنه، لم يكن معزولًا تمامًا، من ناحية أخرى، بل كان يمرُّ بين حين وآخر عابر قائلًا: «مرحبًا» بالطريقة المعتادة، وربما يضيف كلامًا هازئًا به من غيتاري، من دون أن يتوقف عن المشي. لكني لم أكترث لذلك إطلاقًا. كان الأمر أشبه بأن تحظى بجمهور ولا تحظى بأحد في الوقت نفسه، الأمر الذي حفز مخيلتي بالقدر القليل الذي كنت أحتاجه.

ظللت جالسًا على المقعد لنصف ساعة عندما أدركت أن مشاة، ممن كانوا قد مروا بي للتو وألقوا التحية المقتضبة والمعتادة، قد توقفوا الآن على بعد عدة ياردات يراقبونني، الأمر الذي أثار انزعاجي، فقلت بشيء من السخرية:

- أحوالي على ما يرام. لا ينبغي لأي منكم إلقاء أي نقود.

لكن الإجابة على ما قلته جاءت على شكل ضحكة مجلجلة من القلب، ضحكة ميزتها فورًا، فنظرت أمامي لأرى الكراوتس متجهين نحو مقعدي.

عصف بذهني احتمال أن يكونا قد ذهبا إلى هاغ فريزر، وعرفا أنني خدعتهما عن سابق تصميم، وها قد جاءا الآن للثأر مني. لكني لاحظت بعدها أن المرأة أيضًا كانت تبتسم مبتهجة، لا الرجل وحسب. ثم تمهَّلا حتى باتا أمامي مباشرة، وبما أن الشمس كانت تغرب في تلك اللحظة فإنهما بديا لوهلة أشبه برسمين ظلِّيين، وخلفهما سماء ما بعد الظهيرة الواسعة. ثم اقتربا مني وأمكنني أن أرى بأنهما يحدِّقان إلى غيتاري - الذي واصلت عزفي عليه - بنظرات عكست دهشتهما المثيرة للسعادة، وبالطريقة نفسها التي ينظر فيها الناس إلى طفل. الأكثر إثارة للدهشة هو أن المرأة أخذت تدقُّ بقدمها على الأرض مع إيقاعي. انتابني شعور بعدم الارتياح، فتوقفت عن العزف.

- «مرحبًا، تابع عزفك»، قالت المرأة، «ما تلعبه جيد للغاية».
- «نعم»، قال الزوج، «إنه رائع! سمعناك من بعيد»، أشار. «كنا فوق، هناك عند سلسلة التلال تلك، وقلت لصونيا، إنني أسمع موسيقى».

- «الغناء أيضًا»، قالت المرأة، «قلت لتيلو، اصغِ، ثمة غناء في مكان ما. وكنت على حق، أليس كذلك؟ لقد كنتَ تغني كذلك قبل لحظات».

لم يكن بامكاني تقبُّل فكرة أن هذه المرأة المبتسمة هي نفسها التي حولت فترة غدائنا إلى أوقات عصيبة، فتفحصتهما بعيني مرة أخرى، في حال كانا زوجين مختلفين تمامًا، إلا أنهما كانا يرتديان الملابس نفسها، ورغم أن شعر الرجل الذي كان مسرَّحًا على طراز «أبا» قد تخرَّب قليلًا مع هبوب الريح، فلم يكن هناك شك في أنهما الزوجان نفسيهما. على أية حال، فقد قال في اللحظة التالية:

- أعتقد أنك الجنتلمان الذي قدم لنا الغداء في المطعم الذي يدخل البهجة في القلب.

وافقته الرأي على ذلك. بعدها قالت المرأة:

- هذا اللحن الذي كنت تغنيه منذ لحظة لقد سمعناه هناك فوق، وسط هبوب النسيم في البداية. إنني أحب الطريقة التي ينتهي بها كل سطر.

قلت: «شكرًا، إنها أغنية أعمل عليها، لكني لم انتهِ منها بعد».

- أنت من كتبتها؟ لا بد من أن تكون موهوبًا جدًّا إذن! من فضلك، غنِّ ذلك اللحن مرة أخرى، كما كنت تفعل قبل قليل.

قال الرجل: «حين تشرع بتسجيل أغنيتك، أخبر المنتج بأنك تريد إصدارها بهذا الشكل. مثل هذا المنظر!»، مشيرًا من ورائه إلى هيرفوردشاير التي امتدت أمام ناظرينا. «أن تقول هكذا يجب أن يكون صوتها، والبيئة السمعية التي أنا في حاجة إليها. سيتلقى الناس أغنيتك كما سمعناها اليوم، محمولة على النسيم فيما كنا ننزل التل...».

- «عليها أن تكون أكثر وضوحًا، بطبيعة الحال»، قالت المرأة، «وإلا فلن يصغي المستمعون إلى الكلمات. لكن تيلو محق. يجب أن تقترح عليهم غناءها خارج الاستوديو. في الهواء الطلق، ومع صدى».

أحسست بأنهما على وشك الانصراف، كما لو أنهما صادفا إلغار آخر في التلال. ورغم مخاوفي الأولية، فإنني لم أملك إلا الإعجاب بهما.

- «حسنًا» قلت، «بما أنني كتبت معظم الأغنية في هذه الأنحاء، فلا غرابة في أن يكون فيها شيء من هذا المكان».
- «نعم، نعم»، قال كلاهما في وقت واحد، وهما يهزان رأسيهما. ثم قالت المرأة: «لا تشعر بالخجل. أرجوك شاركنا موسيقاك. لقد بدا الأمر رائعًا».
- «حسنًا»، قلت، عازفًا بعض الخربشات الموسيقية. «حسنًا، سأغني لك أغنية، إذا كنتِ تودين ذلك حقًّا. لن أعزف الأغنية التي لم أكملها بعد. بل أغنية أخرى. لكن لا يمكنني فعل ذلك وأنتما تقفان فوقي هكذا».
- «طبعًا»، قال تيلو، «يا لنا من متغطرسين. لقد اضطررت أنا وصونيا إلى تقديم عروض في كثير من الظروف الغريبة والصعبة، وأصبحنا متبلدي الشعور حيال ما يحتاجه الموسيقيون الآخرون».

نظر حوله وجلس على قطعة من العشب السائب قرب الطريق، مواجهًا المنظر الطبيعي وظهره لي. منحتني صونيا ابتسامة تشجيعية، ثم جلست بجانبه. وضع ذراعه على الفور حول كتفيها، فمالت إليه، بل إن الامر بدا وكأن لا وجود لي بالمرة، ليستمتعا بلحظة بالغة الحميمية محدِّقين إلى الريف في وقت متأخر من بعد الظهيرة.

- «حسنًا، ها نحن أولاء»، قلت، مؤديًا الأغنية التي أفتتح بها عادة تجارب الأداء. كان صوتي موجهًا نحو الأفق، لكني بقيت أحدق بتيلو وصونيا. ورغم أنني لم أستطع رؤية وجهيهما، فإن الطريقة التي بقيا فيها متلاصقين من دون أية إشارة بأن شيئًا ما ليس على ما يرام، أنبأتني بأنهما يستمتعان بما يسمعانه. وعندما انتهيت، التفتا إليَّ راسمين ابتسامات عريضة ومصفقين، ما أطلق صدى نحو التلال.
- «رائع!»، قالت صونيا، «أنت موهوب للغاية!».
- «رائع، رائع»، أخذ تيلو يقول.

شعرت بالإحراج قليلًا بسبب تعليقاتهما، متظاهرًا بانهماكي في ضبط أوتار الغيتار. حين نظرت أخيرًا إلى أعلى، كانا لا يزالان جالسين على الأرض، لكنهما عدلا الآن وضعيتهما بحيث يتمكنان من رؤيتي.

سألتهما: «أنتما إذن موسيقيَّان؟ أعني موسيقيين محترفين؟».

قال تيلو: «نعم، أفترض أن بإمكانك وصفنا بالمحترفين. صونيا وأنا نؤدي الموسيقى كثنائي. في الفنادق والمطاعم، في الأعراس، والحفلات. في جميع أنحاء أوروبا، رغم أننا نفضل العمل في سويسرا والنمسا. نجني قوتنا بهذه الطريقة، لذا نعم، نحن محترفان».

- «لكن أولًا وقبل كل شيء»، قالت صونيا، «نحن نعزف لإيماننا بالموسيقى. أستطيع أن أرى الأمر نفسه لديك».
- «إذا ما توقفت عن الإيمان بموسيقاي»، قلت، «فلن أعزف مجددًا، بكل بساطة». ثم أضفت: «أود حقًّا أن أقوم بذلك بشكل محترف. لا بدَّ من أنها حياة جيدة».
- «نعم، إنها حياة جيدة»، قال تيلو، «إننا محظوظان للغاية لاستطاعتنا القيام بذلك».
- «انظرا» قلت، ولربما على نحو فجائي، «هل ذهبتما إلى الفندق الذي نصحتكما به؟».
- «يا له من تصرف فظ جدًّا منا!» هتف تيلو، «لقد تأثرنا جدًّا بموسيقاك، حتى أننا نسينا حقًّا أن نشكرك. نعم، لقد ذهبنا إلى هناك والفندق مناسب جدًّا ويمثل بالضبط طلبنا. لحسن الحظ لا يزال هناك غرف شاغرة».
- «هذا ما أردناه»، قالت صونيا، «شكرًا لك».

تظاهرت مرة أخرى بأنني منهمك في دوزنة أوتاري. ثم قلت بالعفوية التي استطعت اصطناعها: «يمكنكا إعادة التفكير في الأمر، هناك فندق آخر أعرفه. أعتقد أنه أفضل من فندق «نزل مالفيرن». عليكما برأيي تغييره».

- «أوه، لكنَّنا استقررنا فيه الآن»، قال تيلو، «لقد أفرغنا حقائبنا، إضافة إلى ذلك فإن الفندق هو تمامًا ما نحتاجه».
- نعم، ولكن... حسنًا، المسألة أنك حين سألتني في وقت سابق عن فندق لم أكن أعلم بأنكما موسيقيان. ظننتكما مصرفيين أو شيئًا من هذا القبيل.

انفجر كلاهما بالضحك، كما لو أنني تلفظتُ بنكتة مثيرة للدهشة. ثم قال تيلو:

- لا، لا، نحن لسنا مصرفيين، على الرغم من أننا تمنينا ذلك مرات عديدة!
- «ما أود قوله»، قلت، «هو أن ثمة فنادق أخرى أفضل تجهيزًا، كما تعلمان، ولها مسحة فنية. ليس سهلًا عليك أن يسألك أناس غرباء عن فندق توصي به، وأنت لا تعلم شيئًا عنهم».
- «لطيف منك أن تبدي اهتمامك»، قال تيلو، «لكن من فضلك لا داعي لفعل ذلك مجددًا. الفندق الذي حظينا به ممتاز. إضافة إلى أن الناس لا يختلفون كثيرًا عن بعضهم. المصرفيون والموسيقيون، جميعنا في نهاية المطاف نسعى وراء الأشياء نفسها في هذه الحياة».
- «إنني كما تعلم غير واثقة من صحة ذلك»، قالت صونيا، «صديقنا الشاب هنا، كما ترى، ليس مهتمًا بالبحث عن وظيفة في أحد البنوك. أحلامه مختلفة».
- أنت محقة ربما، صونيا. لكن برغم كل شيء، فإن الفندق الحالي مناسب جدًّا لنا.

انحنيت فوق أوتار غيتاري محاولًا عزف بعض الجمل الموسيقية الصغيرة لنفسي، على سبيل التمرين، ولبضع ثوان لم يتكلم أحد. ثم سألتهما: «ما نوع الموسيقى التي تعزفانها أيها الرفيقان؟».

هز تيلو كتفيه. «أنا وصونيا نعزف على عدد من الآلات. كلانا يعزف على الكيبورد. وأنا مغرم بالكلارينت. صونيا عازفة كمان ممتازة، ومغنية رائعة أيضًا. أفترض أن ما نفضل القيام به هو أداء الموسيقى الشعبية السويسرية التقليدية، بطريقة معاصرة. وأحيانًا بأسلوب راديكالي، إذا ما أردت تسمية الأمر هكذا. نستمد إلهامنا من ملحنين عظام سلكوا المسار نفسه. ياناتشيك على سبيل المثال. أو فوغان وليامز، وهو من بلدكم».

- «لكن هذا النوع من الموسيقى»، قالت صونيا، «لم نعد نؤديه كثيرًا هذه الأيام».

تبادلا نظرات خيل إليَّ أنها ليست سوى إشارات على توتر ما، قبل أن تعود ابتسامة تيلو المعتادة على سحنته.

- نعم، مثلما أشارت صونيا، ينبغي في هذا العالم الواقعي وفي معظم الوقت، عزف ما سينال تقدير جمهورنا على الأرجح. لذا نؤدي أغنيات عديدة. للبيتلز، والكاربنترز. وكذلك أغنيات أكثر حداثة. هذا مُرضٍ تمامًا.
- «وماذا عن أبا؟»، سألت دفعة واحدة، قبل أن أندم على الفور. لكن بدا أن تيلو لم يشعر بأي حس بالسخرية.
- نعم، نحن في الواقع، نؤدي بعض أغنيات أبا. «Dancing Queen». وكل شيء يسير عندها على ما يرام. في الواقع، هي أغنية «Dancing Queen» التي أقوم فيها ببعض الغناء بنفسي، في هارموني قصير. ستقول لك صونيا إن لدي أسوأ صوت يمكن سماعه. لذا نحرص على أداء هذه الأغنية حين يكون الزبائن في منتصف وجبتهم لا غير، أي حين لا يكون هناك من مفر!

أطلق ضحكته المجلجلة، وضحكت صونيا أيضًا، لكن بصوت غير عال. قبل أن يمر درَّاج، ببذلة سوداء، مسرعًا بنا، وأخذنا للحظات قليلة نراقب جميعنا هيئته المحمومة والمنحسرة مع ابتعاد المسافة.

- «ذهبت إلى سويسرا مرة واحدة»، قلت في النهاية. «في صيف إحدى السنوات الماضية. إنترلاكن. مكثت في بيت للشباب هناك».
- نعم، إنترلاكن. مكان جميل. بعض السويسريين يسخر من ذلك. يقولون إنه مكان للسائحين فقط. لكني وصونيا لطالما أحببنا أن نؤدي هناك. أن تعزف في إنترلاكن في أمسية صيفية، لأشخاص سعداء من جميع أنحاء العالم، فهذا أمر رائع للغاية. أتمنى أن تكون قد استمتعت بزيارتك لذلك المكان.
- نعم، كانت زيارة رائعة.
- ثمة مطعم في إنترلاكن نعزف فيه بضع ليالٍ كل صيف. نتخذ مجلسنا تحت ظلة المطعم لتقديم أدائنا، لذا نكون قبالة طاولات الطعام، التي تكون بطبيعة الحال في الهواء الطلق خلال تلك الأمسيات. ويمكننا أن نرى جميع السائحين يتناولون الطعام ويتحدثون معًا تحت ضوء النجوم ونحن نؤدي وصلتنا. ومن وراء السائحين، يلوحُ لنا الحقل الكبير، حيث يهبط هواة الطيران الشراعي خلال النهار. غير أن المكان يكون مضاء بالمصابيح على طول هوهِويغ ليلًا. أما إذا جلت بعينيك متجاوزًا ذلك، فسترى جبال الألب المطلة على الحقل. الخطوط العريضة لآيغر، مونخ، وجُنغفراو. ثم الهواء دافئ وعابق بموسيقانا. أشعر بأنه امتياز لنا، أن نكون هناك. نعم، أعتقد أنه من الجيد أن نقوم بذلك.
- «ذلك المطعم»، قالت صونيا، «في العام الماضي، أجبرنا المدير على ارتداء زينا الموحد كاملًا أثناء أدائنا، رغم أن الطقس كان حارًّا للغاية. لم يكن أمرًا مريحًا على الإطلاق، لكنَّنا قلنا أي فرق سيحدثه ارتداؤنا لتلك الملابس، إذ يتوجب علينا ارتداء الصدريات الضخمة والأوشحة والقبعات؟ فنحن ببلوزتينا فقط بدونا غاية في الأناقة وسويسريين جدًّا. لكن مدير المطعم قال إما أن نرتدي الزي كاملًا أو أنه لن يسمح لنا بالعزف. الأمر يعود إلينا، قال، ثم ابتعد، بكل بساطة».

لكن صونيا قالت: «إن هذا ما يحدث في كل الوظائف. هناك دومًا زي موحد، شيء ما يصر صاحب العمل على أن يرتديه الموظفون. كذلك الحال مع المصرفيين! إنه شيء نؤمن به على الأقل في وضعنا. الثقافة السويسرية. التقليد السويسري».

من جديد، كان هناك شيء محير غامض يحوم بينهما، لكن لثانية أو ثانيتين فقط، ليبتسم كل منهما بعد ذلك وهما يثبّتان نظرهما مرة أخرى على غيتاري. ظننت أن من الواجب عليَّ التفوه بشيء، فقلت:

- أعتقد أنني سأستمتع بذلك. إمكانية العزف في بلاد مختلفة. لا بدَّ من أن ذلك يبقيك نشطًا، وأن عليك أن تنتبه لجمهورك بشكل تام.
- «نعم»، قال تيلو، «من الجيد أن يؤدي المرء لأناس من كل الأطياف. ليس فقط في أوروبا. فنحن بشكل عام تعرفنا، وعن كثب، إلى مدن كثيرة».
- «دوسلدورف، على سبيل المثال»، قالت صونيا. كان ثمة شيء مختلف في صوتها الآن - شيء أكثر قسوة - وأمكنني أن أرى أمامي الآن الشخص الذي رأيته في المقهى. رغم ذلك، فإن تيلو لم يلاحظ أي شيء بل قال، بطريقة تخلو من أي علامة على إحساس بالغم:
- دوسلدورف هو المكان الذي يعيش فيه ولدنا الآن. إنه في مثل سنك. ربما أكبر قليلًا.
- «ذهبنا إلى دوسلدورف في وقت سابق من هذا العام»، قالت صونيا، «اضطررنا إلى العزف هناك. لم تكن حفلة عادية، بل فرصة لعزف موسيقانا الحقيقية. لذا اتصلنا به، فلذة كبدنا، طفلنا الوحيد، اتصلنا لنخبره بأننا قادمان إلى مدينته. لم يرد على هاتفه، لذا تركنا له رسالة. بل رسائل عديدة. لكن من دون أن نتلقى أي رد. وصلنا إلى دوسلدورف، وتركنا المزيد من الرسائل. قلنا، إننا هنا، في مدينتك. لكن من دون أي رد. قال تيلو لا تقلقي، ربما يأتي لحضور حفلتنا

الموسيقية في المساء. لكنه لم يأتِ. عزفنا، ثم كان علينا أن نذهب إلى مدينة أخرى، بسبب التزاماتنا».

أطلق تيلو قهقهة صاخبة. «أعتقد أن بيتر سمع على الأرجح ما يكفي من موسيقانا أثناء ترعرعه بيننا! الولد المسكين كما ترى، لطالما اضطر إلى سماعنا خلال التمارين، ويومًا بعد يوم».

قلت: «يمكن أن يكون الأمر صعبًا بعض الشيء برأيي، أن تنجبا أطفالًا وتعملا كموسيقيين».

- «لم ننجب سوى طفل واحد، لذا لم يكن الأمر مريعًا»، قال تيلو، «كنا بالطبع محظوظين. حين كنا نضطر إلى السفر، ولا يكون بمقدورنا اصطحابه، كان جداه مسرورين دومًا للاهتمام به. وعندما بات بيتر أكبر سنًّا أرسلناه إلى مدرسة داخلية جيدة. ظهر جداه مرة أخرى، لإغاثتنا، وإلا لعجزنا عن تحمل نفقاته المدرسية. لذا أقول كنا محظوظين للغاية».

- «نعم، كنا محظوظين»، قالت صونيا، «عدا أن بيتر كره مدرسته».

بدا أن المناخ الودود الذي كان سائدًا قبل لحظات آخذ بالانحسار شيئًا فشيئًا. وفي محاولة لبث البهجة، قلت بسرعة: «حسنًا، يبدو أنكما على أية حال، تستمتعان بعملكما».

- «نعم، إننا نستمتع بعملنا»، قال تيلو، «فهو كل شيء بالنسبة إلينا. مع ذلك، نحن نقدِّر كثيرًا الأيام التي نحظى فيها بإجازة. هل تعلم أن هذه أول عطلة لنا بكل معنى الكلمة منذ ثلاث سنوات؟».

جعلني كلامه أشعر بالسوء بالفعل مرة أخرى، فخطر لي أن أفتح الموضوع مرة أخرى لإقناعهما بتغيير الفندق. لكني رأيت أن الأمر سيبدو سخيفًا. فلم يكن أمامي إلا أن آمل بأن تنجز هاغ فريزر واجباتها الفندقية نحوهما كما يجب. وبدلًا من ذلك، قلت:

- إن أردتما، يمكنني أن أعزف، من أجلكما، الأغنية التي كنت أعمل عليها آنفًا. لم أفرغ منها بعد، وأنا لا أفعل ذلك عادة. لكن بما أنكما

سمعتما بعضًا منها على أية حال، فلا مانع لدي من عزف ما وصلت إليه حتى الآن.

عادت الابتسامة إلى وجه صونيا. «نعم»، قالت، «دعنا من فضلك نسمعها. بدت أغنية جميلة من قبل».

وفيما كنت أستعد للعزف استدارا مجددًا، ليواجها المنظر الطبيعي كما في المرة السابقة، وظهراهما لي. إلا أنهما بدلًا من أن يحتضن أحدهما الآخر، جلسا على العشب في وضعية مستقيمة على نحو مفاجئ، وقد وضع كل منهما يدًا عند الحاجب اتقاء لشعاع الشمس. بقيا هكذا طوال مدة عزفي، جامدين على نحو غريب. ونظرًا إلى الطريقة التي امتد بها الظل الطويل لكل منهما في شمس ما بعد الظهيرة، فقد بديا كأنهما عارضان فنيان بالضبط. وصلت أغنيتي غير المكتملة إلى لعثمة متعرجة، وللحظة لم يحركا ساكنًا. ثم تحررا من وضعيتهما، معبرين عن استحسانهما، رغم أنهما ربما لم يكونا متحمسين تمامًا كما في المرة السابقة. نهض تيلو، مغمغمًا ببعض المجاملات، ثم ساعد صونيا على النهوض. كان عليك مراقبة كيف يفعل ذلك لتتذكر أنهما في منتصف العمر. ربما كانا متعبين. كل ما أعرفه أنهما قد يكونان أمضيا بعض الوقت في المشي سيرًا على الأقدام قبل أن يصلا إلي. على أية حال، فقد بدا لي أنهما يواجهان صعوبة كبيرة في النهوض.

- «لقد أمتعتنا بشكل رائع للغاية»، قال تيلو، «نحن السائحون الآن، وهنالك شخص آخر يعزف من أجلنا! إنه تغيير لطيف».
- «سأرغب في سماع هذه الأغنية بعد أن تنتهي من كتابتها»، قالت صونيا، وقد بدا أنها تعني ذلك حقًّا. «قد أسمعها على الراديو في يوم من الأيام. من يعلم؟».
- «نعم»، قال تيلو، «ومن ثمَّ نؤدي أنا وصونيا النسخة الخاصة بها أمام زبائننا!». ضحكته الواسعة دوت في الأرجاء. انحنى بعدها قليلًا بتهذيب وقال: «نحن مدينون لك في هذا اليوم بثلاثة أشياء. غداء رائع. اختيار رائع للفندق. وحفلة رائعة هنا على التلال!».

ما إن تودَّعنا حتى تأججت رغبة في داخلي لإطلاعهما على الحقيقة. فكنت على وشك الاعتراف بأنني أرسلتهما بشكل متعمد إلى أسوأ فندق في المنطقة، وأن أنذرهما بضرورة الانتقال منه إذ لا يزال أمامهما متسع من الوقت. لكن الطريقة الودودة التي صافحاني بها جعلت الاعتراف بذلك أكثر صعوبة. وفيما كانا يسلكان التلة نزولًا، وجدت نفسي وحيدًا على المقعد مرة أخرى.

كان المقهى قد أغلق عندما نزلت من التلال. أما ماغي وجيف فكانا منهكين. قالت ماغي إنه كان أكثر الأيام ازدحامًا حتى الساعة، وبدت كأنها مرتاحة حيال ذلك. لكن حين تطرق جيف إلى الأمر نفسه على العشاء - الذي كان عبارة عن مخلفات الطعام في المقهى - أخذ يناقشه بصفته أمرًا سلبيًّا، إذ كان من الفظاعة أن يعملا بكد في حين لم أحضر لمساعدتهما. سألتني ماغي كيف أمضيت فترة بعد الظهر، ولم أذكر تيلو وصونيا - فالأمر بدا معقدًا للغاية - لكني أخبرتها أنني ذهبت إلى شوغرلوف للعمل على أغنيتي. وعندما سألتني عما إذا كنت قد أحرزت أي تقدم، أجبت بنعم، وبأنني أحرز تقدمًا بالفعل، فيما نهض جيف وغادر عكر المزاج، رغم أن صحنه كان لا يزال فيه بعض الطعام. تظاهرت ماغي بأنها لم تلاحظ ذلك، إلا أنه عاد بعد دقائق بمزاج مقبول نسبيًّا، حاملًا علبة بيرة في يده، ليجلس قارئًا جريدته من دون الإفصاح عن شيء. لم أكن أريد أن أكون سببًا في حدوث شقاق بين أختي وزوجها، لذا اعتذرت بعد ذلك بقليل صاعدًا إلى الطابق العلوي للعمل أكثر على أغنيتي.

غرفتي، التي كانت مصدر إلهام لي خلال فترة النهار، لم تعد تتسم بأية جاذبية بعد حلول الظلام. فالستائر بداية لا تسدل بشكل كامل، ما يعني أنه إذا فتحتُ النافذة اتقاء للحرارة الخانقة سترى الحشرات ضوئي من مسافة أميال، وتأتي وتملأ المكان. كما أن الضوء أتى من لمبة واحدة عارية تدلت من السقف، وهي بذلك تلقي ظلالًا قاتمة في جميع أنحاء الغرفة، ما يجعلها تبدو وبشكل أكثر وضوحًا كغرفة احتياطية كما هي في الواقع. رغبت أن تعمل الإضاءة جيدًا

في ذلك المساء، حتى أدوّن كلمات الأغاني كما وردت إلى ذهني. لكن الجو أصبح خانقًا فأطفأت المصباح في نهاية المطاف، أسدلتُ الستائر، وفتحت النوافذ على مصراعيها. ثم جلست في نافذتي الناتئة مع غيتاري، تمامًا كما كنت قد فعلت خلال النهار.

مكثت قرابة ساعة تقريبًا على هذه الحال. وخلال ذلك جربت عزفًا احتمالات مختلفة للشطر الذي ينقلك من دور موسيقي إلى آخر، حين سمعت قرعًا على الباب الذي دسَّت ماغي رأسها من خلاله. كان كل شيء يحدث بطبيعة الحال في الظلمة، إلا أن الشرفة كانت مزودة بأضواء كشافة، ما مكنني من تمييز وجهها. كان وجهها يحمل ابتسامة محرجة، واعتقدت أنها على وشك أن تطلب مني المجيء لمساعدتها في عمل روتيني آخر. لكنها دخلت وأغلقت الباب وراءها قائلة:

- إنني آسفة حبيبي. لكن جيف متعب حقًّا الليلة، لقد أنهكه العمل. وهو يرغب الآن في مشاهدة فيلم بهدوء؟

قالت ما قالته بهذه الطريقة، كما لو أنها تطرح سؤالًا، ولزمني لحظة لأدرك أنها تطلب مني التوقف عن عزف موسيقاي.

- «لكنني أعمل على شيء مهم هنا»، قلت.
- أعرف. لكنه فعلًا متعب الليلة، بل يقول إنه لا يستطيع الاسترخاء بسبب غيتارك.
- «على جيف أن يدرك بأنه كما يتوجب عليه إنجاز عمله، يتوجب عليَّ إنجاز عملي»، قلت.

بدا أن أختي تتأمل المسألة، قبل أن تتنهد عميقًا. «لا أعتقد أنني يجب أن أبلغ جيف بذلك».

- لم لا؟ لم لا تفعلين ذلك؟ لقد حان الوقت ليتلقى الرسالة.
- لمَ لا؟ لأنني لا أظن بأنه سيُسَرُّ، لهذا السبب، لا. كما أنني لا أعتقد أنه سترق له فكرة أن عملك وعمله هما على المستوى نفسه.

حدَّقت إلى ماغي للحظة من دون أن أتفوه بكلمة. ثم قلت: «حديثك هذا هراء. لماذا تتلفظين بهذا الكلام الهراء؟».

هزت رأسها ضجرة، لكنها لم تتفوه بشيء.

- «لا أفهم لماذا تتحدثين بمثل هذا الهراء»، قلت. «وفقط في اللحظة التي تسير فيها شؤوني على ما يرام».
- «شؤونك تسير على ما يرام، أهذا صحيح، يا حبي؟». ظلت تنظر إلي في الضوء المعتم. «حسنًا، هذا صحيح»، قالت في النهاية. «لن أتجادل معك». التفتت لفتح الباب، وقالت وهي تغادر: «انزل وانضم إلينا، إذا شئت».

متعنتًا في موقفي، لشعوري بالغضب، حدَّقت إلى الباب الذي أغلق وراءها. لقد أصبحت على دراية بالأصوات المكتومة الآتية من التلفزيون في الطابق السفلي، وحتى في الحالة التي كنت فيها كان جزء غير متحيز من دماغي يقول لي إن غضبي لا ينبغي أن يكون موجهًا ضد ماغي، وإنما ضد جيف، الذي حاول، منذ وصولي إلى هنا، أن يقوض جهودي بصورة حاسمة. رغم ذلك، كانت شقيقتي الطرف الذي أبديت غضبي تجاهه. فهي لم تطلب مني في أية مرة خلال إقامتي في منزلها عزف أغنية، كما فعل تيلو وصونيا. لا شكَّ في أن ذلك ليس بالشيء الكبير الذي يمكن أن تطلبه شقيقتي، التي كانت، حسبما أتذكر، عاشقة كبيرة للموسيقى في مراهقتها. لكن ها هي تبدي اعتراضها الآن فيما أحاول العمل وتتلفظ بكل ذلك الهراء. كلما فكرت بالطريقة التي قالت فيها: «حسنًا، لن أتجادل معك»، شعرت بغضب شديد يسري في كياني.

غادرت مكاني عند عتبة النافذة، لأضع غيتاري جانبًا، ثم ألقيت نفسي على فراشي. رحت أحدق لبعض الوقت إلى الأشكال المرسومة بالظلال على السقف. بدا واضحًا أن دعوتي إلى هنا قد سيقت بذرائع زائفة، وأن الأمر كله متعلق بحاجتهما إلى يد رخيصة الأجر لإعانتهما خلال الموسم المزدحم، قدح يشربانه ولا يسددان ثمنه. كما أن أختي لم تكن مدركة لذلك، لأن ما حاولت

إنجازه وتحقيقه هو أفضل مما أنجزه زوجها المعتوه. سيستأهلان بالفعل أن أتركهما في هذه السفينة المترنحة وأعود إلى لندن. ظللتُ أقلب هذه الفكرة طولًا وعرضًا إلى أن هدأت أعصابي بعض الشيء بعد ساعة أو أكثر، وقررت أن آوي إلى الفراش لأن الوقت تأخر.

لم أتحدث كثيرًا معهما عندما نزلت كالمعتاد بعد وقت الذروة عند الفطور. حضَّرت بعض الخبز المحمص والقهوة، كما تناولت بعضًا مما تبقى من البيض المخفوق، قبل أن أجلس في ركن المقهى. بقيت خلال تناولي الفطور أفكر كل الوقت أن عليَّ لقاء تيلو وصونيا مرة أخرى في التلال. ورغم أن الأمر قد ينطوي على عواقب وخيمة فيما يتعلق بنزل هاغ فريزر، لكني مع ذلك كنت آمل أن ألتقيهما. إضافة إلى ذلك، فحتى لو كان فندق هاغ فريزر فظيعًا حقًّا فسوف لا يظنان أني دللتهما على المكان بدافع الخبث. كانت أمامي سبل عديدة للخروج من هذا المأزق.

لربما توقعت ماغي وجيف أن أساعدهما مرة أخرى، في فترة الذروة عند الغداء، لكني قررت أنهما يجب أن يُلقَّنا درسًا بألا يأخذا أي شخص كأمر مسلَّم به. بعد الفطور، صعدت إلى الطابق العلوي، وتناولت غيتاري لأنسل من خلف المقهى.

كان الطقس حارًّا فعلًا من جديد، وسالت نقاط العرق على وجنتيَّ بينما رحت أصعد الطريق المؤدي إلى مقعدي. ورغم أنني انشغلت بالتفكير بتيلو وصونيا خلال تناولي وجبة الفطور، إلا أنني كنت قد نسيتهما تمامًا الآن. لذا فوجئت عندما وصلت إلى المنحدر النهائي، برؤية صونيا تجلس على مقعدي وحيدة. وما إن لمحتني حتى لوَّحت بيدها فورًا.

كنت لا أزال حذرًا بعض الشيء حيالها، وخصوصًا أنها كانت من دون تيلو، فلم أشعر بحماسة للجلوس بصحبتها. إلا أنها رسمت على وجهها ابتسامة ودودة وتحركت بحيث نقلت جسمها من مكانه، بما يدل على أنها تفسح المجال لي. لذا لم تكن أمامي خيارات كثيرة.

تبادلنا التحية، ثم جلسنا لبعض الوقت جنبًا إلى جنب من دون أن نتبادل كلمة. لم يبد الأمر غريبًا في البداية، بسبب أنني كنت لا أزال ألتقط أنفاسي، وبسبب المنظر كذلك. كان ثمة ضباب وسحب أكثر من اليوم السابق، إلا أنك لو أمعنت النظر، لاستطعت أن ترى ما وراء الحدود الويلزية وصولًا إلى الجبال السوداء. كان هبوب النسيم قويًّا جدًّا، إلا أنه ظل يبعث على الراحة.

- «أين تيلو إذن؟»، سألت أخيرًا.
- «تيلو؟ أوه»، غطت عينيها بيدها ثم أشارت قائلة: «هناك. هل تراه؟ هناك. ذلك هو تيلو».

تمكنت على بعد مسافة ما من رؤية جسم، في قميص أخضر على الأرجح وقبعة شمس بيضاء، وقد تحرك على طول الطريق صعودًا نحو وورسسترشاير بيكون.

- «رغب تيلو أن يذهب في نزهة سيرًا على الأقدام»، قالت.
- ألم ترغبي في الذهاب معه؟
- لا. لقد قررت البقاء هنا.

وبرغم أنها لم تكن الآن، بأي حال، تلك الزبونة التي استشاطت غضبًا في المقهى، إلا أنها لم تكن كذلك تلك المرأة التي تعاملت معي بدفء وشجعتني في اليوم السابق. كان ثمة بالتأكيد خطب ما، ورحت أعد العدة للدفاع عن هاغ فريزر.

- «بالمناسبة»، قلت، «لقد عملت أكثر على تلك الأغنية. بإمكاني أن أسمعك إياها إذا كنت راغبة في ذلك».

تأمَّلتِ الأمر، ثم قالت: «إن كنت لا تمانع، ربما ليس في هذه اللحظة تحديدًا، إن لم يكن لديك مانع. دار نقاش بيني وبين تيلو. يمكنك أن تسميه خلافًا».

- آسف لسماع ذلك.
- وقد ذهب الآن ليتمشى.

بقينا مرة أخرى جالسين على المقعد بصمت. ثم تنهدتُ قائلًا:

- أعتقد أن الخطأ خطأي.

التفتتْ ونظرت إلى وجهي: «خطؤك؟ ولم تقول هذا؟».

- السبب الذي جعلكما تتشاجران، والسبب في أن عطلتكما كلها فسدت. خطئي. إنه الفندق أليس كذلك؟ لم يكن مناسبًا، أليس كذلك؟

- «الفندق؟»، بدت حائرة. «ذلك الفندق. حسنًا، لا شك في أنَّ لديه بعض مواطن الضعف. لكنه فندق، يشبه فنادق كثيرة سواه».

- لكنكما لاحظتما الأمر، أليس كذلك؟ لاحظتما مواطن ضعفه كلها. لا بدَّ من أن تكونا لاحظتما ذلك.

بدا أنها تفكر في الأمر، ثم أومأت: «صحيح، لقد لاحظتُ مواطن ضعفه. لكن تيلو لم يفعل. تيلو بطبيعة الحال يعتقد بأن الفندق رائع. إننا محظوظان للغاية، ظل يقول هذا. محظوظان جدًّا لعثورنا على هذا الفندق. ثم تناولنا وجبة الفطور هذا الصباح. كان بالنسبة إلى تيلو فطورًا شهيًّا، بل أفضل فطور على الإطلاق. قلت، تيلو، لا تكن غبيًّا. هذا ليس فطورًا شهيًّا. هذا ليس فندقًا جيدًا. وقال، لا، لا، نحن محظوظان للغاية. لذا غضبت. وأفصحت عن كل شيء لمالكته. وتيلو قادني بعيدًا. دعينا نذهب للتنزه، قال. ستشعرين بتحسن بعد ذلك. لذا أتينا إلى هنا. قال: صونيا، انظري إلى هذه التلال، أليست خلابة؟ أليس من حسن حظنا أننا أتينا إلى هذا المكان لنقضي إجازتنا؟ هذه التلال، قال، إنها تفوق ما تخيَّلته روعة ونحن نستمع إلى إلغار. يسألني: ألا توافقينني الرأي؟ ربما أشعر بالغضب مجددًا. فأقول له: هذه التلال، إنها ليست رائعة. إنها ليست ما أتخيله عند سماعي موسيقى إلغار. تلال إلغار مهيبة وغامضة. أما هذه، فهي أشبه بالحدائق العامة. هذا ما أقوله له. فيشعر بالاستهجان، يقول عندها بأنه سوف يتمشى بمفرده. يقول: لقد انتهى أمرنا، لم نعد نتفق على أي شيء الآن. أجل يا صونيا، يقول، لقد انتهى أمرنا، أنا وأنت. فينطلق صوب التلال! وها

نحن أولاء. هذا هو السبب وراء وجوده هناك ووجودي هنا». حجبت عينيها مرة أخرى وشاهدت تقدم تيلو.

- «إنني آسف حقًّا»، قلت. «لو أني لم أرسلكما إلى ذلك الفندق منذ البداية...».

- «أرجوك. الفندق ليس مهمًّا». انحنت إلى الأمام لكي تتمكن من رؤية تيلو بصورة أفضل. ثم التفتت إلي وابتسمت، وخيل إليَّ أنه قد تكون هناك دموع صغيرة في عينيها. «أخبرني»، قالت، «هل تنوي كتابة مزيد من الأغنيات اليوم؟».

- تلك هي الخطة. أو على الأقل، عليَّ إنهاء ما كنت أعمل عليه. الأغنية التي سمعتماها يوم أمس.

- إنها عمل جميل. وماذا ستفعل بعد أن تفرغ من كتابة أغنياتك هنا؟ هل لديك خطة؟

- سأعود إلى لندن وأكوِّن فرقة. تحتاج هذه الأغاني إلى فرقة مناسبة تؤدِّيها، وإلا فلن يكتب لها النجاح.

- يا له من أمر مثير. أتمنى لك كل التوفيق.

بعد لحظة، قلت بهدوء شديد: «لكني قد لا أزعج نفسي بالأمر. فهو ليس سهلًا، كما تعلمين».

لم ترد، حتى أنني اعتقدت بأنها لم تسمع، إذ عدَّلت وضعيتها من جديد، لتنظر إلى تيلو.

- «هل تعلم»، قالت، «عندما كنت أصغر سنًّا لم يكن ممكنًا لأي شيء أن يثير غضبي. لكنني بت الآن أغضب من أشياء كثيرة. لا أعرف كيف أصبحت هكذا. إنه ليس أمرًا جيدًا. حسنًا، لا أعتقد أن تيلو سيعود إلى هنا. سأرجع إلى الفندق وأنتظره». نهضت ونظراتها لا تزال مثبتة على صورته البعيدة.

- «أمر مربك»، قلت، وأنا أنهض بدوري، «أن تدخلي في خصام في فترة إجازتك. حين عزفت لكما بالأمس بدا لي أنكما سعيدان للغاية معًا».
- «نعم ، كانت لحظات جميلة. شكرًا لك على ذلك». فجأة، مدت يدها لي، مبتسمة بحرارة. «لقد كان من الرائع التعرف إليك».

تصافحنا بتلك الحركة الواهنة التي يقوم بها المرء عند مصافحته النساء. أخذت تمشي مبتعدة، ثم توقفت ونظرت إليَّ.

- «لو كان تيلو هنا»، قالت، «لقال لك: لا تسمح لهمتك بأن تفتر. كان ليقول لك، بطبيعة الحال، إن عليك الذهاب إلى لندن ومحاولة تأليف فرقتك الخاصة، وإنك طبعًا ستكون ناجحًا. هذا ما كان تيلو ليقوله لك، لأن هذه هي طريقته».
- وماذا كنتِ أنت لتقولي لي؟
- «كنت لأقول الكلام نفسه. كونك شابًّا وموهوبًا. لكنني لست على يقين من ذلك. واقع الحال أن الحياة تجلب لنا ما يكفي من خيبات الأمل. علاوة على ذلك، إذا كانت أحلامك مثل هذه...» ابتسمت مرة أخرى وهزت كتفيها. «لكن لا يجدر بي قول هذه الأشياء. أنا لست مثالًا جيدًا لك. إضافة إلى أنني أستطيع أن أرى بأنك أكثر شبهًا بتيلو. إذا واجهت بعضًا من خيبات الأمل، فستمضي في مسيرتك. ستقول، مثلما يفعل هو، إنني محظوظ للغاية». راحت تحدق لبضع ثوان إلى وجهي، كأنها تريد أن تنطبع ملامحي في ذاكرتها، فيما أخذ النسيم يهب عبر شعرها، ما جعلها تبدو أكبر سنًّا من المألوف. «أتمنى لك حظًّا كبيرًا»، قالت في النهاية.
- «حظًّا موفقًا لك أيضًا»، قلت. «وآمل أن تسير الأمور بينكما على ما يرام».

ولوَّحت لي للمرة الأخيرة، قبل أن تختفي من مجال رؤيتي.

أخرجت الغيتار من حقيبته وعدت للجلوس على المقعد. لم أعزف أية

نغمة لبعض الوقت، إذ كنت أنظر عبر المدى، نحو ورسيستر بيكون، وأشاهد هيئة تيلو الضئيلة على المنحدر. ربما كان للأمر علاقة بالطريقة التي ضربت فيها الشمس ذلك الجزء من التل، لكنني استطعت الآن تمييزه بشكل أكثر وضوحًا من ذي قبل، رغم أنه أصبح بعيدًا. لقد توقف مؤقتًا للحظة على الطريق، وبدا أنه ينظر حواليه في التلال المحيطة، تمامًا كما لو كان يحاول إعادة تقييمها، قبل أن تبدأ صورته بالتحرك مرة أخرى.

عملت على أغنيتي لبضع دقائق، لكنني ظللت فاقدًا تركيزي، ويعود ذلك أساسًا إلى أنني كنت أفكر في الطريقة التي بدا عليها وجه هاغ فريزر وصونيا تواجهها في ذلك الصباح. نظرت بعد ذلك إلى الغيوم، كما الأرض المنبسطة تحتي، لأغرق في التفكير من جديد في أغنيتي، بما في ذلك الشطر الموسيقي الذي لم أنجح في كتابته بعد كما يجب.

ليليّات

قبل يومين، كانت ليندي غاردنر جارتي. وقد يراودك التفكير الآن، بأنه إذا كانت ليندي غاردنر جارتي، فهذا يعني أنني أقيم في بيفرلي هيلز، وأنني ربما منتج أفلام، أو ممثل أو موسيقي. حسنًا، إنني موسيقي. هذا صحيح. ورغم أنني عزفت مرافقًا ممثلًا أو ممثلين ممن سمعت بهم، فإنني لست واحدًا ممن يمكن تصنيفهم ضمن رابطة الكبار. مديري برادلي ستيفنسون، الذي كان صديقًا جيدًا على مر السنين، عازم على جعلي ضمن رابطة الكبار، لا أن أكون عازفا كبيرًا وحسب وإنما متصدرًا أخبار المشاهير. يقول ليس صحيحًا أن عازفي الساكسوفون لم يعودوا يتصدرون مانشيتات الصحف، ويكرر قائمة الأسماء. ماركوس لايتفوت. سيلفيو تارنتيني. أقول: «جميعهم عازفو جاز». فيرد: «ومن تكون، إذا لم تكن عازف جاز؟». لكني ما أزال عازف جاز في أعمق أحلامي فقط. أما في عالم الواقع - حين لا يكون وجهي ملفوفًا بشكل كامل بالضمادات كما حاله الآن - فأنا مجرد شخص يقوم بأداءات تينور عرضية، ويُطلب بوتيرة معقولة للعمل في الاستوديوهات، أو حين تفقد الفرقة مغنيها المعتاد. إذا كانوا يريدون بوب، أعزف البوب. موسيقى ريذم أند بلوز؟ لا بأس في ذلك أيضًا. إعلانات سيارات، افتتاحيات البرامج الحوارية، أقوم بذلك. إنني عازف جاز فقط عندما أكون داخل مهجعي.

أفضل العزف في غرفة المعيشة الخاصة بي، لكن شقتنا رخيصة التصميم لدرجة أن الجيران يبدأون بالتذمر في الردهة. وما فعلته هو أنني حولت أصغر

الغرف إلى غرفة للتمارين. إنها ليست أكبر من خزانة حقًّا - يمكن لك وضع كرسي مكتب فيها ويتم كل شيء - لكني قمت بتثبيت عازل الصوت بالرغوة وحاملات البيض والمظاريف المبطنة القديمة التي أرسلها مديري برادلي من مكتبه. هيلين، زوجتي، عندما كانت تعيش معي، كلما رأتني متجهًا إلى تلك الغرفة مع ساكسوفوني تضحك قائلة إنني أبدو كما لو أنني ذاهب إلى المرحاض. بل إنني أحيانًا كنت أشعر بنفسي هكذا. كما لو أنني جالس في ذلك المهجع القاتم الخالي من الهواء منشغلًا بأعمالي الشخصية التي لا يهتم لها أي شخص آخر.

لعلك خمنت الآن أن ليندي غاردنر لم تقم في جوار هذه الشقة التي أتحدث عنها. لم تكن واحدة من أولئك الجيران الذين يخبطون الباب كلما عزفت خارج مهجعي. عندما قلت إنها كانت جارتي، كان قصدي شيئًا آخر كليًا، وسأفسر كل شيء الآن.

إلى ما قبل يومين، كانت ليندي تقيم في الغرفة المجاورة هنا في هذا الفندق الفاخر، ومثلي تمامًا، كان وجهها مغطى بضمادات. تملك ليندي، بطبيعة الحال، منزلًا مريحًا كبيرًا وقريبًا، وقد وظَّفت من يساعدها، لذا سمح لها الدكتور بوريس بالعودة إلى المنزل. في الواقع، ومن وجهة نظر طبية خالصة، ربما أمكنها المغادرة قبل وقت أقرب من ذلك، لكن الواضح أن عوامل أخرى لعبت دورًا في تأخير عودتها. مثلًا، لن يكون سهلًا عليها أن تختبئ من الكاميرات وأعمدة الشائعات حين تكون في منزلها. أكثر من ذلك، فإن حدسي يقول إن سمعة الدكتور بوريس النجومية قائمة على أساليب ليست قانونية مئة في المئة، وهذا هو سبب إخفائه مرضاه هنا في هذا الطابق المكتوم من الفندق، بشكل معزول تمامًا عن سائر الموظفين العاديين والضيوف، مع تعليمات بعدم مغادرة غرفنا إلا للضرورة القصوى. ولو أمكنك أن ترى عبر تلك القماشة الرقيقة، لميزت في أسبوع واحد نجومًا يفوقون ما يمكن أن تراه خلال شهر واحد في فندق شاتو مارمون.

كيف أمكن إذن لشخص مثلي أن يوجد هنا وسط أولئك النجوم وأصحاب الملايين، بعد أن تغيرت ملامح وجهي على يد الرجل الأمهر في المدينة؟ أظن أن الأمر بدأ مع مديري، برادلي، الذي لم يكن عضوًا في رابطة الكبار هو نفسه، والذي لم يعد شبيهًا بجورج كلوني. لقد أتى على ذكر الأمر أول مرة قبل بضع سنوات، وبطريق النكتة، ثم أصبح أكثر جدية كل مرة يأتي فيها على ذكره. كل ما قاله، باختصار، هو إنني قبيح، وإن هذا ما يبقيني خارج نادي رابطة الكبار.

- «انظر إلى ماركوس لايتفوت»، قال. «انظر إلى كريس بوغوسكي. أو تارنتيني. هل يملك أي منهم صوتًا خاصًا به كما تفعل أنت؟ لا. هل لديهم الحنان الذي تتمتع به؟ رؤيتك؟ هل لديهم حتى نصف أسلوبك؟ لا. لكنهم يبدون على ما يرام من ناحية الشكل، لذا فإن الأبواب دومًا مفتوحة أمامهم».
- «ماذا عن بيلي فوغل؟»، قلت، «إنه قبيح كالجحيم وأحواله تسير على ما يرام».
- صحيح أن بيلي قبيح. لكنه مثير. إنه شخص سيئ وقبيح. أما أنت، يا ستيف، أنت... حسنًا، أنت مضجر، مجرد قبيح خاسر. النوع الخطأ من القبح. اسمع، هل فكرت يومًا في القيام بعمل بسيط؟ من الناحية الجراحية، أعني؟

عدت إلى البيت وكررت كلامه لهيلين وفي ظني أنها ستجده مضحكًا على غرار ما شعرت. طبعًا ضحكنا كثيرًا في البداية، منكِّتين على برادلي. لكن هيلين اقتربت مني بعد ذلك، لفَّت ذراعيها حولي، وأخبرتني بأنني، بالنسبة لها على الأقل، أكثر رجال الكون وسامة. ثم تراجعت خطوة إلى الوراء وابتعدت بهدوء، وحين سألتها إن كان ثمة خطب ما، قالت: «لا شيء». ثم قالت: «لربما، لربما يكون لدى برادلي وجهة نظر. ربما عليك التفكير في مسألة القيام بشيء قليل».

- «لا داعي لأن ترمقني بهذه النظرة»، صاحت. «فالجميع يفعل ذلك. وأنت لديك سبب مهني. رجل يريد أن يكون سائق سيارة فاخرة، يذهب ويشتري سيارة فاخرة. لا فرق في حالتك!».

غير أني في تلك المرحلة، لم أفكر في الأمر أبعد من ذلك، رغم أني كنت قد بدأت في تقبل فكرة أنني «قبيح خاسر»، لسبب واحد، وهو عدم امتلاكي المال. في الواقع، في اللحظة التي كانت فيها هيلين تتحدث عن السائق الفاخر، كنا ندين بتسعة آلاف وخمسمائة دولار. وهذا من سمات هيلين. فهي امرأة رائعة من نواح عديدة، لكنها تنسى دائمًا وضعنا المادي، وتبدأ في نسج أحلام توفر لها فرصًا جديدة لإنفاق المال. هكذا كانت هيلين بالضبط. وإذا وضعنا موضوع المال جانبًا، فإن انتقادي بتلك قسوة لم يرق لي. إنني لا أتقبل جيدًا هذا النوع من الأشياء. ذات مرة، وفي بداية علاقتنا، دعتني هيلين إلى ممارسة رياضة الجري برفقتها. كان صباحًا شتويًا منعشًا وباردًا، وأنا لم أكن شغوفًا بالجري البطيء، غير أني أخذت على حين غرة وكنت متلهفًا لإثارة إعجابها. فركضنا في أرجاء المنتزه، وكنت أبذل قصارى جهدي لأبقى مواكبًا لها، حين اصطدم حذائي بجسم بارز من الأرض. شعرت في قدمي بألم، لم يكن سيئًا للغاية، لكني حين خلعت حذائي وجوربي، رأيت ظفر إصبع قدمي الكبير وقد ارتفع من اللحم كما لو أنه يقدم تحية هتلرية، فأصبت بالغثيان وأغمي عليَّ. هكذا أنا. وكما ترى، فإنني لم يكن لدي جموح فيما يتعلق بجراحة الوجه. كما أن هناك بطبيعة الحال المبدأ الذي تقوم عليه الأشياء.

حسنًا، لقد أخبرتكم من قبل، فأنا لست شديد التمسك بالاستقامة فنيًّا. أستطيع اتباع أي ذوق أو أسلوب بغية تقاضي أجر ما. لكن هذا الاقتراح كان ضربًا آخر من الأوامر، وكنت لا أزال أحتفظ بشيء من عزة النفس. أما برادلي فكان محقًّا بشأن أمر واحد: لقد كنت موهوبًا بنسبة الضعف قياسًا بمعظم فناني هذه المدينة. لكن يبدو أن ذلك لم يعد له وزن كبير هذه الأيام لأن الأمر بات

يتعلق بالصورة، والقدرة على التسويق، والظهور على صفحات المجلات، وفي البرامج التلفزيونية، والحفلات، ونوع الأشخاص الذين تتناول الغداء معهم. كل ذلك ولَّد لديَّ شعورًا بالتقزز. إنني موسيقي، فلماذا يتوجب عليَّ إذن الانضمام إلى هذه اللعبة؟ لم لا ألعب موسيقاي بأفضل أسلوب أعرفه، وأعمل على تحسين أدائي، إن كان ذلك سيكون في مهجعي وحسب، وربما في يوم من الأيام، ربما سيسمعني عشاق حقيقيون للموسيقى، فيبدون تقديرهم لما أفعله. ما شأني وجِراحات التجميل؟

فكرت هيلين في الأمر بداية وفقًا لمنظوري، فلم تفتح الموضوع مجددًا لفترة من الوقت، إلى أن تلقيت منها اتصالًا هاتفيًا من سياتل قالت فيه إنها ستهجرني للانتقال إلى تلك المدينة مع كريس برندرغاست، وهو رجل تعود معرفتها به إلى أيام المدرسة الثانوية ويملك الآن سلسلة من المطاعم الناجحة في جميع أنحاء واشنطن. التقيت برندرغاست هذا عدة مرات على مر السنين - حتى أنه جاء إلى منزلنا لتناول العشاء مرة - لكنني لم أشك في أن يكون بينهما شيء. «كل عوازل الصوت في خزانتك الخاصة»، قال برادلي، «إنها تعمل في الاتجاهين». أظن أن وجهة نظره كانت صائبة.

غير أني لا أرغب في الحديث عن هيلين وبرندرغاست إلا في إطار تفسيري لدورهما في إيصالي إلى حيث أنا موجود الآن. قد يخيل إليك بأنني سافرت إلى الساحل، مستقلًا سيارة تلو أخرى، لمجابهة الزوجين السعيدين، وأنني اضطررت لإجراء جراحة تجميلية بعد افتعالي خناقة ذكورية مع منافسي. قد يبدو هذا التصور رومانسيًا، إلا أن هذا ليس ما حدث. فبعد بضعة أسابيع على اتصالها الهاتفي، رجعت هيلين إلى الشقة للاهتمام بنقل أغراضها. بدا أنها حزينة وهي تجول في المكان، ذلك أننا بغض النظر عن أي شيء نعمت حياتنا معًا ببعض اللحظات السعيدة. بقيت أفكر في أنها على وشك أن تجهش بالبكاء، إلا أن ذلك لم يحدث، بل تابعت جمع أشيائها في أكوام أنيقة. قالت إن شخصًا

ما سيأتي لاصطحابها خلال يوم أو يومين. وبينما كنت ذاهبًا إلى مهجعي، وآلة التينور في يدي، نظرت إليَّ قائلة بهدوء:

- ستيف، من فضلك، لا تذهب إلى ذلك المكان مرة أخرى. علينا التحدث.
- عم سنتحدث؟
- ستيف، بحق الله.

لذا أعدتُ الساكسوفون إلى علبته واتجهنا إلى مطبخنا الصغير جالسين إلى الطاولة وجهًا لوجه. ثم قالت لي كل شيء بصراحة.

ليس لديها نية في العودة عن قرارها، بل إنها سعيدة مع برندرغاست الذي ظلت تحمل له شعلة حب منذ المدرسة. غير أن فكرة هجرها لي جعلتها دومًا تشعر بسوء، خصوصًا في الوقت الذي لم تسر حياتي المهنية على ما يرام. لذا أعادت التفكير في الأمور وتحدثت مع رجلها الجديد الذي شعر مثلها تمامًا حيالي. كان ما قاله بوضوح هو: «سيئ للغاية أن يدفع ستيف ثمن سعادتنا». وهكذا كان الاتفاق. برندرغاست على استعداد لدفع تكاليف تحسين وجهي على يد أفضل جراح في المدينة. «هذا صحيح»، قالت، عندما رحت أحدِّق في وجهها بانشداه خال من أي تعبير. «إنه يعني ذلك. لا نفقات ستضطر إلى توفيرها. جميع فواتير المستشفى، الاستجمام، وكل شيء عدا ذلك. إضافة إلى أجر أفضل جراح في المدينة». وعندما يتم إصلاح وجهي لن تقف أية عقبة في طريقي، قالت. سأبلغ القمة مباشرة، كيف يمكن أن أفشل، بتلك الموهبة التي أملكها؟

- ستيف، لماذا تنظر إليَّ بهذه الطريقة؟ إنه عرض ممتاز. والله وحده يعلم ما إذا كان برندرغاست سيظل على استعداد لتقديمه لك في غضون ستة أشهر. وافق الآن وستكون قد أسديت لنفسك خدمة كبيرة. مجرد بضعة أسابيع من الشعور بالضيق، ثم «ووووش». ستصل إلى كوكب المشتري وما بعده!

بعد خمس عشرة دقيقة، وأثناء خروجها، قالت بنبرة أكثر حزمًا: «ما الذي قررته إذن؟ هل يسعدك العزف داخل تلك الخزانة الصغيرة لبقية حياتك؟ هل سيروق لك أن تكون هذا الخاسر الكبير؟». ثم غادرت وهي تردد الكلمات نفسها.

ذهبت في اليوم التالي إلى مكتب برادلي لمعرفة ما إذا كان لديه أي عرض لي، فأتيت على ذكر ما حدث بيني وبين هيلين، ظنًّا بأن الأمر سيثير ضحكنا، إلا أن برادلي لم يقهقه إطلاقًا.

- هل هو رجل ثري؟ وعلى استعداد للاتفاق مع أكبر جراح من أجلك؟ هذا يعني أنك قد تحظى بكريسبو. أو حتى بوريس.

والآن، ها هو برادلي أيضًا، وقد أخذ يقول لي إنَّ عليَّ اغتنام هذه الفرصة، وبأنني إذا لم أفعل فسأعيش بقية حياتي خاسرًا. غادرت مكتبه والغضب يتملكني، غير أنه اتصل في وقت لاحق بعد ظهر ذلك اليوم نفسه مكررًا ما أسمعني إياه. هل كان الاتصال هو ما يحول دون اتخاذي ذاك القرار، كما قال، فإذا كان الأمر يتعلق بالضربة التي سيتلقاها كبريائي وأنا أرفع سماعة الهاتف وأقول لهيلين: أريد من فضلك القيام بذلك، أرجوكِ اطلبي من صديقك أن يوقع الشيك الكبير، إذا كان هذا ما يحول دون إبداء موافقتي، فإن برادلي يسره أن ينوب عني لاجراء المفاوضات. قلت له بأن يذهب ويجد خازوقًا طويلًا يجلس عليه ويبقى معلقًا فوقه. لكنه هاتفني مجددًا بعد ساعة ليخبرني بأنه فهم لب الموضوع وبأنني سأكون أحمق إن لم أقم بذلك بنفسي.

- لقد حرصت هيلين وبعناية على تدبر هذه الخطة من أجلك. انظر إلى الأمر من وجهة نظرها. إنها تحبك. لكنها تتحلى بالحكمة. أنت تشعر بالإحراج عند ظهورك أمام الملأ. لكنك لا تعمل. وهي تريد منك القيام بشيء حيال ذلك، لكنك تأبى. ما العمل إذن؟ يمكنني القول إن خطوتها التالية بديعة. حاذقة على نحو تام. باعتباري مديرًا محترفًا،

ينبغي أن أبدي إعجابي بما فعلته. لقد غادرت مع ذلك الرجل. حسنًا، ربما كان لديها دائمًا مشاعر تجاهه، لكنها في الحقيقة لا تحبه على الإطلاق. لقد تقربت منه لتؤمن لك نفقات جراحة وجهك. بمجرد أن تشفى من العملية، ستعود إليك، فأنت ستبدو وسيمًا، وهي نهمة لجسدك، وهي تتحرَّق لكي تظهرا معًا في المطاعم...

أوقفته عند هذا الحد للإشارة إلى أنني اعتدت مع مرور السنوات على التعرف على الأعماق التي يمكن له الغوص إليها بهدف إقناعي بشيء يخدم مصلحته المهنية، لكن حيلته الأخيرة هذه هي في عمق حفرة عميقة لا يصلها ضوء بل إن خراء الحصان ليتجمد فيها خلال ثوان. وبالوقوف عند نقطة خراء الحصان، أخبرته بأنني فيما أفهم كيف أنه، وهذه طبيعته، يحرف الأشياء عن مسارها دائمًا، إلا أنها تبقى استراتيجية جيدة من جانبه لقراءة الأمر بهذه الطريقة بحيث يحظى بفرصة الاستحواذ عليَّ لدقيقة أو اثنتين. ثم أغلقت الخط في وجهه مرة أخرى.

بدا العمل على مدار الأسابيع القليلة اللاحقة أكثر ندرة من أي وقت مضى، وكنت كلما اتصلت ببرادلي لمعرفة ما إذا كان بحوزته عمل من أجلي قال شيئًا من قبيل «من الصعب مساعدة رجل لا يريد أن يساعد نفسه». في الأخير، بدأت أنظر إلى الأمر بأكمله من زاوية أكثر براغماتية. لم أستطع الابتعاد عن حقيقة أنني كنت في حاجة إلى تناول الطعام. وإذا حدث وقمت بالأمر غصبًا عني فيبقى معنى ذلك في نهاية المطاف أن أناسًا أكثر سيهتمون بموسيقاي. هل يعد هذا إذن نتيجة سيئة؟ وماذا عن خططي لتأليف فرقتي الخاصة ذات يوم؟ كيف يمكن أن يحدث هذا؟

في الأخير، بعد ستة أسابيع ربما على عرض هيلين، ذكرتُ لبرادلي وبشكل غير رسمي بأنني أعدت التفكير في الأمر من جديد. كان هذا كل ما أحتاجه ليباشر العمل، بين إجراء مكالمات هاتفية وترتيبات، صائحًا ومتحمسًا. ولإعطائه حقه، فقد كان صادقًا في كلامه، إذ اهتم بترتيب الإجراءات. لذا لم أضطر إلى

إجراء محادثة واحدة تحط من قدري مع هيلين، ناهيك عن برندرغاست. بل إن برادلي تمكن أحيانًا من ايهامي بأنه يفاوض على صفقة لي، وأن لدي شيئًا أستطيع عرضه للبيع. رغم ذلك، راودتني الشكوك أكثر من مرة في اليوم. وعندما حدث الأمر، كان مفاجئًا. اتصل بي برادلي ليقول إن الدكتور بوريس قد ألغى موعدًا في اللحظة الأخيرة وإني مضطر إلى الذهاب بنفسي إلى عنوان خاص في الساعة الثالثة والنصف بعد ظهر ذلك اليوم بحقائبي جاهزة. ربما راودني بعض من توتر اللحظة الأخيرة في تلك المرحلة، لأنني أتذكر برادلي صارخًا عليَّ في الهاتف لحثي على التماسك، وأنه آتٍ لاصطحابي بنفسه، لأجد نفسي بعدها في سيارة تسلك طرقًا متعرجة باتجاه منزل كبير في تلال هوليوود لأوضع فيه تحت التخدير، تمامًا مثل شخصية في قصة لريموند تشاندلر.

بعد بضعة أيام تم إحضاري إلى هنا، إلى فندق بيفرلي هيلز، عبر مدخل خلفي وتحت جنح الظلام، لأعبر الممر على عربة، حيث يتم إقصاؤنا بالكامل عن الحياة العادية للفندق.

عانيت في الأسبوع الأول آلامًا في وجهي، كما أن المخدر في جسمي ولَّد لدي شعورًا بالغثيان، فاضطررت إلى النوم متكئًا على بعض الوسائد، الأمر الذي كانت نتيجته أنني لم أحظ بنوم كافٍ إطلاقًا. ولأن ممرضتي أصرت على إبقاء الغرفة مظلمة طوال الوقت، فقد فقدت الإحساس بالزمن. مع ذلك، لم أشعر أنني في حال سيئة على الإطلاق. بل إنني في الحقيقة، شعرت ببهجة وتفاؤل. كما كان لدي ثقة تامة بالدكتور بوريس، وهو رجل وضع نجوم السينما مسيرتهم المهنية بين يديه. فوق ذلك، فقد علمت بأنه أنجز لي عملًا رائعًا. وبالنظر إلى وجهي البائس، فقد شعر بأن أعمق طموحاته تتحرك فيه، ما ذكره بسبب اختياره هذه المهنة في المقام الأول، مبرهنًا للجميع أهميتها القصوى. وحين أزال الضمادات، استطعت النظر إلى وجه منقوش من دون شوائب، وحشيٌّ غريب

قليلًا، لكنه مليء مع ذلك بالفوارق الدقيقة في تعابيره. بعد كل شيء، فإن رجلًا ذا سمعة كسمعته يتوجب عليه التفكير بعناية بما يتطلبه إنجاز ملامح موسيقي جاز جاد، وألا يخلط بينها وبين ملامح مذيع تلفزيوني. ولربما قد يكون أضاف شيئًا لمنحي شيئًا من نوعية مسكونة بالوساوس وغامضة، مثل «دي نيرو» في شبابه، أو «شيت بيكر» قبل أن تتلفه المخدرات. فكرت في الألبومات التي سأقدمها، والكورس الذي سأستخدمه لدعمي. شعرت بأنني منتصر ولم أصدق كيف ترددت في القيام بهذه الخطوة.

ثم كان الأسبوع الثاني، عندما انحسر تأثير الأدوية، وشعرت بالاكتئاب، وبأنني وحيد وبالٍ. فسمحت ممرضتي، غرايسي، بإدخال مزيد من الضوء إلى الغرفة - على الرغم من ابقائها الستائر نصف مغلقة على الأقل - كما سُمح لي بالمشي حول الغرفة في ثوب النوم. لذا رحت أضع قرصًا مدمجًا تلو الآخر في نظام صوتيات «بانغ أند أولوفسون» متنقلًا حول السجادة مرارًا وتكرارًا، متوقفًا بين الحين والآخر أمام مرآة منضدة الزينة لتفحص الوحش المغطى بالضمادات الذي يحدق فيَّ من ثقبين عند العينين.

خلال هذه المرحلة، أخبرتني غرايسي لأول مرة بأن ليندي غاردنر مقيمة في الجوار. لو انها ذكرت هذا الخبر في وقت مبكر، خلال شعوري بالبهجة، لكنت استقلبته بسرور، لكنت ربما اعتبرته مؤشرًا أول على نوع الحياة الكريمة التي أتجه إليها الآن. لكن عندما حدث ذلك، بالضبط لحظة سقوطي في تلك الحفرة، فإن هذا النبأ ملأني باشمئزاز وضعني في نوبة غثيان أخرى. إذا كنتَ واحدًا من معجبي ليندي الكثر فإنني أعتذر عما أقوله هنا. لكن الحقيقة كانت، في تلك اللحظة، تتلخص في أنه إذا كان ثمة شخصية تلخص لي كل ما هو ضحل ومثير للسخرية حول العالم، فهي ليندي غاردنر: شخصية بموهبة لا تذكر - حسنًا، فلنتحدث بصراحة، لقد أثبتت أن ليس بإمكانها التمثيل، وهي لا تدَّعي حتى امتلاكها لقدرات موسيقية، لكنها تحدت كل شيء لتصبح

شهيرة، فحاربت شبكات التلفزيون والمجلات البراقة التي لم تهتم كثيرًا بعرض ملامحها الباسمة. وفي وقت سابق من هذا العام، كنت قد ذهبتُ إلى متجر لبيع الكتب لأرى طابورًا يمتد في خط طويل، فتساءلت عما إذا كان شخص ما مثل ستيفن كينج هناك، قبل أن أتبين أن ليندي توقع نسخًا من أحدث سيرها الذاتية المكتوبة على يد مجهول. كيف أمكنها تحقيق كل ذلك؟ بأسلوبها المعتاد طبعًا. علاقات الحب المناسبة، الزيجات المناسبة، والطلاقات المناسبة. كل ما يمكن أن يفضي إلى أغلفة المجلات المناسبة، والبرامج الحوارية المناسبة، ثم برامج كالبرنامج الذي كانت تذيعه مؤخرًا على الهواء، لا أذكر اسمه، حيث قدمت فيه نصائح حول كيفية ارتداء الملابس لأول موعد غرامي بعد الطلاق، أو كيف تتصرفين إذا راودتك الشكوك في أن زوجك مثلي، وكل ذلك. يحدث أن تسمع أشخاصًا يتحدثون عن «جودة النجوم»، لكن ذكر الأمر وحسب كفيل لتدرك طبيعته وأبعاده. ثم تراكم الظهور التلفزيوني المتكرر والأغلفة اللماعة، وكل تلك الصور التي يمكن لك رؤيتها والملتقطة خلال العروض الأولى والحفلات، وذراعها مشبوكة بأذرع أشخاص أسطوريين. والآن ها هي ذا، في الغرفة المجاورة، تنتظر أن تتعافى، مثلي تمامًا من عملية في وجهها أجراها الدكتور بوريس. لا خبر بعد هذا الخبر، يمكن أن يرمز بدرجة أوضح إلى حجم انحداري الروحي. ففي الأسبوع الماضي، كنت موسيقار جاز. والآن بت مجرد مخادع آخر مثير للشفقة، تم تعديل وجهه في محاولة للزحف خلف كل الذين يشبهون ليندي غاردنر في عالم الشهرة هذا والفحش.

حاولت خلال الأيام القليلة التالية أن أمضي الوقت في القراءة، لكنني كنت عاجزًا عن التركيز. كانت بعض مواضع وجهي، تحت الضمادات، تخفق بألم رهيب، وأخرى تسبب لي الحكَّة، كما انتابتني نوبات من الشعور بالسخونة ورهاب الاحتجاز. كنت أتوق إلى العزف على آلة الساكسوفون، ولأن الأمر سيستغرق أسابيع، قبل أن أتمكن من تعريض عضلات وجهي لذلك الضغط،

شعرت باليأس. وفي النهاية، تمكنت من إيجاد أفضل طريقة لمواصلة يومي بالاستماع بدلًا من ذلك إلى قرص مدمج مع قراءة أوراق النوتات بالنظر - فقد أحضرت ملف الأوراق المسطَّرة وأوراق الترميز الموسيقي التي عملت عليها في مهجعي - مهمهمًا بارتجالات لنفسي.

كنا قد اقتربنا من نهاية الأسبوع الثاني حين بدأت أشعر بأني أفضل جسديًّا وذهنيًّا، وسلمتني الممرضة مظروفًا بابتسامة عريضة، قائلة: «هذا ليس شيئًا يحدث معك كل يوم». كان في الداخل ورقة من دفتر الملاحظات الذي يقدمه الفندق للنزلاء، وبما أنها هنا الآن بجانبي فسأقرأها كما وصلتني.

أخبرتني غرايسي بأنك سئمت من أسلوب الحياة الراقية هذه. أنا أيضًا مثلك. ما رأيك في أن تأتي لزيارتي إذا كنت لا تعتبر الخامسة مساء وقتًا مبكرًا للكوكتيلات؟ يقول الدكتور ب. من دون كحول، وأفترض أن الأمر نفسه بالنسبة إليك. لذا يبدو المكان مثل نادٍ لمشروبات الصودا والبيريه. اللعنة عليه! إما أن أراك في الخامسة أو سأكون محطمة الفؤاد. ليندي غاردنر.

ربما كان سبب ذلك شعوري بالملل في تلك المرحلة، أو لأن مزاجي تحسن من جديد، أو أن فكرة وجود زميل محبوس مثلي أتبادل معه الحكايات بدت جذابة للغاية. أو ربما لم أكن محصنًا كفاية ضد فتنة كتلك. على أية حال، وعلى الرغم من كل شيء وما كنت أشعر به حيال ليندي غاردنر، فإنني حين قرأت رسالتها أحسست بوخز إثارة لطيف. لأخبر غرايسي بأن تقول لليندي بأنني سأكون عندها في الخامسة.

كان وجه ليندي غاردنر مغطى بضمادات أكثر مما لدي. فأنا على الأقل تركت لدي فتحة في الرأس، ما جعل شعري يطلع منها مثل أشجار النخيل في واحة صحراوية. أما رأس ليندي فقد غطاه بوريس بالكامل. لذلك كان شكله كجوزة هند مؤطرة بخطٍّ كفافيٍّ، مع فتحات للعينين والأنف والفم. ماذا حدث لكل ذلك

الشعر الأشقر الوافر والمترف؟ ليس لدي أي علم. ومع ذلك، فإن صوتها لم يكن محاصرًا كما يمكن أن يتوقع المرء، إذ ميزته لمشاهدتي لها في التلفزيون.

- «إذن، ما رأيك في كل هذا؟»، سألت. وعندما أجبت بأنني لا أجد الأمر سيئًا للغاية، قالت: «ستيف. هل يمكنني مناداتك بستيف؟ لقد سمعت كل شيء عنك من غرايسي».
- أوه؟ آمل أن تكون قد استثنت الجزء السيئ.
- حسنًا، أعرف أنك موسيقي. بل وموسيقي واعد أيضًا.
- هل قالت لك ذلك؟
- ستيف، أنت متوتر. أريدك أن تسترخي وأنت معي. بعض الناس ذوي الشهرة، وأعرف ذلك، يحبون أن يكون الجمهور متوترًا حولهم. يجعلهم ذلك يشعرون بأنهم أكثر تميزًا. لكني أكره ذلك. وأريدك أن تعاملني كما لو أنني واحدة من أصدقائك العاديين. ما الذي كنت تقوله؟ كنت تقول بأنك لا تمانع في هذا كثيرًا.

كانت غرفتها أكبر بكثير من نظيراتها، وأنا أتحدث فقط عن صالون جناحها. كنا جالسين قبالة بعضنا البعض على أرائك بيضاء متطابقة، وبيننا طاولة قهوة منخفضة صنعت من زجاج مدخَّن استطعتُ من خلالها أن أرى بأنه مسنود بكتلة كبيرة من الخشب الذي تجده يطفو على الشاطئ. كان سطحها مغطى بالمجلات البراقة وهناك سلة فاكهة لا تزال في السيلوفان. أما مكيف الهواء لديها فكان، على غرار غرفتي، مضبوطًا على مستوى عال - إذ أن المرء يشعر بالحر في الضمادات - وقد أسدلت الستائر لتحجب النوافذ ضد شمس المساء. كانت الخادمة قد أحضرت لي كوبًا من الماء وقهوة، بقشة في كل منهما، وهي الطريقة التي يجب أن يقدم بها كل شيء هنا - ثم غادرت الغرفة.

وردًّا على سؤالها، أخبرتها أن الجزء الأكثر قسوة بالنسبة لي لم يكن في عدم قدرتي على عزف آلة الساكس الخاصة بي.

- «لكن يمكنك أن ترى لم لا يسمح لك بوريس بذلك»، قالت، «تخيَّل فقط أنك قررت أن تنفخ في ذلك القرن قبل يوم واحد فقط من جهوزيتك لذلك، ستنتشر أجزاء من وجهك في جميع أنحاء الغرفة!».

بدت كأنها تجد الأمر مثيرًا للضحك، ملوحةً بيدها تجاهي، كما لو أنني من تفوه بالملاحظة البارعة وهي من يقول: «توقف، أنت شيء لا يُصَدَّق!». ضحكت معها، ورشفت بعض القهوة بالقشة، ثم بدأتْ في الحديث عن أصدقاء كثر خضعوا للجراحة التجميلية مؤخرًا، والأشياء المضحكة التي حدثت معهم. كل شخص ذكرته كان من المشاهير أو من المتزوجين بأحد منهم.

- «أنت عازف ساكس»، قالت، لتغير الموضوع فجأة. «لقد اتخذت خيارًا جيدًا. إنها آلة رائعة. هل تعرف ما الذي أقوله لجميع عازفي الساكس الشبان؟ أقول لهم بأن يصغوا إلى المحترفين من الجيل القديم. كنت أعرف عازف ساكس، صاعدًا مثلك، لم يكن يستمع إلا إلى أولئك العازفين الطليعيين. واين شورتر وأناس على شاكلته. قلت له ستتعلم أكثر من المحترفين السابقين. قلت له، لربما ليسوا روادًا، لكن أولئك المحترفين عرفوا كيف يفعلون ذلك. ستيف، هل تمانع لو شغلتُ مقطوعة؟ لأوضح لك بالضبط ما أتحدث عنه؟».
- لا، لا مانع لدي. لكن سيدة غاردنر...
- رجاء. نادني ليندي. فنحن متساويان هنا.
- حسنًا ليندي. ما أردت قوله فقط هو أنني لست صغيرًا جدًّا. في الواقع، سأبلغ التاسعة والثلاثين في عيد ميلادي القادم.
- حقًّا؟ حسنًا، لا تزال صغيرًا في السن. لكنك على حق، ظننت أنك أصغر سنًّا. ومع هذه الأقنعة الأنيقة التي منحنا إياها بوريس، يصعب تحديد الأمر، أليس كذلك؟ بحسب ما قالته غرايسي، اعتقدت أنك

ذلك الشاب الصاعد، وأن والديك قد يكونان من تكلف بمصاريف هذه الجراحة لمنحك انطلاقة صاروخية. إنني آسفة، هذا خطئي.

- هل قالت غرايسي إنني صاعد؟
- لا تكن فظًّا تجاهها. قالت إنك موسيقي لذا سألتها ما اسمك. وعندما قالت لي ذلك أدركت أنني لست على دراية به، قالت: «هذا لأنه صاعد». هذا كل ما في الأمر. لكن اسمع، ما أهمية كم يكون عمرك؟ يمكنك دومًا التعلم من عازفي الجيل القديم. أريدك أن تستمع إلى هذا. أعتقد أنك ستجده مثيرًا للاهتمام.

ذهبت إلى الخزانة، وبعد لحظة كان في يدها قرص مدمج. «سوف تقدر هذا. الساكس فيه مثالي للغاية». كانت غرفتها تحتوي على نظام بانغ أند أولوفسون تمامًا كنظامي، وسرعان ما امتلأ المكان بأصوات أوتار شهوانية. وبعد قليل، اخترق التينور بن تينستيري الناعس الأجواء، ليشرع في قيادة الأوركسترا. إن لم تكن على معرفة كبيرة بهذه الأشياء، فلربما قد تخطئ وتظنها إحدى مقدمات «نلسون ريدل» لسيناترا. لكن الصوت الذي تبع في نهاية المطاف كان لطوني غاردنر. كانت الأغنية - التي تذكرتُها وحسب - شيئًا يسمى «Back to Culver City»، وهي أغنية لم تلق نجاحًا قط، ولم يعد أحد يشغِّلها كثيرًا. طوال وقت غناء طوني غاردنر، رافقه الساكس، وهو كان يرد عليه سطرًا سطرًا. كان كل شيء قابلًا للتنبؤ إلى أقصى حد، وبطريقة معسولة للغاية.

بعد فترة من الوقت، لم أعد أستطيع التركيز على الموسيقى بسبب وجود ليندي أمامي التي دخلتْ في نوع من الحلم، راقصة ببطء على أنغام الأغنية. كانت حركاتها سهلة ورشيقة - وبدا واضحًا أن الجراحة لم تمتد إلى جسدها - فهي تمتعت بجسم رشيق ونحيل. كانت ترتدي شيئًا كروب النوم، فستان كوكتيل نوعًا ما. وهذا يعني أنه كان في الوقت نفسه طبيًّا، بشكل غامض، ولكن ساحر. كنت أحاول كذلك استيعاب شيء ما. فقد تكوَّن لديَّ انطباع واضح بأن ليندي

طلقت مؤخرًا طوني غاردنر، لكن نظرًا لأني أسوأ شخص في البلاد عندما يتعلق الأمر بنميمة عالم النجوم، بدأت أفكر بأنني ربما أكون مخطئًا. وإلا لم سترقص بهذه الطريقة، تائهة في الموسيقى، ومستمتعة؟

توقف طوني غاردنر عن الغناء للحظة، وعلت نغمات الأوتار في الشطر الموسيقي للانتقال إلى الدور التالي، ليبدأ عازف البيانو بلعب صولو. في هذه المرحلة، بدا أن ليندي عادت إلى هذا الكوكب. توقفت عن التمايل، وأوقفت الموسيقى بجهاز التحكم عن بعد، ثم اقتربت وجلست أمامي.

- أليس هذا رائعًا؟ رأيت ما أقصده؟
- «نعم، لقد كان ذلك جميلًا»، قلت من دون أن أكون متأكدًا ما إذا كنا نتحدث عن الساكس فقط.
- أذناك لم تخدعاك بالمناسبة.
- عفوًا؟
- المغني. لقد كان من اعتقدته. لمجرد أنه لم يعد زوجي هذا لا يعني أنني لا أستطيع تشغيل ألبوماته، أليس كذلك؟
- لا، طبعًا لا.
- وكان ذلك ساكسفونًا جميلًا. انت ترى الآن لماذا أريدك أن تستمع إليه.
- نعم، لقد كان بالفعل جميلًا.
- ستيف، هل ثمة تسجيلات لك في مكان ما؟ أعني، عزفك؟
- بالتأكيد. في الحقيقة معي بضعة أقراص مدمجة في الغرفة المجاورة.
- حين تأتي في المرة القادمة يا حلو، أريدك أن تحضرها. أريد سماع عزفك. هل ستفعل ذلك؟
- حسنًا، إذا لم يكن ذلك يصيبك بالملل.

- أوه لا، لن يصيبني بالملل. لكن آمل ألا تظن بأنني فضولية. اعتاد طوني دومًا قول إنني فضولية، وإنني يجب أن أترك الناس وشأنهم. لكن كما تعلم، أعتقد أنه كان شخصًا متكبرًا. الكثير من الأشخاص المشهورين يعتقدون أنهم يجب أن يختلطوا فقط بأشخاص آخرين مشهورين. لم أفكر أبدًا بهذه الطريقة. إنني أرى في الجميع أصدقاء محتملين. خذ غرايسي. إنها صديقتي. وجميع الموظفين التابعين لي في المنزل، هم أيضًا أصدقائي. يجب أن تراني في الحفلات. كل الأشخاص الآخرين تراهم يتحادثون عن أحدث أفلامهم أو شيء من هذا القبيل، وأنا الشخص الوحيد الذي يجري محادثة مع الفتاة التي تقدم الطعام أو عامل البار. لا أعتقد أن هذا يعد سلوكًا فضوليًا، أليس كذلك؟
- لا، لا أعتقد أن هذا فضولي على الإطلاق. لكن يا سيدة غاردنر...
- ليندي، من فضلك.
- ليندي. لقد كان رائعًا الجلوس معك. لكن هذه الأدوية، إنها ترهقني بحق. أعتقد أنني مضطر إلى الاستلقاء لبعض الوقت.
- أوه، هل تشعر بأنك لست على ما يرام؟
- إنه ليس أمرًا مهمًا. فقط تأثير الأدوية.
- هذا سيئ للغاية! عليك العودة عندما تشعر بتحسن، وأحضر معك تلك التسجيلات، تلك التي تعزف فيها. اتفقنا؟

اضطررت إلى التأكيد من جديد بأنني أمضيت وقتًا طيبًا برفقتها وبأنني سأعود لزيارتها. ثم وبينما كنت أخرج من الباب، قالت:

- ستيف، هل تلعب الشطرنج؟ إنني أسوأ لاعبة شطرنج في العالم، لكني حصلت على أحلى طاولة شطرنج. ميغ رايان أحضرتها لي في الأسبوع الماضي.

بعد أن عدت إلى غرفتي، تناولت كوكاكولا من الميني بار، وجلست إلى مكتب الكتابة ونظرت من نافذتي. كان غروب الشمس خلابًا وبلون زهري. ولئن كان الفندق على قارعة طريق طويل، فقد رحت أرى السيارات في انتقالها على طول الطريق السريع عبر المسافة. بعد بضع دقائق هاتفت برادلي، ورغم أن سكرتيرته ابقتني منتظرًا لفترة طويلة، إلا أنه أجاب أخيرًا.

- «كيف حال الوجه؟» سأل بقلق، كما لو أنه يتساءل عن حيوانه الأليف والمحبوب والمتروك في رعايتي.
- كيف لي أن أعرف؟ فأنا ما زلت رجلًا غير مرئي.
- هل أنت بخير؟ تبدو... مختلفًا.
- إنني مختلف. الأمر كله كان خطأ. أستطيع أن أرى ذلك الآن. لن يجدي نفعًا.

سادت لحظة من الصمت، قبل أن يسأل: «هل فشلت العملية؟».

- إنني على ثقة من أن العملية جرت على ما يرام. عنيت بقية الأمر، وما الذي سيفضي إليه ذلك. هذا المخطط... لن يحدث أبدًا بالشكل الذي تطرقت إليه. لم يكن ينبغي لي أن أسمح لك بمناقشته معي.
- ما خطبك؟ تبدو مكتئبًا. ما الذي يضخونه في دمك؟
- إنني بخير. الحقيقة أن رأسي أكثر استقامة مما كان عليه منذ فترة طويلة. هذه هي المشكلة. يمكنني أن أراها الآن. مخططك... لم يكن يجدر بي الاستماع إليك أبدًا.
- ما الذي تتحدث عنه؟ أي مخطط؟ انظر يا ستيف، الأمر ليس معقدًا إلى هذا الحد. أنت فنان موهوب للغاية. وبعد أن تمر بهذا، كل ما عليك فعله هو ما كنت تفعله دائمًا. أنت تقوم الآن فقط بازالة عقبة، هذا كل شيء. لا يوجد مخطط...
- اسمع يا برادلي، الأمور سيئة هنا. الأمر لا يتعلق فقط بعدم شعوري

بالراحة بدنيًا. إنني أدرك الآن ما الذي فعلته بنفسي. لقد كان خطأ، كان يجب أن أظهر لنفسي احترامًا أكبر.

- ستيف، ما الذي أثار كل هذا؟ هل حدث شيء معك هناك؟
- حدث شيء لعين حقًّا. لهذا السبب اتصلت بك، أريدك أن تخرجني من هنا. أريدك أن تنقلني إلى فندق آخر.
- فندق آخر؟ من تظن نفسك؟ ولي العهد عبد الله؟ ما الخطب في هذا الفندق؟
- الخطب هو أن ليندي غاردنر تقطن الغرفة المجاورة لغرفتي. وقد دعتني للتو لزيارتها، وسوف تدعوني من جديد. هذا هو الخطب!
- ليندي غاردنر في الغرفة المجاورة؟
- انظر، لا أستطيع احتمال ذلك مرة أخرى. لقد كنت هناك، وفعلت كل ما في وسعي للبقاء أطول وقت ممكن. وها هي الآن تقول إننا يجب أن نلعب بطاولة شطرنج ميغ رايان...
- ستيف، هل ما تقوله لي إن ليندي غاردنر في الغرفة المجاورة؟ وإنك أمضيت وقتًا معها؟
- لقد شغلت إحدى أغنيات زوجها! اللعنة، أعتقد أنها شغلت أغنية أخرى في هذه اللحظة. هذا ما جئت من أجله. هذا هو مستواي الآن.
- ستيف، اهدأ، ودعنا نراجع هذا مجددًا. ستيف، اصمت وحسب، ثم اشرح الأمر لي. اشرح لي ما حدث لتمضي وقتًا برفقة ليندي غاردنر.

هدأت بعدها لبعض الوقت، ثم عرضت له بشكل موجز كيف طلبتني ليندي، والطريقة التي سارت بها الأمور.

مكتبة

- «إذن لم تكن فظًّا معها؟»، سألني ما إن انتهيت.
- لا، لم أكن فظًّا معها. لقد أمسكت نفسي. لكنني لن أعود لزيارتها. وأحتاج إلى تغيير الفندق.

- ستيف، أنت لن تغير الفندق. ليندي غاردنر؟ إنها ملفوفة بالضمادات، وأنت بالضمادات. وهي في الغرفة المجاورة ستيف، هذه فرصة ذهبية.
- لا شيء من هذا القبيل، برادلي. إنها دائرة الجحيم الداخلية. وطاولة شطرنج ميغ رايان، ما هذا بحق الله!؟
- طاولة ميغ رايان للشطرنج؟ كيف يكون هذا؟ هل يعني أن كل قطعة تشبه ميغ؟
- بل وتريد سماع عزفي! إنها مصرة على أن آخذ الأقراص المدمجة معي في المرة القادمة!
- إنها تريد... بحق يسوع، ستيف، أنت لم تزل بالضمادات بعد، وها كل شيء يتيسَّر لك. وهي تريد سماعك تعزف؟
- إنني أطلب منك معالجة هذا الوضع برادلي. حسنًا، إنني في مأزق، أجريتُ الجراحة، وأنت من تحدث معي في الأمر، لأنني كنت أحمق بما يكفي لأصدق ما قلته. لكن ليس عليَّ تحمل هذا. ليس عليَّ قضاء الأسبوعين المقبلين مع ليندي غاردنر. إنني أطلب منك نقلي على جناح السرعة!
- لن أنقلك إلى أي مكان. هل تدرك مدى أهمية شخص مثل ليندي غاردنر؟ هل تعرف نوع الأشخاص الذين تتعامل معهم؟ وما الذي يمكنها فعله من أجلك في مكالمة هاتفية واحدة؟ حسنًا، لقد انفصلت عن طوني غاردنر الآن. لكن هذا لا يغير شيئًا. ضمها إلى فريقك، واحظَ بوجهك الجديد، وستشرع الأبواب أمامك. إنه رابطة كبيرة، وكل شيء يحدث بفرقعة إصبع.
- لن انضم الى أية رابطة كبيرة، برادلي، فأنا لست ذاهبًا إليها مرة أخرى، وأنا لا أريد أن تشرع أمامي أي أبواب عدا تلك التي ستنفتح بسبب

موسيقاي. إنني لا أصدق ما قلته من قبل، ولا أعتقد بالهراء المتعلق بهذا المخطط...

- لا أظن أن عليك ان تكون حاسمًا هكذا في التعبير عن نفسك. إنني قلق للغاية بشأن تلك الغرز...
- برادلي، لن يكون عليك أن تقلق عما قريب بشأن غرزي على الإطلاق، هل تعلم لم؟ لأنني سأنتزع قناع المومياء هذا وأضع أصابعي في زوايا فمي وأجذب بعنف وجهي لأمططه بكل طريقة ممكنة! هل تسمعني يا برادلي؟

سمعته يتنهد. ثم قال: «حسنًا، هدئ من روعك. اهدأ وحسب. لقد تعرضت لتوتر كبير مؤخرًا. وهو أمر مفهوم. إذا كنت لا ترغب في رؤية ليندي الآن، وتريد السماح للذهب بأن يمر من أمامك، حسنًا، أتفهم موقفك. لكن كن مهذبًا، حسنًا؟ جِدْ عذرًا جيدًا لكن لا تحرق أي جسور».

شعرت بتحسن كبير بعد حديثي مع برادلي، وحظيت بأمسية مريحة إلى حد معقول. شاهدت نصف فيلم، ثم استمعت إلى بيل إيفانز. في صباح اليوم التالي وبعد وجبة الإفطار، جاء الدكتور بوريس مع اثنتين من الممرضات لإلقاء نظرة عليَّ، وبدا راضيًا ثم غادر. بعدها بقليل، في حوالي الحادية عشرة، كان لديَّ زائر - عازف طبول يدعى لي، وكنت قد لعبتُ معه في فرقة منزلية في سان دييغو قبل بضع سنوات. برادلي، الذي كان أيضًا مديرًا للي، هو من اقترح عليه القدوم لزيارتي.

لي شخص لطيف، وكنت سعيدًا برؤيته. مكث لمدة ساعة أو نحو ذلك، وتبادلنا أخبار الأصدقاء المشتركين الذين كانوا أعضاء في الفرقة قبل أن يوضبوا حقائبهم متجهين إلى كندا أو أوروبا.

- «سيئ للغاية ألا يعود كثيرون ممن كانوا في الفرقة القديمة موجودين بعد الآن»، قال لي، «تمضي أوقاتًا رائعة معهم، ثم في اليوم التالي لا تعود تعرف أين هم».

أخبرني عن حفلاته الأخيرة، وضحكنا على بعض ذكريات أيام سان دييغو. ثم في نهاية زيارته، قال:

- وماذا عن جايك مارفيل؟ ما رأيك في ذلك؟ عالم غريب، أليس كذلك؟
- «إنه لأمر غريب تمامًا»، قلت له، «لكن لطالما كان جايك موسيقيًّا جيدًا. إنه يستحق ما يحدث له».
- نعم، لكنه يبقى أمرًا غريبًا. هل تذكر كيف كان جايك في ذلك الوقت؟ في سان دييغو؟ ستيف، كان بإمكانك الإطاحة به على المسرح كل ليلة خلال الأسبوع. والآن انظر اليه. هل هذا مجرد حظ أم ماذا؟.
- «لطالما كان جايك شابًّا لطيفًا»، قلت، «وبرأيي، من الجيد رؤية عازف ساكس ينال الاعتراف».
- «الاعتراف إذن»، قال لي، «وهنا في هذا الفندق أيضًا. دعني أرى، لقد فهمت الأمر»، قال. ثم أخذ يفتش في حقيبته ليسحب نسخة ممزقة من لوس أنجيلوس الأسبوعية. «نعم، إنه هنا. جوائز سيمون وويسبري للموسيقى. موسيقى الجاز لهذا العام. جايك مارفيل. لنرَ، عمَّ نالها هذا الوغد؟ وغدًا سيكون في قاعة الاحتفالات. يمكنك النزول سيرًا على الأقدام على ذلك الدرج لحضور الحفل». وضع الصحيفة وهز رأسه. «جايك مارفيل. موسيقيُّ الجاز لهذا العام. من يتخيل ذلك، أليس كذلك، يا ستيف؟».
- «لا أظن بأنني سأنزل الأدراج إلى الطابق السفلي»، قلت، «لكنني سأتذكر أن أرفع كأسي له».
- جايك مارفيل. هل أصبح العالم مختلًّا أم ماذا؟

بعد ساعة تقريبًا على تناول الغداء، رن جرس الهاتف وكانت ليندي على الخط.

- «لقد جهزت طاولة الشطرنج، يا حلو»، قالت، «هل أنت مستعد للعب؟ لا تقل لا، سأجن من الملل هنا. لا تنسَ إحضار الأقراص المدمجة. إنني أتوق حد الموت لسماع عزفك».

وضعتُ سماعة الهاتف، ثم جلست على حافة السرير محاولًا أن أعرف ماذا حدث لكيلا أصون نفسي بشكل أفضل. الواقع أنني لم أشر حتى تلميحًا بـ«لا». ربما كان الأمر يتعلق بضعف شخصيتي. أو ربما أكون قد حملت على عاتقي الكثير من حجج برادلي على الهاتف، بل وفوق ما يمكن لي الاعتراف به. غير أنه لم يكن هناك الآن متسع من الوقت للتفكير في الأمر، إذ تحتم عليَّ أن أقرر أي أقراص مدمجة ستثير إعجابها على الأرجح. أكثر مؤلفاتي الطليعية كانت طبعًا مستثناة، كما المؤلفات التي سجلتها مع عازفي الإلكترو- فانك في سان فرانسيسكو العام الماضي. في النهاية، اخترت فقط قرصًا واحدًا، وارتديت قميصًا نظيفًا، واضعًا روبًا فوقه، واتجهت إلى باب الغرفة المجاورة.

هي أيضًا كانت ترتدي روبًا، إلا أنه كان من النوع الذي يمكن لها ارتداؤه لعرض افتتاح فيلم من دون حرج كبير. ولا شك طبعًا أن أحجار الشطرنج كانت مرصوفة على الطاولة الزجاجية المنخفضة، فجلسنا مواجهين لبعضنا كما من قبل وبدأنا اللعبة. ولأنه كان لدينا شيء لفعله بأيدينا، فإن الجو بدا أكثر استرخاء قياسًا إلى المرة الأخيرة. وفيما رحنا نلعب، وجدنا أنفسنا نتحدث عن هذا وذاك: البرامج التلفزيونية، والمدن الأوروبية المفضلة لديها، والطعام الصيني. كان هناك هذه المرة ذكر أقل بكثير لأسماء المشاهير بغرض التباهي، وبدا الأمر أكثر هدوءًا. وعند لحظة محددة، قالت:

- هل تعرف ما الذي أفعله لأمنع نفسي من أن أجن في هذا المكان؟ سري الكبير؟ سأخبرك، لكن لا تفه بكلمة لأحد، ولا حتى لغرايسي، وعد؟ ما أفعله هو الخروج والتمشي منتصف الليل. داخل هذا المبنى فقط، لكنه واسع للغاية بحيث يمكنك التجول فيه إلى ما تشاء. وفي ظلمة الليل،

يكون الأمر رائعًا. الليلة الفائتة تمشيت ربما لساعة كاملة؟ يجب أن تكون حذرًا، لأن ثمة موظفين يتجولون طوال الوقت، لكن أحدًا لم يلقِ القبض عليَّ. كنت إذا ما سمعتُ أقل حركة أهرب للاختباء في مكان ما. مرة رآني عمال النظافة لثانية واحدة، لكني وبلمح البصر تواريت في الظل! الأمر مثير للغاية، إذ أنك محبوس طوال اليوم، ثم يصبح الأمر فجأة كما لو أنك أصبحت حرًّا تمامًا. أمر رائع بحق. سأصطحبك معي ذات ليلة يا حلو. سأريك أشياء عظيمة. الحانات والمطاعم وقاعات المؤتمرات. وهناك قاعة احتفالات رائعة. لا أحد هناك، بل إن كل شيء مظلم وفارغ. كما اكتشفت المكان الأكثر روعة، وهو نوع من شقة فوق السطح، أعتقد أنه سيصبح جناحًا رئاسيًّا؟ إنهم في منتصف عملية بنائه، لكني وجدته وكنت قادرة على التجوال داخله، بل مكثت هناك عشرين دقيقة، نصف ساعة، أفكر بعمق في أمور شتى. مهلًا، ستيف، هل هذه الحركة صحيحة؟ أيمكنني القيام بها للإطاحة بملكتك؟

- أجل أعتقد ذلك. لم أرَ الحركة. مهلًا، ليندي، أنت أكثر ذكاء في هذا من أن تفصحي عن الأمر. والآن ماذا يفترض بي أن أفعل؟

- حسنًا، سأقول لك أمرًا. نظرًا لأنك ضيفي، ومن الواضح أنك تشتتَ بسبب ما كنت أقوله لك، فسوف أتظاهر بأنني لم أر ذلك قط. أليس هذا لطيفًا مني؟ أخبرني يا ستيف، لا أتذكر إذا ما كنت قد سألتك عن هذا من قبل. أنت متزوج، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.

- ما رأيها في كل هذا؟ أعني، تكاليفه ليست رخيصة. كان يمكنها شراء بضعة أزواج من الأحذية بهذا المال.

- لا مشكلة لديها حول هذا الموضوع. في الواقع، لقد كانت هذه فكرتها في المقام الأول. انظري من أصبح مشتتًا الآن.

- يا للجحيم. إنني لاعبة رديئة على أية حال. قل لي، ولا أقصد أن أكون فضولية، هل تزورك كثيرًا؟
- في الواقع لم تأتِ إلى هنا إطلاقًا. لكنَّنا كنا دومًا متفاهمين حول هذه المسألة قبل مجيئي إلى هنا.
- حقًّا؟

بدت حائرة لذا قلت: «قد يبدو غريبًا، أعرف، لكنَّنا أردنا القيام بالأمر بهذه الطريقة».

- «حقًّا»، ثم بعد بعض الوقت، قالت: «هل يعني ذلك أن لا أحد يزورك هنا؟».
- لدي زوار. الحقيقة أن أحدهم تواصل معي هذا الصباح. موسيقي عملت معه.
- آه نعم؟ هذا جيد. أنت تعرف يا حلو، لم أكن متأكدة من كيفية تحريك هؤلاء الفرسان. إذا رأيتني أقوم بحركة خاطئة، قل لي فقط، حسنًا؟ لا أحاول خداعك.
- «طبعًا». ثم قلت: «الرجل الذي جاء لرؤيتي اليوم، أطلعني على بعض الأخبار. كانت من النوع الغريب. صدفة».
- حقًّا؟
- هناك عازف ساكسِفون تعرفنا إليه معًا قبل بضع سنوات، في سان دييغو، رجل يدعى جايك مارفيل. ربما سمعتِ عنه. إنه الآن في رابطة الكبار. لكنه في ذلك الوقت، عندما تعرفنا إليه، كان نكرة. في الواقع، كان مدعيًا. ممن قد تصفينهم بالمخادعين. لم يكن على معرفة سليمة بمفاتيح الموسيقى. وقد سمعته مؤخرًا، مرات كثيرة، ولم يحدث أي تحسن في أدائه. لكنه عمل بعض الخروقات ويعتبر الآن نجمًا. أقسم لك بأنه ليس أفضل مما اعتاد أن يكون عليه، ولا حتى بنسبة ضئيلة.

هل تعلمين عمَّ كان الخبر؟ أن هذا الشخص نفسه، جايك مارفيل، سيمنح جائزة موسيقية كبيرة غدًا هنا في هذا الفندق، بصفته موسيقيَّ الجاز لهذا العام. هذا محض جنون، أتعلمين؟ هناك الكثير من عازفي الساكس الموهوبين، ثم يقررون منح الجائزة لجايك.

كبحت نفسي، ورفعت ناظري عن لوحة الشطرنج، مفتعلًا بعض الضحك. «ماذا يمكنك أن تفعلي؟» قلت، بلطف أكبر.

كانت ليندي تجلس، صابَّةً انتباهها بالكامل عليَّ. «هذا سيئ للغاية. وهذا الرجل، إنه ليس عازفًا ماهرًا، قلت لي؟».

- آسف، لقد تجاوزت الحدود. إذا كانوا يريدون منح جايك جائزة، فما المانع؟
- لكن إذا كان غير ماهر...
- إنه بمهارة العازف الذي سيجيء من بعده. كنت أثرثر وحسب. انني آسف، عليك أن تتجاهليني.
- «هذا يذكِّرني بشيء»، قالت ليندي، «هل تذكرت أن تحضر أعمالك الموسيقية؟».

أشرت إلى القرص المدمج بجانبي على الأريكة. «لا أعرف ما إذا كان سيثير اهتمامكِ. لا يتوجب عليك الاستماع...».

- أوه، لكني أريد ذلك فعلًا، إنني مهتمة به على نحو مطلق. هاته، دعني أرَه.

ناولتها القرص المدمج. «هذه فرقة لعبت معها في باسادينا. لعبنا معزوفات رئيسية، إيقاعات قديمة الطراز، قريبة من الباسانوفا. لا شيء مميَّز، لقد أحضرته معي بناء على طلبك».

راحت تتفحص علبة القرص المدمج، وهي تمسك بها على مسافة قريبة من وجهها، قبل أن تبعدها عنها. «هل أنت في هذه الصورة، إذن؟». قرَّبت العلبة

مجددًا. «يراودني فضول لمعرفة الملامح التي تبدو عليها، أو عليَّ أن أقول التي بدوت عليها».

- إنني الثاني من اليمين. في قميص هاواي، أمسك بطاولة الكي.
- «هذا أنت؟»، حدقت إلى القرص المدمج. ثم إليَّ. بعدها قالت: «مهلًا، ملامحك لطيفة». لكنها قالت ذلك بهدوء، بصوت يخلو من أية قناعة. في الواقع، لاحظت أن ثمة ما يدل على إحساس واضح بالشفقة في صوتها. لكنها استعادت تركيزها، على الفور تقريبًا. «حسنًا، فلنستمع إليه!».

وعندما مشت نحو نظام بانغ أند أولوفسون، قلت: «التسجيل رقم تسعة. «The Nearness of You». إنه تسجيلي المميز».

- ها هي الآن «The Nearness of You».

قررت انتقاء هذا التسجيل بعد قليل من التفكير. فالموسيقيون في تلك الفرقة كانوا بمستوى رفيع. كان لدينا على مستوى فردي طموح نحو شكل موسيقي أكثر راديكالية، لكننا شكَّلنا الفرقة لهدف واضح يتمثل في لعب مقطوعات سائدة بجودة رفيعة، وهذا ما يريده جمهور العشاء. توزيعنا لـ«The Nearness of You» - الذي أظهر عبره آلتي التينور - لم يكن بعيدًا مئات الأميال عن مجال طوني غاردنر، لكني لطالما كنت فخورًا به. قد يخيل إليك بأنك سمعت هذه الأغنية بكل التوزيعات الممكنة. حسنًا، استمع لنا. اسمع، على سبيل المثال، الكورس الثاني. أو تلك اللحظة التي نخرج فيها من المنتصف الثامن، عندما تنتقل الفرقة من III-5 إلى VIX-9 بينما أرتفع بنوتاتي في الفواصل الموسيقية بحيث لا تتخيل أن ذلك بمقدور أحد أن يفكر فيه، قبل أن أبقي على نغمة الـ «B-flat» عالية جدًّا وبشكل حنون. أعتقد أن ثمة ألوانًا في هذا التسجيل، أشواقًا وأسفًا، لم يحدث أن صادفتها من قبل.

لذا، يمكنك القول إنني كنت على ثقة تامة من أن هذا التسجيل سيحظى باستحسان ليندي. ولأول دقيقة تقريبًا بدا أنها مستمتعة. بل ظلت نشطة ومتنبهة

بعد تحميل القرص المدمج، ومثلما كان الأمر حين شغَّلت تسجيل زوجها فإنها راحت تتمايل على نحو حالم على الإيقاع البطيء. لكن الإيقاع بعد ذلك تلاشى من حركاتها، حتى باتت تقف بصمت تام، وظهرها لي، ورأسها منحنٍ إلى الأمام كما لو أنها تركز. لم آخذ الأمر بداية على أنه علامة سيئة. إلا أنها عندما جاءت لتجلس فيما الموسيقى لا تزال في كامل تدفقها، أدركت أن ثمة خطبًا ما. بسبب الضمادات، بالطبع، لم أكن قادرًا على قراءة تعابير وجهها، لكن الطريقة التي تركت فيها نفسها تهبط على الأريكة، مثل عارضة أزياء متوترة، لم تبدُ إشارة جيدة.

بعد انتهاء التسجيل، التقطتْ جهاز التحكم عن بُعد وأوقفت تشغيل القرص تمامًا. ولوقت بدا طويلًا، بقيت على هذه الحال، جامدة وصعبة المراس. ثم جذبت نفسها بعض الشيء وبدأت في وضع قطعة شطرنج.

- «لقد كان ذلك لطيفًا للغاية»، قالت، «شكرًا لسماحك لي بسماع التسجيل». بدا ذلك أشبه بعبارة لفظية مبتذلة، ولم يبدُ أنها تبالي بذلك.
- ربما لم يكن ذلك نوعك المفضل.
- «لا، لا». أصبح صوتها متجهمًا وهادئًا. «لقد كان ذلك على ما يرام. شكرًا لسماحك لي بسماع التسجيل». وضعت قطعة الشطرنج داخل مربع، ثم قالت: «والآن لعبك».

نظرت إلى لوحة الشطرنج، محاولًا أن أتذكر أين كنا. وبعد فترة سألتُها بلطف: «ربما لتلك الأغنية بشكل خاص معان حميمة بالنسبة إليك؟».

نظرت إلى أعلى وشعرت بالغضب يتعاظم خلف ضماداتها. لكنها قالت بالصوت الهادئ نفسه: «تلك الأغنية؟ ليس لديها أي معان. لا شيء على الإطلاق». فجأة ضحكت - ضحكة قصيرة، وفظة. «أوه، أتقصد معاني لها علاقة به، طوني؟ لا، لا. لم تكن أبدًا إحدى علاماته الموسيقية. أنت تعزفها بشكل جيد جدًّا. أنت حقًّا محترف».

- حقًّا محترف؟ ما الذي يفترض أن يعنيه هذا؟
- أعني محترف للغاية. أعنيها كإطراء.
- «محترف؟». نهضت، وعبرت الغرفة وأخرجت القرص من الجهاز.
- «لم أنت غاضب هكذا؟»، كان صوتها لا يزال بعيدًا وباردًا. «هل قلت شيئًا مسيئًا لك؟ إنني آسفة، كنت أحاول أن أكون لطيفة».

عدت إلى الطاولة، وأعدت القرص إلى علبته، لكني لم أجلس.

- «ألن ننهي اللعبة إذن؟»، سألت.
- إذا كنتِ لا تمانعين، ثمة شؤون عليَّ القيام بها. اتصالات هاتفية. مراجعة بعض الأوراق.
- لم أنت غاضب إلى هذ الحد؟ لا أفهم.
- أنا لست غاضبًا على الإطلاق. الوقت ينقضي، هذا كل ما في الأمر.

نهضت على الأقل لتشيعني إلى الباب، حيث انفصلنا بمصافحة باردة.

لقد ذكرت فعلًا كيف خرب إيقاع نومي بعد الجراحة. وفي ذلك المساء، أحسست بالتعب فجأة، فأويت إلى الفراش مبكرًا، لأنام كما هو لازم لبضع ساعات. لكني استيقظت في منتصف الليل لعجزي عن العودة إلى النوم. وبعد وقت، شغلت التلفزيون فوجدت فيلمًا كنت قد رأيته وأنا طفل؟ اخترت كرسيًّا وشاهدت ما تبقى منه مع خفض مستوى الصوت. عندما انتهى الفيلم تفرجت على اثنين من الدعاة يصيحان على بعضهما البعض أمام جمهور ينبح. ورغم ذلك، كنت راضيًا. بل أحسست بالراحة وبأنني بعيد مليون ميل عن العالم الخارجي. لذا قفز قلبي من صدري حين رن الهاتف.

- «ستيف؟ أهذا أنت؟». كانت ليندي. وبدا صوتها غريبًا ما جعلني أتساءل عما إذا كانت تحتسي الكحول.
- نعم أنا.

- أعرف أن الوقت متأخر. لكن الآن، وبينما كنت أعبر في الممر، رأيت ضوء غرفتك من تحت بابك. وافترضت أنك تعاني مشكلة في النوم، مثلي تمامًا.
- أظن ذلك. من الصعب أن يبقي المرء ساعات نومه منتظمة.
- بلى. هذا مؤكد.
- «هل كل شيء على ما يرام؟»، سألتها.
- بالتأكيد. كل شيء على ما يرام، وبحال جيدة جدًّا.

أدركت الآن أنها لم تكن في حالة سكر، لكني لم أتمكن من تبين ما كان الأمر عليه. من المحتمل أنها لم تكن ثملة بسبب أي شيء - بل فقط مستيقظة على نحو غريب وربما متحمسة لأمر ما عليها إخباري به.

- «هل أنت متأكدة من أن كل شيء على ما يرام؟»، سألتها مرة أخرى.
- نعم، فعلًا، ولكن انظر، أيها الحلو، معي شيء هنا، شيء أريد أن أقدمه لك.
- أوه؟ وماذا يمكن أن يكون؟
- لا أريد أن أفصح عنه. أريده مفاجأة.
- هذا مثير للاهتمام. سآتي للحصول عليه، ربما بعد تناول وجبة الفطور؟
- كنت آمل أن تأتي لأخذه الآن. أعني، هنا، بما أنك مستيقظ وأنا مستيقظة. أدرك أن الوقت متأخر، ولكن اسمع، ستيف، بشأن ما حدث في وقت سابق، أشعر أنني مدينة لك بتفسير.
- انسي الأمر. لم أفكر...
- لقد غضبت مني ظنًّا بأني لم أحب موسيقاك. هذا لم يكن صحيحًا. بل عكس الحقيقة، العكس تمامًا. التسجيل الذي شغلته، تلك النسخة من «The Nearness of You»؟ لم أتمكن من إخراجها من رأسي. لا، لا أقصد رأسي، بل أعني قلبي. لم أتمكن من إخراجها من قلبي.

لم أجد ما يمكن قوله، لكني وقبل أن تسنح لي الفرصة بالتفكير في أي شيء، انطلقتْ هي في الكلام مرة أخرى.

- هل ستأتي؟ الآن؟ سأشرح لك كل شيء وبالشكل المناسب. والأهم من ذلك... لا، لا، لن أقول شيئًا. إنها مفاجأة. تعال وسوف ترى بنفسك، وأحضر معك القرص المدمج. هل ستفعل ذلك؟.

تناولت القرص المدمج مني فور فتحت الباب، كما لو أنني صبي دليفري، لكنها بعد ذلك أمسكت بمعصمي وقادتني. كانت ليندي ترتدي ثوب الروب الفاتن نفسه كما من قبل، لكنها بدت أقل ترتيبًا الآن، فأحد جانبي الثوب تدلى عند مستوى دون الآخر، كما أن كتلة زغب صوفية أفلتت في الجزء الخلفي من الضمادات قرب خط العنق.

- «أفترضُ أنك كنت تقومين بإحدى جولاتك الليليَّة»، قلت.
- إنني سعيدة للغاية لأنك مستيقظ. لا أعرف إن كان بوسعي الانتظار حتى الصباح. استمع الآن، كما قلت لك، لدي مفاجأة. آمل أن تحب ذلك، أعتقد أنك ستفعل. لكن أولًا أريدك أن تكون على راحتك. سنستمع إلى أغنيتك مرة أخرى. دعني أرى، ما رقم التسجيل الأغنية؟

جلستُ على الأريكة التي بت معتادًا عليها الآن وراقبتها وهي تعبث بنظام الصوتيات عالي الدقة. كانت الإضاءة في الغرفة خافتة، والهواء يتسم ببرودة رائعة. ثم انطلقت أغنية «The Nearness of You» بصوت عال.

قلت: «ألا تعتقدين أن هذا قد يزعج الناس؟».

- فليذهبوا إلى الجحيم. نحن نسدد من التكاليف ما يكفي لهذا المكان، هذه ليست مشكلتنا. والآن شششش، استمع استمع!

بدأت تتمايل على أنغام الموسيقى كما من قبل، لكنها هذه المرة لم تتوقف بعد المقطع الشعري. في الواقع، بدا أنها أكثر انغماسًا في الموسيقى مع مرور

الوقت، بل فردت ذراعيها كما لو أن لديها شريكَ رقص خياليًا. وعند انتهاء الأغنية، أطفأت الجهاز وبقيت ساكنة، واقفة في نهاية الغرفة وظهرها لي. ظلت على هذا النحو لفترة من الوقت بدت لي طويلة، ثم أخيرًا اقتربت مني.

- «لا أعرف ماذا أقول»، قالت. «عمل رفيع. أنت موسيقي رائع رائع. عبقري».
- حسنًا، شكرًا لك.
- «عرفت هذا في المرة الأولى. هذه هي الحقيقة. لهذا السبب تفاعلت بتلك الطريقة متظاهرة بأنني لم أحبها، متظاهرة بذلك السلوك الاستعلائي؟». جلست في مواجهتي وتنهدت. «اعتاد طوني انتقادي بشدة لسلوكي هذا. ولطالما تصرفتُ كذلك. لا يبدو أنني تخطيت هذه العادة حتى الآن. أقابل شخصًا، كما تعرف، موهوبًا حقًّا، شخصًا منحه الله تلك الموهبة، فلا يسعني إلا أن أتصرف، غريزيًّا، كما تصرفت معك. لا أعلم، أعتقد أنها الغيرة. كما لو أنك محاط بنساء، لهن جمال عادي؟ فتدخل امرأة جميلة الغرفة نفسها، فيعاملنها بكراهية، يرغبن في أن يخدشن عينيها. هكذا أنا حين ألتقي بشخص مثلك، خاصة إذا تم ذلك بطريقة غير متوقعة، كما حدث اليوم، ومن دون أن أكون مستعدة. أعني، أنك هنا، ولدقيقة ظننت بأنك واحد من الجمهور، ثم فجأة، حسنًا، حدث شيء آخر. هل تدرك ما أقول؟ على أية حال، أحاول إخبارك عن سبب تصرفي بتلك الطريقة السيئة من قبل. ولك كل الحق في أن تبدي غضبك تجاهي».

صمتُ الوقت المتأخر من الليل تردد بيننا لفترة. «حسنًا، إنني أقدر ذلك»، قلت في النهاية. «أقدر أنك تخبرينني بذلك».

وقفت فجأة. «والآن، المفاجأة! انتظر فقط عندك، لا تتحرك».

دخلت إلى الغرفة المجاورة واستطعت سماع الجوارير تفتح وتغلق. وعندما عادت، كانت تمسك بشيء بكلتا يديها إلى الأمام، لكني لم أتمكن

من تمييز هوية ذلك الشيء، لأنها غطته بمنديل حريري. توقفت في منتصف الغرفة.

- ستيف، أريدك أن تأتي وتستلم هذا. سيكون عرضًا تقديميًّا.

كنت في حيرة من أمري، ولكني نهضت. وعندما تقدمت إليها سحبت المنديل وقدمت لي نحاسيَّة لامعة مزخرفة.

- أنت تستحق هذه بحق. لذا فهو ملكك. أنت أفضل موسيقي جاز لهذا العام، بل ربما في كل العصور. تهانيَّ.

وضعتها في يدي وطبعت قبلة خفيفة على خدي من خلال رقاقة القماش.

- حسنًا. شكرًا لك. إنها مفاجأة. مهلًا، يبدو هذا جميلًا. ما هذا؟ تمساح؟

- تمساح؟ ما الذي تقوله! هذان ملاكان صغيران يتبادلان قبلة.

- أوه، نعم، أستطيع رؤية ذلك الآن. حسنًا، شكرًا، ليندي. لا أعرف ماذا أقول. هذا حقًّا جميل.

- تمساح!

- إنني آسف. لكن الشكل الذي تمتد فيه ساق الشاب هذا إلى الخارج. غير أني أرى الأمر الآن. إنه حقًّا جميل.

- حسنًا، إنه لك. وأنت تستحقه.

- لقد مسَّني هذا من الداخل، ليندي. إنني حقًّا أشعر بذلك. وما هو المكتوب هنا في الأسفل؟ نظارتي ليست معي.

- مكتوب أفضل موسيقي جاز لهذا العام. ما الذي يمكن أن يكون مكتوبًا غير ذلك؟

- هذا هو المكتوب؟

- طبعًا، هذا هو المكتوب.

رجعت إلى الأريكة، ممسكًا بالتمثال الصغير، وجلست وفكرت قليلًا. «قولي لي ليندي»، قلت في النهاية. «الشيء الذي قدمته لي للتو، هل من الممكن، أو أنه من غير الممكن، أن تكوني صادفته خلال إحدى جولات مَشيِك منتصف الليل؟».

- بالتأكيد. بالتأكيد ممكن.
- فهمت. وهذا غير ممكن طبعًا، لكن هل هذه هي الجائزة الحقيقية؟ أعني الجائزة الحقيقية التي من المفترض تقديمها لجايك؟

لم ترد ليندي لبضع ثوان، بل ظلت مسمَّرة في مكانها هناك. ثم قالت:

- إنها طبعًا الجائزة الحقيقية. وإلا ما معنى أن أقدم لك شيئًا قديمًا غير مرغوب فيه؟ ثمة ظلم على وشك أن يلحق بشخص، لكن العدالة انتصرت الآن. هذا كل ما يهم. مهلًا، أيها الحلو، هيا! أنت تعرف أنك الشخص الذي يستحق هذه الجائزة.
- إنني أقدر وجهة نظرك. إنني أفكر فقط... حسنًا، ما فعلته يمكن أن يسمى سرقة.
- سرقة؟ ألم تقل بنفسك إن هذا الرجل ليس ماهرًا؟ مزيف؟ وإنك عبقري. من إذن يحاول سرقة مَن في هذه الحالة؟
- ليندي، أين عثرتِ على هذا الشيء؟
- في مكان ما وحسب. أحد الأمكنة التي أذهب إليها. مكتب، يمكنك ربما تسميته هكذا.
- الليلة؟ هل أحضرتِه الليلة؟
- طبعًا أحضرته الليلة. لم أكن أعرف أي شيء عن جائزتك الليلة الماضية.
- طبعًا، طبعًا. كان ذلك قبل ساعة، ما رأيك؟

- ساعة. ربما ساعتان، من يعلم؟ مكثت هناك لبعض الوقت. ذهبت إلى جناحي الرئاسي لبعض الوقت.
- بحق يسوع.
- اسمع، من يأبه؟ ما الذي يقلقك إلى هذا الحد؟ فليفقدوا جائزةً مثل هذه، يمكنهم وحسب إحضار جائزة أخرى. ربما لديهم خزانة مليئة بهذه الأشياء في مكان ما. لقد قدمت لك شيئًا تستحقه. وأنت لن ترفضها، هل سترفضها يا ستيف؟
- لن أرفضها، يا ليندي. المشاعر، الشرف، كل ذلك، أقبل به، وأنا سعيد حقًّا به. لكن هذه، الجائزة الحقيقية. سنكون مضطرين لإعادتها. يجب أن نعيدها بالضبط إلى المكان الذي عثرتِ عليها فيه.
- فليذهبوا الى الجحيم! من يأبه؟
- ليندي، أنت لم تفكري في الأمر بشكل جيد. ماذا سنفعل إذا ما اكتشفوا الأمر؟ هل يمكنك تخيل ما ستفعله الصحافة؟ القيل والقال، والفضيحة؟ ماذا سيقول جمهورك؟ هيا بنا الآن. سنذهب إلى ذلك المكان حالًا قبل أن يستيقظ الناس. ستريننى بالضبط المكان الذي وجدت فيه هذا الشيء.

بدت فجأة كطفل يتعرض للتوبيخ، فتنهدت قائلة: «أعتقد أنك على صواب، يا حلو».

لكن ليندي أصبحت مغرمة بالجائزة بمجرد أن اتفقنا على إعادتها، فضمتها إلى صدرها طوال الوقت ونحن نهرع عبر ممرات الفندق الضخم والنائم. قادتني عبر السلالم المخفية، والممرات الخلفية، عابرين بغرف الساونا وماكينات البيع. لم نر أو نسمع أحدًا. ثم همست ليندي: «الطريق من هنا»، واندفعنا عبر أبواب ثقيلة إلى مكان مظلم.

ما إن تيقنتُ بأن لا أحد في المكان سوانا حتى أضأت المصباح اليدوي الذي أحضرته من غرفة ليندي ورحت أحركه من حولنا. كنا الآن في قاعة الاحتفالات، ولو أردت الرقص في تلك اللحظة فسوف تواجهك مشكلة بسبب وجود كل طاولات الطعام تلك، بغطاء من الكتان الأبيض فوق كل منها وكراس متطابقة الشكل تحيط بها. تدلت من السقف ثريا مركزية فاخرة. كان هنالك في الجانب البعيد منصة ارتفعت عن الأرض، فسيحة كفاية لإقامة عرض مبهر، رغم أن الستائر كانت مسدلة فوقها. كما أن شخصًا ما قد ترك سلَّمًا في منتصف الغرفة ومكنسة كهربائية عمودية مسندة إلى الجدار.

قالت: «يبدو أنه سيكون هنالك حفل ما، لأربعمائة أو خمسمائة شخص؟».

تجولت في أرجاء الغرفة منقِّلًا شعاع المصباح حولي أكثر. «قد يكون هذا المكان الذي سيقام فيه الحفل حيث سيسلمون جايك جائزته».

- «طبعًا هو حيث وجدت هذا» - أمسكت بالتمثال الصغير - «كانت هناك تماثيل أخرى أيضًا. أفضل نجم مستجد. أفضل ألبوم «R&B» لهذا العام. هذا النوع من الأشياء. سيكون حدثًا كبيرًا».

أما وقد تكيفت عيناي مع العتمة الآن فأمكنني أن أرى المكان بشكل أفضل، رغم أن ضوء المصباح لم يكن قويًّا للغاية. وللحظة، وفيما كنت واقفًا أنظر إلى المسرح تخيلت الصورة التي سيبدو عليها المكان لاحقًا. المدعوون بملابسهم الفاخرة، موظفو شركات التسجيل، المروجون الكبار، مشاهير برامج الترفيه المؤقتون، ضاحكين ومغدقي المديح على بعضهم البعض. ثم التصفيق المتزلف كلما ذكر عريف الحفل اسم الراعي، ومزيد من التصفيق، مع صيحات هذه المرة وهتافات عند اعتلاء الفائزين بالجوائز المنصة. تخيلت جايك مارفيل على تلك المنصة، حاملًا جائزته، بالابتسامة المعتادة نفسها التي كان يرسمها دومًا في سان دييغو كلما انتهى من عزف منفرد وصفق الجمهور.

- «لربما أخطأنا»، قلت، «ولا حاجة لإرجاع هذا. ربما علينا رميها في القمامة. هي وجميع الجوائز الأخرى التي وجدتها معها».
- «حقًّا؟»، بدت ليندي حائرة. «هل هذا ما تود القيام به، يا حلو؟».

تنهدت. «لا. لا أظن ذلك. لكن سيكون الأمر.. مُرضيًا، أليس كذلك؟ بكل هذه الجوائز في القمامة. أراهن أن كل واحد من أؤلئك الفائزين مزيف. أراهن أنه ليس لدى الكثير منهم موهبة تكفي لملء قلب امرأة».

انتظرت ليندي كي تتفوه بشيء، إلا أنها ظلت صامتة. ثم حين تكلمت كان ثمة ملاحظة جديدة في صوتها، شيء أكثر إحكامًا.

- كيف تعرف أن بعض هؤلاء الفنانين غير جيدين؟ كيف تعرف أن بعضهم غير جدير بالجائزة؟
- «كيف أعرف؟». شعرت بموجة انزعاج مفاجئة تضربني. «كيف أعرف؟ حسنًا، فكري جيدًا في الأمر. أن يعلن اسم جايك مارفيل، على لوحة، كأفضل موسيقي جاز لهذا العام. فأي نوع آخر من الناس سيتم تكريمهم بجانبه؟».
- لكن ما الذي تعرفه عن أولئك الأشخاص؟ حتى جايك هذا. كيف تعرف أنه لم يعمل بشكل حثيث للوصول إلى مكانه؟
- ما الذي تقولينه؟ هل تحولتِ الآن إلى أكبر معجبة بجايك؟
- إنني أعبر عن رأيي وحسب.
- رأيك؟ هذا رأيك إذن؟ لا أظن أنني سأُدهش. فقد نسيت للحظة من تكونين.
- ماذا يفترض أن يعني هذا الهراء؟ كيف تجرؤ على التحدث معي بهذه الطريقة؟!

فكرت في أنني على وشك أن أفقد رباطة جأشي. قلت بسرعة: «حسنًا، لقد تخطيت الحدود. أنا آسف. دعينا نذهب الآن للعثور على ذلك المكتب».

كانت ليندي صامتة، وعندما التفتُّ بحيث أصبح قبالتها، لم أتمكن من رؤية ما يكفي تحت ذلك الضوء لتخمين ما كانت تفكر فيه.

- «ليندي، أين ذلك المكتب؟ علينا إيجاده». في نهاية المطاف، أشارت بالتمثال الصغير في يدها نحو الجهة الخلفية للقاعة، لتقودني بين الطاولات من دون أن تتفوه بكلمة. وحينما وصلنا، وضعت أذني على الباب لبضع ثوان، وحين تأكدت أن لا أصوات في الداخل، فتحته بعناية.

وجدنا أنفسنا الآن في فسحة ضيقة طويلة بدت موازية في تصميمها لقاعة الاحتفالات. كان ثمة ضوء آت من جهة ما، وقد ترك خافتًا، ما جعلنا قادرين على تلمس طريقنا من دون الحاجة إلى المصباح اليدوي. بدا واضحًا أن ما نسعى إليه ليس مكتبًا بل مكانًا شبيهًا بمساحة مشتركة للمطبخ وتموين الطعام. وامتدت مناضد عمل بشكل مستطيل على امتداد الجدران، مخلفة ممرًّا في المنتصف، بما يكفي ليضع الموظفون اللمسات الأخيرة على الطعام.

غير أن ليندي ميزت المكان إذ مشت بخطى واسعة في الممر. وفي منتصف الطريق تقريبًا، توقفت فجأة لتفحص إحدى صواني المخبوزات المتروكة على المنضدة.

- «مهلًا، إنها كعكات!». وبدا أنها استعادت تمامًا رباطة جأشها. «من سوء حظنا أنها تحت السيلوفان بالكامل. إنني أتضور جوعًا. انظر! فلنر ماذا يوجد تحت هذا».

مشت بضع خطوات نحو غطاء كبير على شكل قبة، وفتحته. «انظر الى هذا يا حلو. يبدو شهيًّا بالفعل». كانت مائلة على الديك الرومي المشوي. وبدلًا من اعادة الغطاء إلى مكانه، وضعته بعناية بجانب الطائر.

- هل تظن أن أحدًا سيمانع لو سحبت فخذًا؟
- أعتقد أنهم سيمانعون جدًّا يا ليندي. لكن ما الذي تفعلينه بحق الجحيم؟

- إنه حبيب قلبي. هل تريد مشاركة فخذ معي؟
- طبعًا، لم لا؟
- حسنًا. فلنبدأ.

بدأت بالعبث بالديك الرومي. ثم فجأة استدارت لتصبح قبالتي تمامًا.

- ماذا يفترض أن يعني كل ذلك؟
- عم تتحدثين؟
- ما قلته. عندما قلت إنَّ رأيي لا يُدهشك. ما الذي قصدته؟
- اسمعي، أنا آسف. لم أقصد الإساءة إليك. كنت فقط أفكر بصوت عال، هذا كل ما في الأمر.
- تفكر بصوت عال؟ حسنًا، ما رأيك بالمزيد من التفكير بصوت عالٍ؟ أنا أفترض أن بعض أولئك الأشخاص جدير بجائزته، ما الذي يجعلك تجد هذا الكلام سخيفًا؟
- انظري، كل ما قصدته هو أن الأشخاص غير المناسبين يحظون بجوائز. هذا كل شيء. ولكن يبدو أنك تعرفين عن هذا الأمر بشكل أفضل. لا تعتقدين أن هذا ما يحدث...
- بعض أولئك الأشخاص ربما بذلوا جهودًا لعينة للوصول إلى حيث هم الآن. ولربما يستحقون بعض التقدير. المشكلة مع أشخاص مثلك، فقط لأن الله منحك موهبة مميزة تعتقد أن هذا يمنحك حق الحصول على كل شيء. وبأنك أفضل من البقية، وأنك تستحق أن تكون في المقدمة في كل المناسبات. لا ترى أن عددًا كبيرًا من الأشخاص حول العالم لم يحالفهم الحظ بمثل موهبتك فيعملون بكد لنيل مكان لهم في العالم...
- إذن أنتِ لا تعتقدين أنني أعمل بجد؟ هل تعتقدين أنني أقضي أيامي مستريحًا على مؤخرتي؟ فأنا أناضل وأتعرق وأبذل قصارى جهدي

لأخرج بشيء جدير بالاهتمام، شيء جميل، ومن ذا الذي ينال التقدير؟ جايك مارفيل! وأناس على شاكلتك!

- كيف تجرؤ على قول كلام لعين كهذا! وما شأني بالأمر كله؟ هل سأنال جائزة اليوم؟ هل منحني أي شخص جائزة في أي وقت مضى؟ هل حظيت بشيء، حتى في المدرسة، شهادة واحدة رديئة في الغناء أو الرقص أو أي شيء آخر لعين؟ لا! ولا أي شيء لعين! كان عليَّ أن أشاهدكم جميعًا، أنتم المتسلقون جميعكم، خلال صعودكم نحو القمة، حاصدين الجوائز وتصفيق الآباء والأمهات...

- لا جوائز؟ لا جوائز؟ انظري لحالك! من الذي أصبح مشهورًا؟ من الذي ابتاع منازل فاخرة...

في تلك اللحظة، قام أحدهم بنقر أحد المفاتيح، ووجدنا أنفسنا نرمش في وجه بعضنا تحت أضواء ساطعة مزعجة. جاء رجلان بالطريقة نفسها التي جئنا بها، وكانا يتحركان الآن نحونا. كان الممر عريضًا بما يكفي ليستطيعا السير جنبًا إلى جنب. أحدهما رجل أسود ضخم في زي حارس أمن الفندق، وما ظننته بداية مسدسًا في يده لم يكن سوى جهاز راديو ثنائي الاتجاه. وإلى جانبه كان رجل أبيض ضئيل الحجم في بدلة زرقاء فاتحة وشعر أسود ناعم. لم يبد أي منهما مُراعيًا للآخرين بشكل خاص. وقفا على بعد ياردة أو اثنتين، ثم أخرج الرجل الصغير بطاقة هوية من سترته.

- «شرطة لوس أنجيلوس»، قال، «واسمي مورغان».

- «مساء الخير»، قلت.

للحظة، أخذ الشرطي وحارس الأمن ينظران إلينا بصمت. ثم سأل الشرطي:

- هل أنتما مِن نزلاء الفندق؟

- «نعم، نحن كذلك»، قلت. «نحن من نزلاء الفندق».

شعرت بالملمس الناعم لروب ليندي يحتك بظهري. ثم أمسكت بذراعي لنصير واقفين جنبًا إلى جنب.

- «مساء الخير، أيها الضابط»، قالت بصوت ناعس، صوت رقيق وحلو بعكس صوتها المعتاد.

- «مساء الخير سيدتي»، قال الشرطي، «هل ثمة سبب خاص يدعوكما للوقوف هنا وفي هذه الساعة؟».

شرع كلانا في الإجابة في وقت واحد، ثم ضحكنا. لكن أيًّا من الرجلين لم يضحك أو يبتسم.

- «واجهنا مشكلة في النوم»، قالت ليندي. «لذا، كنا نتمشَّى فقط».

- «تتمشيان فقط». نظر الشرطي حوله في غمرة الضوء الأبيض القوي. «ربما تبحثان عن شيء لتناوله».

- «هذا صحيح، أيها الضابط!» كان صوت ليندي لا يزال ممتازًا في نبرته. «لقد جعنا قليلًا، كما يحدث معك بالتأكيد أحيانًا في الليل».

- أظن أن خدمة الغرف لا تلبي مطالبكما كثيرًا.

- «لا، إنها ليست ممتازة»، قلت.

- «يقدمون فقط الأشياء المعتادة»، قال الشرطي. «شرائح اللحم، البيتزا، الهمبرغر، الكلوب ساندويش بثلاث طبقات. أعلم ذلك كوني أطلب الطعام من خدمة الغرف طوال الليل . لكن أعتقد أن الناس لا يحبون هذا النوع من الطعام».

- حسنًا، أنت تعرف كيف هو الأمر، أيها الضابط. إنها المتعة. مرح التسلل للظفر بمضغة طعام، كما تعلم، فالأمر ممنوع نوعًا ما، كما كنت تفعل وأنت صغير؟

لم يبد على أي من الرجلين أية علامة على التأثر. لكن الشرطي قال:

- آسف لإزعاجكما يا رفيقيَّ. لكنكما تدركان أن هذه المنطقة غير متاحة أمام الضيوف. وقد فقدنا شيئًا أو شيئين في الآونة الأخيرة.
- حقًّا؟
- «نعم. هل لاحظتما أي شيء مثير للشبهات أو غريب الليلة؟». تبادلت وليندي النظرات، لتهز من بعد رأسها بصورة مسرحية وهي تنظر إليَّ.
- «لا»، قلت. «لم نر أي شيء غريب».
- لا شيء إطلاقًا؟

كان الحارس الأمني يقترب أكثر فأكثر منا، وقد تجاوزنا الآن، وهو يضغط كتلته البدنية بالمنضدة. أدركت أن خطته اقتضت أن يتفحصنا عن كثب، لمعرفة ما إذا كنا نخفي شيئًا ربما، فيما واصل شريكه الحديث معنا.

- «لا، لا شيء»، قلت. «لكن ما نوع الأشياء التي تثير اهتمامك؟».
- أناس مثيرون للشكوك. نشاط غير عادي.
- «هل تقصد، أيها الضابط بأنه تم اقتحام الغرف؟»، قالت ليندي برعب من تعرض لصدمة.
- ليس تمامًا، سيدتي. لكن أغراضًا ذات قيمة عالية، قد فقدت.

شعرت بأن حارس الأمن يتحرك خلفنا.

- «ولهذا السبب أنتما برفقتنا الآن»، قالت ليندي، «لحمايتنا وحماية ممتلكاتنا».
- «هذا صحيح، سيدتي». نقَّل الشرطي نظراته في حركة خفيفة وساد لدي انطباع بأنه تبادل نظرة مع الرجل الواقف خلفنا. «إذا رأيتما أي شيء غير عادي، أرجو أن تتصلا بالأمن على الفور».

بدا أن المقابلة انتهت وأفسح الشرطي المجال للسماح لنا بالخروج. شاعرًا بارتياح، قررت التحرك، لكن ليندي قالت:

- أفترض أنه كان سلوكًا مشاكسًا منا، أن نأتي إلى هنا لتناول الطعام. كنا نريد الحصول على بعض قطع الجاتو من هناك، ثم فكرنا في أنَّه لمناسبة خاصة، وسيكون عارًا أن نفسد ذلك.

قال الشرطي: «هذا الفندق لديه خدمة غرف جيِّدة، على مدار أربع وعشرين ساعة».

حاولت سحب ليندي، لكنها بدت الآن مأخوذة بمس المجرمين في التدلل عند إلقاء القبض عليهم.

- وهل طلبت أي شيء لنفسك، أيها الضابط؟
- بالتأكيد.
- وهل كان جيدًا؟
- كان جيِّدًا جدًّا. أوصي بأن يفعل الناس الأمر عينه.
- «دعينا نترك السيدين يكملان تحقيقاتهما»، قلت، ساحبًا ذراعها، لكنها لم تتزحزح من مكانها. «أيها الضابط، هل يمكنني أن أسألك شيئًا؟»، سألت، «هل تمانع؟».
- جرِّبيني.
- لقد تحدثت للتو عن رؤية شيء غريب. ألم ترَ أي شيء غريب بنفسك؟ أعني، متعلق بنا؟
- لا أعرف ماذا تقصدين، يا سيدتي.
- مثل أن وجهينا ملفوفان كليًّا بالضمادات؟ ألم تلاحظ ذلك؟

نظر إلينا الشرطي بعناية، كما لو أنه يتحقق من الجملة الأخيرة. ثم قال: «في واقع الأمر لاحظت ذلك، يا سيدتي، نعم. لكنني لم أرغب في إبداء ملاحظات شخصية».

- «أوه، فهمت الآن»، قالت ليندي، ثم استدارت نحوي قائلة: «ألم يكن ذلك سلوكًا متفهمًا من قبله؟».

- «هيا»، قلت، وأنا أسحبها الآن بقوة كبيرة. شعرت بأن كلا الرجلين يحدِّقان إلى ظهرينا في طريقنا إلى المخرج.

عبرنا قاعة الاحتفالات متظاهرين بالهدوء. لكن بمجرد أن تجاوزنا الأبواب الهزازة الكبيرة، استسلمنا للذعر لنطلق ساقينا للريح كأننا في حالة فرار. بقي ذراعانا متصلين، لذا تعثرنا مرارًا واصطدمنا تكرارًا أثناء قيادة ليندي لي عبر المبنى. ثم سحبتني إلى مصعد الخدمة، وعندما أغلقت الأبواب وبدأ المصعد في التحرك، استرخت لتميل على الجدار المعدني وتبدأ بإطلاق أصوات غريبة أدركت أنها ضحك هستيري يشق طريقه عبر الضمادات.

عندما خرجنا من المصعد، شبكتْ ذراعها في ذراعي مرة أخرى، وقالت: «حسنًا، نحن بأمان. الآن أريد اصطحابك إلى مكان ما. إنه حقًّا شيء مميز. هل ترى هذا؟». كانت تمسك ببطاقة ممغنطة لفتح الغرف. «دعنا نرَ ما يمكن أن تفعله هذه البطاقة من أجلنا».

استخدمت البطاقة للسماح لنا بالعبور عبر باب مكتوب عليه «خاص»، ثم باب كتب عليه «خطر. ممنوع الاقتراب»، لنجد أنفسنا واقفين في فضاء تفوح منه رائحة طلاء وجص. كانت هناك كابلات تدلت من الجدران والسقف، كما أن الأرضية الباردة كانت ملطخة ومرقشة. وأمكننا أن نرى بوضوح أن أحد جوانب الغرفة هو من الزجاج بالكامل - لا تزينه ستائر أو ستائر ذات أضلاع - كما أن الإضاءة الخارجية ملأت المكان بأكمله برقع صفراء. كنا في طابق أعلى من طابقنا: وامتد أمامنا منظر بدا كأن المرء يراه من طائرة هليكوبتر فوق الطريق السريع والأراضي المحيطة به.

- «سيكون الجناح الرئاسي الجديد»، قالت ليندي. «أحب المجيء إلى هنا. لا مفاتيح إضاءة بعد، ولا سجادًا. لكنها على وشك الوصول. عندما اكتشفته أول مرة كان المكان أشد قسوة. يمكنك الآن أن ترى كيف سيبدو، حتى أن ثمة أريكة هنا».

كان هناك في وسط الغرفة شكل ضخم مع غطاء لف عليه بشكل كامل. اتجهت ليندي نحوه كما لو أنها صديق قديم، وتركت نفسها تهوي عليه متعبة.

- «إنه من صنع خيالي»، قالت، «لكني مؤمنة به نوعًا ما. إنهم يعمِّرون هذه الغرفة من أجلي فقط. هذا هو سبب وجودي هنا. كل هذا سببه أنهم يريدون مساعدتي. مساعدتي في بناء مستقبلي. كان هذا المكان محض فوضى حقيقية. لكن انظر إليه الآن، فهو يأخذ شكله شيئًا فشيئًا. سيكون عظيمًا». ربتت على المساحة التي بجانبها. «هيا يا حلوي، استرح. أشعر بأنني مستنزفة. ولا بد أنك كذلك».

الأريكة - أو أيًّا ما كان تحت الغطاء - بدت مريحة إلى حد مدهش، وبمجرد أن غصت فيها شعرت بموجات التعب تنبعث مني لتجتازني.

- «كم أشعر بالنعاس يا رجل»، قالت وقد وضعت ثقلها على كتفي. «أليس هذا مكانًا رائعًا؟ لقد وجدت المفتاح في الفتحة، في أول مرة جئت فيها إلى هنا».

بقينا هادئين لبعض الوقت، وشعرت بنفسي أغط في النوم. لكني تذكرت أمرًا.

- ليندي.
- ممم؟
- ليندي. ما الذي حدث للجائزة؟
- الجائزة؟ آه أجل. الجائزة. لقد أخفيتها. ما الذي كان بإمكاني فعله غير ذلك؟ كما تعرف يا حلو، فأنت تستحق هذه الجائزة فعلًا. آمل أن يكون عنى لك شيئًا أن تتلقاها مني بالطريقة التي قدمتها بها لك الليلة. لم يكن الأمر مجرد نزوة. لقد فكرت في الأمر. تأملته بعناية. لا أعرف ما إذا كان لكل ذلك معنى عميق بالنسبة إليك. لا أدري ما إذا كنت ستذكر الأمر بعد عشر سنوات، أو بعد عشرين عامًا من الآن.

- سأتذكر ذلك بالتأكيد. الأمر يعني الكثير بالنسبة إليَّ. لكن ليندي، أنتِ تقولين بأنك أخفيتها، أين؟ أين أخفيتها؟
- «ممم»، كانت تغط في النوم مرة أخرى. «أخفيتها في المكان الوحيد الذي استطعت إخفاءها فيه، داخل الديك الرومي».
- وضعتها في الديك الرومي؟
- فعلت الشيء نفسه حين كان عمري تسع سنوات. أخفيت كرة أختي التي تتوهج داخل ديك رومي. هكذا خطرت لي الفكرة. تفكير سريع، أليس كذلك؟
- «نعم، بالتأكيد هو كذلك». كنت أشعر بالتعب الشديد، لكنني أجبرت نفسي على التركيز. «لكن ليندي، كيف أخفيتها؟ أعني، ألا يمكن أن يكون رجلا الشرطة والأمن قد وجداها الآن؟».
- لا أرى كيف يمكن أن يكونا وجداها. ليس هناك أي شيء بارز منها، إذا كان هذا ما قصدته. وما الذي قد يدفعهما للبحث هناك؟ لقد رحت أدخلها من وراء ظهري، هكذا. وأواصل الضغط. لم ألتفت لإلقاء نظرة عليها، وإلا لتساءل الرجلان عم كنت أفعله. لم يكن الأمر مجرد نزوة، كما تعلم، في قراري منحك تلك الجائزة. فكرت في ذلك، فكرت بعمق. آمل بطبيعة الحال أن تعني لك شيئًا. يا إلهي، إنني في حاجة إلى النوم.

انهارت مسترخية عليَّ وفي غضون لحظات كانت تشخر. ولكيلا يؤثر ذلك على جراحتها، قمت بتعديل رأسها بعناية بحيث لا يكون خدها ضاغطًا على كتفي، قبل أن أبدأ بدوري أنا أيضًا في الانحراف عن مكاني.

استيقظت بارتعاشة لأرى إشارة على قدوم الفجر عبر النافذة الكبيرة أمامنا. كانت ليندي لا تزال غارقة في النوم، لذا حررت نفسي منها بعناية، لأقف وأمطط ذراعيَّ. اتجهت إلى النافذة ونظرتُ إلى السماء الباهتة والطريق السريع

في الأسفل. كان ذهني مشغولًا بشيء ما بينما كنت نائمًا وحاولت أن أتذكر ما هو. لكن عقلي كان مشوشًا ومرهقًا. وحين تذكرت ما هو عدت إلى الأريكة وهززت ليندي لتستيقظ.

- «ما الأمر؟ ما الأمر؟ ماذ تريد؟ مااااذا تريد؟»، قالت من دون أن تفتح عينيها.
- «ليندي»، قلت. «الجائزة. لقد نسينا الجائزة».
- لقد قلت لك من قبل. إنها في ذلك الديك الرومي.
- حسنًا، اسمعي. قد لا يكون رجال الشرطة قد فكروا في إلقاء نظرة داخل الديك الرومي. لكن عاجلًا أم آجلًا سيجدها شخص ما، وقد يكون شخصٌ ما يحفر الآن في الديك لاستخراجها.
- وماذا في الأمر؟ سيكون معنى ذلك أنهم وجدوا شيئًا ما فيه؟
- يجدون شيئًا ما فيه، ويعلنون اكتشافهم الكبير. ثم يتذكرنا ذلك الشرطي. يتذكر أننا كنا هناك، واقفين قرب ذلك الديك الرومي.

بدا أن ذلك جعل ليندي تستفيق أكثر الآن. «نعم»، قالت. «أفهم ما تقوله».

- طالما ظلت الجائزة داخل الديك الرومي، سيكون بإمكانهم أن يربطوا بيننا وبين الجريمة.
- جريمة؟ مهلًا، ماذا تقصد بجريمة؟
- سمها ما شئت، لا يهم. علينا العودة إلى هناك واخراج ذلك الشيء من الديك الرومي. لا يهم أين نضعها بعدها. لكن لا يمكننا تركها في مكانها الحالي.
- يا حلو، هل أنت متأكد من أن علينا القيام بذلك؟ إنني في غاية الإرهاق الآن.
- علينا القيام بذلك، ليندي. إذا ما تركنا الأمر على حاله، ستقعين في ورطة. تذكري أن ذلك معناه قصة كبيرة للصحافة.

فكرت ليندي في الأمر، ثم استقامت في وضعيتها قليلًا ونظرت إليَّ. «حسنًا»، قالت. «لنعد إلى هناك».

هذه المرة كانت هناك ضوضاء تنظيف وأصوات في الممرات، لكننا تمكنا، رغم ذلك، من العودة إلى قاعة الاحتفالات من دون الالتقاء بشخص. كان هناك المزيد من الضوء ما أتاح الرؤية أمامنا، وأشارت ليندي إلى الإشعار بجانب الأبواب المزدوجة. كان مكتوبًا فيه بحروف بلاستيكية مرسومة بشكل مختلط: «حفل غداء جمعية ج. أ. المتخصصة في مطهرات البرك».

- «لا عجب في أننا لم نتمكن من العثور على هذا المكتب مع كل تلك الجوائز»، قالت. «هذه ليست القاعة الصحيحة».
- لا فرق. ما نسعى وراءه موجود هناك.

عبرنا قاعة الاحتفالات، قبل أن ندخل بحذر غرفة الطعام. كما كان الحال من قبل، فقد تم ترك ضوء خافت، كما كان الآن هناك بعض الضوء الطبيعي الذي وصل عبر نوافذ التهوية. لم يكن هناك أحد في الأرجاء، لكني حين نظرت إلى المناضد الطويلة أدركت أننا في ورطة.

قلت: «يبدو كأن شخصًا ما كان هنا».

- «نعم». مشت ليندي بضع خطوات في الممر، وأخذت تنظر من حولها. «أجل. يبدو أن الطريق من هنا».

كانت كل الحاويات قد اختفت، كما الصواني، وعلب الحلوى، والأطباق ذات قبب الفضية التي رأيناها في وقت سابق. وقد حلَّت مكانها أكداس من الصحون النظيفة والمناديل التي وضعت على مسافات منتظمة.

- «حسنًا، لقد نقلوا كل الطعام إذن»، قلت. «السؤال هو، إلى أين؟».

مشت ليندي مسافة أبعد في الممر، ثم استدارت نحوي. «تذكر، ستيف، آخر مرة كنا فيها هنا، قبل أن يأتي ذانك الرجلان؟ كنا غارقين في نقاش حاد».

- نعم، أتذكر ذلك. لكن هل علينا التطرق إلى الأمر مجددًا؟ أعلم أنني تجاوزت حدودي.
- «نعم أنت محق، فلننس المسألة. أين هو الديك الرومي؟». أخذت تنظر من حولها أكثر. «هل تعرف يا ستيف؟ عندما كنت طفلة، لطالما أردت أن أصبح راقصة ومغنية. بذلت كل ما في وسعي، والله أعلم كم حاولت، ولكن الناس ضحكوا عليَّ ما جعلني أدرك بأن هذا العالم غير عادل بالمرة. فحتى وإن كنت قد ولدت بلا موهبة، مثلي، فإن الفرصة يجب أن تمنح لك، أن تجد موقعًا لك تحت نور الشمس، ليس من الضروري أن تصبح شخصية مشهورة. فالأمر لن يكون سهلًا. عليك أن تبذل جهدًا، ولا تلق بالًا لما يقوله الناس. لكن ثمة بالتأكيد فرصة أمامك».
- حسنًا، يبدو أنك قمت بالأمر كما يجب.
- مضحكة هي الطريقة التي يعمل بها هذا العالم. أنت تعرف، أعتقد أن الأمر يعكس بصيرة عميقة. من جانب زوجتك، أعني. أن تقول لك إن عليك إجراء هذه الجراحة.
- فلندعها خارج حديثنا. مهلًا، ليندي، هل تعرفين إلى أين يقودنا ذلك؟ هناك؟

كانت هناك في نهاية الغرفة، حيث تنتهي المناضد، ثلاث درجات تؤدي إلى باب أخضر اللون.

- «لم لا نجربه؟»، قالت ليندي.

فتحنا الباب بحذر مثل آخر مرة، ثم ولوهلة فقدت حسي بالاتجاهات كليًا إذ كان كل شيء مظلمًا للغاية وكلما حاولت أن أستدير اصطدمت بنسيج ستارة أو مشمع. بدت ليندي، التي كانت قد تولت حمل المصباح اليدوي، تتلمس طريقها بشكل أفضل قياسًا بي. ثم تعثرت بشيء ما في الظلام، حيث كانت تنتظرني، مثبتة وهج الضوء على قدميَّ.

- «لقد لاحظت»، قالت هامسة «بأنك لا تحب الحديث عنها. أعني، زوجتك».
- «ليس الأمر هكذا بالضبط»، همستُ بدوري. «أين نحن؟».
- ولم تأتِ مرة لزيارتك.
- هذا لأننا لم نعد حرفيًا قريبين من بعضنا الآن، بما أنك مصرة أن تعرفي.
- إنني آسفة. لم أقصد أن أكون فضولية.
- لم تقصدي أن تكوني فضولية؟!
- مهلًا يا حلو، انظر! إنها هنا! وجدناها!

كانت تشير إلى عارضة وضعت فوق طاولة على بعد مسافة قصيرة منا. كان عليها مفرش مائدة أبيض، قبتان فضيتان جنبًا إلى جنب.

مشيت إلى القبة الأولى ورفعتها بعناية. كان هناك ديك رومي مشوي ودسم، جاثمًا. بحثت عن تجويفه وأدخلتُ إصبعي.

- «لا شيء هنا»، قلت.
- عليك إدخال إصبعك أكثر. لقد دفعتُ الجائزة عميقًا إلى الداخل. هذه الطيور أوسع مما تعتقد.
- «أخبرتك أن لا شيء هناك. امسكي المصباح اليدوي هنا. سنجرب هذا الآخر». رفعت الغطاء عن الديك الرومي الثاني بعناية.
- أنت تعرف، يا ستيف، أعتقد أنك ترتكب خطأ إذ لا يجب أن تكون خجلًا من الحديث عن الموضوع.
- الحديث عن ماذا؟
- عن انفصالكما أنت وزوجتك.
- هل قلت إننا انفصلنا؟ هل قلت ذلك؟
- ظننت...

- قلت حرفيًا إننا لم نعد قريبين من بعضنا. هذا ليس الأمر نفسه.
- يبدو لي أنه الأمر نفسه...
- حسنًا، إنه ليس كذلك. إنها مرحلة مؤقتة، وضع نحاول معالجته. مهلًا، ثمة شيء ما هنا. يوجد شيء ما في داخله. وجدناها.
- إذن لم لا تخرجها يا حلو؟
- ما الذي تظنين بأنني أحاول فعله؟ بحق يسوع!! هل كان عليك دفعها حتى ذلك العمق؟
- شششش، ثمة شخص ما في الأرجاء!

بدا من الصعب بداية تحديد عدد الاشخاص الذين كانوا هناك. ثم مع اقتراب الصوت أدركت أنه رجل واحد فقط، وبأنه يتحدث بلا توقف على هاتفه الخلوي. كما أنني أدركت بالضبط أين كنا إذ اعتقدت بأننا نتجول في منطقة وراء الكواليس المبهمة، غير أننا في الواقع كنا على المسرح نفسه. أما الستارة قبالتي فقد كانت الشيء الوحيد الذي يفصلنا عن قاعة الاحتفالات. وأخذ الرجل الذي يتحدث على هاتفه الخلوي يذرع أرض قاعة الاحتفالات مقتربًا من خشبة المسرح.

أشارت عليَّ ليندي همسًا بأن أطفئ المصباح اليدوي وأتجه إلى الجانب المظلم. قالت: «دعنا نخرج من هنا»، وسمعتها تنسل مبتعدة. حاولت مرة أخرى سحب التمثال من الديك الرومي، إلا أنني خشيت أن أحدث ضوضاء، بالإضافة إلى ذلك فإن أصابعي لم تستطع سحب أي شيء.

استمر الصوت في الاقتراب حتى شعرت أن الرجل بات واقفًا أمامي تمامًا.

- هذه ليست مشكلتي، لاري. نريد الشعارات مطبوعة على قوائم الطعام. لا شأن لي كيف تفعل ذلك. إذن، خذ ذلك على عاتقك. بالضبط، افعل ذلك بنفسك واحضرها هذا الصباح، التاسعة والنصف كأقصى حد. نحن في حاجة إلى هذه القوائم هنا. الطاولات تبدو جيدة. هناك

الكثير من الطاولات، ثق بي. حسنًا. سأتحقق من ذلك. حسنًا حسنًا. بلى. سأتحقق من ذلك الآن.

في الجزء الأخير من المحادثة، كان صوته موجَّهًا نحو جانب واحد من الغرفة. لا بدَّ من أن يكون الآن قد شغَّل مفتاح إضاءة ما على لوح ما، بسبب أن شعاعًا مبهرًا انطلق فوقي مباشرة، كما أطلق ضوضاء وأزيزًا وكأنَّ مكيفًا بدأ يعمل. فأدركت أن الصوت ليس أزيز مكيف هواء، وإنما هو صوت الستائر ترفع أمامي.

واجهت الأمر هذا مرتين خلال مسيرتي المهنية. ففيما أستعد على خشبة المسرح، لدوري في العزف المنفرد، يصيبني الأمر فجأة، فلا أعرف كيف أبدأ، ولا المقام الموسيقي الذي أنا فيه، ولا كيف تغيَّر التناغم. في المرتين اللتين حدث فيهما ذلك، تجمدت في مكاني، كما لو أنني في لقطة من فيلم، إلى أن تدخل أحد رفاقي العازفين لإنقاذي. مرتان فقط حدث الأمر خلال مسيرتي الاحترافية على مدى عشرين عامًا. على أية حال، هكذا كانت الطريقة التي تفاعلت بها مع توهج الأضواء من فوقي وتحرك الستارة. تجمدت وحسب شاعرًا بانفصال غريب عن كل شيء. كما أحسست بنوع من الفضول الخفيف فيما يتعلق بما سوف أراه بمجرد رفع الستارة.

مثلت أمامي قاعة احتفالات، وبالأفضلية التي تتيحها الرؤية من المسرح استطعت أن أقدر بشكل أفضل الطريقة التي وضعت بها الطاولات في صفين متوازيين من الأمام إلى الخلف. أما الضوء المركَّز فوقي فقد منح الغرفة بعض الظل، إلا أنني استطعت تمييز الثريا والسقف المزخرف.

كان رجل الهاتف الخلوي أصلع بوزن زائد يرتدي بدلة شاحبة وقميصًا مفتوح الياقة. ولا بدَّ من أن يكون قد ابتعد عن الحائط بعد أن نقر المفتاح، لأنه كان الآن على ارتفاع متساو ظاهريًّا معي. كان يضغط هاتفه على أذنه، ومن تعابيره يمكنك أن تقول إنه مصغٍ باهتمام زائد لما يقال على الجهة الأخرى.

لكني أفترض أنه لم يكن كذلك، لأن عينيه كانتا مثبتتين عليَّ، بل بقي أحدنا يحدِّق إلى الآخر، وربما كان الأمر سيستمر على هذا الحال إلى أجل غير مسمى لو لم يقل على الهاتف، ربما ردًّا على سؤال حول سبب إنزعاجه:

- «كل شيء على ما يرام. كل شيء على ما يرام. إنه أحد الأشخاص». ثم توقف قليلًا، ليقول بعدها: «اعتقدت لوهلة بأنه شيء آخر. لكنه رجل. برأس ملفوف بالضمادات، يرتدي روبًا. هذا كل ما في الأمر، وأنا أراه الآن. هناك دجاجة أو شيء من هذا القبيل في يده».

معدلًا وقفتي بشكل مستقيم، مددت ذراعيَّ غريزيًّا وأخذت أهزهما. كانت يدي اليمنى لا تزال داخل الديك الرومي فوق مستوى المعصم، وقد شدها وزن التوليفة تلك إلى أسفل ليحدث صوت ارتطام. على الأقل لم يعد عليَّ الآن القلق بشأن إخفاء نفسي، لذا واصلت ما أفعله، من دون أية قيود، في محاولة لتخليص يدي والتمثال الصغير. فيما تابع الرجل خلال ذلك، حديثه على هاتفه.

- لا، إنه بالضبط مثلما أقوله. والآن خلع دجاجته. أوه، وها هو يخرج شيئًا منها. مهلًا، يا أخي، ما هذا؟ تمساح؟

توجه إليَّ بهذه الكلمات بلامبالاة مثيرة للإعجاب. لكني كنت أحمل الآن التمثال الصغير في يدي فيما سقط الديك الرومي على الأرض محدثًا صوتًا مكتومًا. وعندما هرعت باتجاه الجهة المظلمة ورائي سمعت الرجل يقول لصديقه:

- وكيف لي أن أعرف بحق الجحيم؟ ربما هو عرض سحري.

لا أذكر كيف عدنا إلى طابقنا، إذ ضعتُ في فوضى الستائر المنطلقة من المسرح، قبل أن تجرني ليندي من يدي. بعد ذلك، كنا نمشي في الفندق مسرعين، من دون أن نبالي بأي ضوضاء قد نتسبب بها أو بمن يمكن أن يرانا. وفي طريقنا، وضعت التمثال على صينية خارج غرفة نوم، بجانب بقايا تركها أحد النزلاء من عشائه.

حين وصلنا إلى غرفتها، ارتمينا بتثاقل على الأريكة وضحكنا. ضحكنا إلى حد أن الواحد منا اتكأ على الآخر، ثم نهضتْ، ومشت إلى النافذة لترفع الستائر ذات الاضلاع، رغم أن الصباح كان معتمًا. ذهبت إلى خزانتها لتحضر كوكتيلًا من المشروبات - الكوكتيل الأكثر جاذبية في العالم من دون كحول- وأحضرت لي كأسًا. ظننت أنها ستجلس إلى جانبي، لكنها اتجهت نحو النافذة لتحتسي من كأسها هناك.

- «هل تتطلع إلى ذلك يا ستيف؟»، قالت، «إلى إزالة الضمادات؟».
- نعم. أفترض ذلك.
- حتى خلال الأسبوع الماضي لم أفكر في الأمر كثيرًا. بدا لي الأمر بعيد المنال. لكنه الآن لم يعد كذلك.
- «هذا صحيح»، قلت. «لم يتبق وقت طويل أمامي أيضًا». ثم قلت بهدوء: «يا إلهي».

رشفت بعضًا من شرابها ونظرت عبر النافذة. ثم سمعتها تقول: « ما الأمر أيها الحلو؟».

- إنني بخير. أنا فقط بحاجة إلى بعض النوم، هذا كل ما في الأمر.

ظلت تنظر إليَّ لفترة من الوقت. «أخبرتك، ستيف»، قالت في النهاية. «سيكون الأمر على ما يرام. بوريس أفضل جراح. سترى».

- نعم.
- مهلًا، ما خطبك؟ اسمع، هذه المرة الثالثة لي في الجراحات التجميلية. والثانية مع بوريس. سيكون كل شيء على ما يرام. ستبدو رائعًا، رائعًا وحسب. أما حياتك المهنية فستنطلق كالصاروخ.
- ربما.
- لا ربما في هذا الموضوع! سيكون هناك فرق شاسع، صدقني. ستظهر في المجلات، وفي التلفزيون.

لم أعلق على هذا.

- «هيا، تشجع!»، اقتربت مني بضع خطوات. «ابتهج! أنت لست غاضبًا مني، أليس كذلك؟ لقد شكلنا فريقًا رائعًا، أليس كذلك؟ وسأخبرك بأمر آخر. سأظل من الآن فصاعدًا جزءًا من فريقك. فأنت عبقري لعين، وسأحرص على أن تسير أمورك على ما يرام».
- «لن يجدي الأمر نفعًا يا ليندي». هززت رأسي. «لن يجدي نفعًا».
- أنت تتفوه بترهات. سأكلم الأشخاص المناسبين. الأشخاص الذين بإمكانهم القيام بالكثير من أجلك.

بقيت أهزُّ رأسي. «أقدر ذلك. لكن سيكون من دون فائدة. لن يجدي الأمر نفعًا. لم يكن ليجدي نفعًا على أية حال. لم يكن يجدر بي الإصغاء إلى برادلي».

- هيا، صحيح أنني قد لا أكون متزوجة من طوني حينها، لكن لا يزال لدي أصدقاء جيدون كثر في هذه المدينة.
- بالتأكيد، ليندي، أعرف ذلك. لكن سيكون ذلك من دون فائدة، برادلي، إنه مديري، هو من أقنعني بكل هذا. يا لي من أحمق كوني استمعت إليه، لكن لم يسعني الاعتراض. كنت أمر بأسوأ ظروفي، ثم خرج بهذه النظرية. قال إن زوجتي هيلين خططت لكل هذا. وإنها لم تهجرني بعد. بل إن الأمر جزء من مخطط أعدت له. وإنها تقوم بكل ذلك من أجلي، بحيث أتمكن من إجراء هذه الجراحة. وحين أزيل الضمادات عن وجهي، ويصبح لدي وجه جديد، ستعود إليَّ مرة أخرى. هذا ما قاله برادلي. حتى حين تفوه بهذا الكلام كنت أعلم أنه هراء. لكن هل كان بيدي حيلة؟ اشتمل الأمر على أمل ما على الأقل. استغله برادلي، استغله، هكذا هو، هل تعلمين؟ إن حياته بائسة. كل ما يفكر فيه هو تحقيق الأرباح. والنجومية. ماذا يهمه إن عادت هيلين أم لا؟

صمتُّ. ولم تقل هي أي شيء لوقت طويل.

ثم قالت:

- «انظر، يا حلو، اسمع. آمل أن تعود زوجتك. إنني حقًّا آمل ذلك. لكن إذا لم تعد، حسنًا، ينبغي عليك أن تكوّن رؤية خاصة بك. لربما كانت شخصًا رائعًا، لكن الحياة أكبر بكثير من مجرد قصة حب. عليك الخروج من هذا الوضع يا ستيف. شخص مثلك، أنت لا تنتمي للجمهور. انظر إليَّ. حين تُزال هذه الضمادات، هل سأبدو حقًّا كما كنتُ قبل عشرين عامًا؟ لا أعرف. لقد مضى وقت طويل منذ انتقالي من زوج إلى زوج. لكني سأطفئ تلك المرحلة بأية حال وأخرج منها». ثم اقتربت وضغطت على كتفي. «مهلًا. أنت فقط متعب وستشعر بتحسن كبير بعد قسط من النوم. أصغِ إلي. بوريس هو الأفضل. سيصلح كل شيء، لكلينا. سترى».

وضعت كأسي على الطاولة ووقفت. «أظن أنك محقة. فمثلما تقولين، بوريس هو الأفضل. وقد شكلنا فريقًا جيدًا هناك».

- شكلنا فريقًا رائعًا هناك.

اقتربت منها، ووضعت يديَّ على كتفيها، ثم قبلت خديها من فوق الضمادات. «أتمنى لكِ نومًا هانئًا»، قلت لها. «سأزورك قريبًا للعب مزيد من أدوار الشطرنج».

غير أنّنا لم نتقابل كثيرًا بعد ذلك الصباح. عندما تأملت المسألة لاحقًا، فكرت في أنني تفوهت بأشياء تلك الليلة، أشياء ربما كان عليَّ الاعتذار عنها، أو على الأقل محاولة شرحها. رغم ذلك، فإننا حين عدنا إلى غرفتها، وضحكنا على الأريكة، لم يكن من الضروري، أو حتى من الصواب، إسترجاع كل ذلك مرة أخرى. عندما افترقنا ذلك الصباح، اعتقدت أن كلينا تجاوز الأمر. رغم ذلك، رأيت كيف يمكن لليندي أن تتبدل. ولربما قد تكون أعادت التفكير في

المسألة كلها لاحقًا وهي تشعر بالغضب حيالي. من يعلم؟ انتظرت مكالمة منها لاحقًا في اليوم التالي، إلا أن إشارة منها لم تصلني، ولا حتى مكالمة. بدل ذلك، فقد استمتعت بسماع تسجيلات طوني غاردنر من خلال الجدار، وقد شغلتها بأعلى مستوى صوت ممكن، أغنية تلو الأخرى.

حين ذهبت إلى غرفتها، بعد أربعة أيام ربما، رحبت بي، لكنها كانت باردة. ومثلما فعلت في المرة الأولى، فقد تحدثت كثيرًا عن أصدقائها ذوي الشهرة - لكن أيًّا من ذلك لم يكن له علاقة بمساعدتهم لي في مسيرتي المهنية. مع ذلك، لم أكترث للأمر. لعبنا الشطرنج، لكن هاتفها ظل يرن ما استدعى منها الذهاب إلى غرفة نومها للتحدث.

ثم قبل أمسيتين، طرقت بابي، قائلة إنها سوف تغادر الفندق. كان بوريس مسرورًا بنتيجة عمليتها، ووافق على إزالة الضمادات عن وجهها في منزلها. تودَّعنا بطريقة ودية، لكن بدا لي أن وداعنا قد تم فعلًا قبل ذلك، تحديدًا في ذلك الصباح مباشرة بعد انتهاء مغامرتنا، عندما دنوت من وجهها وقبلتها على خديها.

هذه هي حكاية الوقت الذي أمضيته مع ليندي غاردنر. وأتمنى لها كل الخير. أما بالنسبة لي، فلا يزال أمامي ستة أيام، قبل أن يكشف عن وجهي وأيام كثيرة أطول قبل أن يسمح لي بالنفخ في آلتي. لكني بت معتادًا على هذه الحياة الآن، وأنا أكافح لأمرر الساعات. بالأمس تلقيت مكالمة من هيلين تسألني كيف حالي، وحين أخبرتها بأنني تعرفت إلى ليندي غاردنر، تأثرت جدًّا وعلى نحو سلبي.

- «ألم تتزوج مرة أخرى؟»، سألت. وحين شرحت لها الأمر، قالت: «آه، هذا صحيح. لا بدَّ من أنني كنت أفكر في تلك الأخرى. ما اسمها؟».

تحدثنا عن أشياء كثيرة عديمة الأهمية - ما شاهدته على شاشة التلفزيون، وكيف زارتها صديقتها مع طفلها. ثم قالت إن برندرغاست يسأل عني، وحين

قالت ذلك، كانت هناك غصة واضحة في صوتها. وكنت على وشك أن أقول: «مرحبًا! هل تبيَّنتُ للتو إشارة على وجود انزعاج متعلق باسم ذلك الحبيب؟». لكني لم أفعل. أخبرتها أن تسلم عليه. ولم تذكره مرة أخرى. قد يكون الأمر برمته من صنيع مخيلتي. على أية حال، كل ما أعرفه هو أنها أرادت أن تجرني لأقول كم إنني ممتن له.

وحين أوشكت على إنهاء المكالمة، قلت لها: «أحبك» بتلك الطريقة السريعة والروتينية التي تقال في نهاية مكالمة مع شريك. ساد صمت بيننا لبضع ثوان، ثم قالت الكلمة نفسها، بالطريقة الروتينية نفسها. بعدها أقفلت الخط. الله يعلم ماذا يعني كل ذلك. ليس أمامي الكثير لفعله الآن، على ما أظن، عدا انتظار إزالة هذه الضمادات. وماذا بعد ذلك؟ ربما ليندي محقة. ربما، كما تقول، أحتاج إلى رؤية، وإن الحياة أكبر بكثير من حب شخص ما. إنها ربما نقطة تحول بالنسبة لي، وأن النجومية في انتظاري. هي ربما على حق.

عازفا التشيللو

مكتبة

كنا نعزف موسيقى «العرَّاب» للمرة الثالثة منذ انقضاء فترة الغداء، لذا رحت أنظر إلى السائحين الجالسين في الساحة لأعرف عدد الذين كانوا موجودين هناك عند عزفنا المقطوعة آخر مرة. لا مانع لدى الناس في أن يستمعوا إلى موسيقاهم المفضلة أكثر من مرة، إلا أنك لا تستطيع فعل ذلك كل الوقت وإلا تملكتهم الشكوك بأنك لم تتمرن جيدًا على أغان أخرى. لكن، لا بأس خلال هذه الفترة من العام، في أن تعيد عزف النمرة نفسها مرارًا وتكرارًا. فأولى ملامح الخريف وسعر القهوة القليل يكفلان وتيرة حضور ثابتة للزبائن. لهذا السبب، رحت أتفحص وجوه الجالسين في الساحة فرأيت تيبور.

كان يلوِّح بذراعه واعتقدت بداية بأنه يلوِّح لنا، لكني سرعان ما أدركت أنه كان يحاول جذب انتباه النادل. بدا أكبر سنًّا، وقد اكتسب بعض الوزن، لكن لم يكن من الصعب التعرف عليه. وكزت فابيان الذي كان بجانبي على الأكورديون، وأومأت له برأسي نحو الشاب، رغم أني لم أستطع رفع يدي عن الساكسفون لأشير إليه كما ينبغي. كان ذلك حين تجلى لي بوضوح، وأنا أتذكر الفرقة، بأنه لم يتبق أحد من مجموعتنا، عداي وفابيان، منذ ذلك الصيف الذي التقينا فيه بتيبور.

حسنًا، حدث الأمر قبل سبع سنوات، لكنه لا يزال مثيرًا للصدمة، إذ أنك تبدأ في الشعور، حين تعزف مع الفرقة نفسها كل يوم، بأنها أصبحت عائلتك نوعًا ما، وأن أفرادها أشقاؤك. وإذا ما حدث وانتقل شخص من فرقتك بين

حين وآخر، تفكر، وهذه رغبتك، بأنه سيظل دائمًا على اتصال، أو أنه سيرسل بطاقات بريدية من فينيسيا أو لندن أو من مكان أمكنه الوصول إليه، ربما صورة بولارويد للفرقة التي انضم إليها الآن - كأن يكتب إلى قريته القديمة ملاحظات على جانب من الأهمية عن حياته. لذا، تأتي لحظة كهذه كتذكير غير مرغوب فيه بسرعة تغير الأشياء، وكيف أن أصحاب اليوم الحميميين سيصيرون غرباء غدًا، متناثرين في أوروبا، عازفين موسيقى «العرَّاب» أو «أوراق الخريف» في الساحات والمقاهي التي لن تزورها في حياتك.

بعد انتهائنا من نمرتنا، نظر إليَّ فابيان بطريقة خبيثة، تعبيرًا عن انزعاجه من وكزي له خلال تأديته «فقرته الخاصة» - التي لا تعتبر صولو بالضبط، وإنما إحدى اللحظات النادرة التي يتوقف فيها الكمان والكلارينت عن العزف، فأنفخ بضع نوتات هادئة في الخلفية، فيما يضبط هو اللحن بأكمله على أكورديونه. وحين حاولت أن أشرح له الأمر، بالاشارة إلى تيبور، الذي أخذ يحرك قهوته الآن تحت المظلة الكبيرة، بدا أن فابيان يعاني مشكلة في التذكر. فقال في النهاية:

- آه، نعم، إنه ذلك الشاب عازف التشيلو. أتساءل ما إذا كان لا يزال مع تلك المرأة الأميركية.
- «طبعًا لا»، قلت. «ألا تتذكر؟ لقد انتهى كل شيء بينهما في لحظة ما».

تجاهل فابيان الأمر، مركزًا اهتماهه على ورقة النوتات الموسيقية، قبل بدء نمرتنا التالية.

شعرت بخيبة أمل لعدم إظهار فابيان مزيدًا من الاهتمام، لكن يخيل لي بأنه لم يكن في أية مرة أحد أولئك المهتمين بشكل خاص بعازف التشيلو الشاب. فابيان، كما ترى، لم يعزف الموسيقى قط خارج الحانات والمقاهي. وهو يختلف عن جيانكارلو، عازف الكمان معنا في تلك الفترة، أو إرنستو، عازف آلة الباص. فهما تلقيا دروسًا أكاديمية في الموسيقى، وبالنسبة إليهما، يظلُّ شخص مثل تيبور مثيرًا للدهشة في كل الأوقات. ربما حملا بعض الغيرة تجاهه - فيما يتعلق بتلقي تيبور أرقى مستويات التعليم موسيقيًّا، وحقيقة أن مستقبله أمامه.

لكن ومن باب الانصاف، أعتقد أنهما أحبا أخذ تيبور وأمثاله في هذا العالم تحت جناحهما، والاعتناء بهم قليلًا، وتهيئتهم ربما لما ينتظرهم مستقبلًا، بحيث لا يكون صعبًا عليهم تحمل وطأة خيبات الأمل، إذا ما حلت.

كان ذلك الصيف قبل سبع سنوات حارًّا على نحو استثنائي، حتى في مدينة كمدينتنا، ذلك أننا شهدنا أوقاتًا ستظن فيها بأننا على البحر الأدرياتيكي. عزفنا في الهواء الطلق لمدة تزيد على أربعة أشهر - تحت سقيفة المقهى، في مواجهة الساحة وجميع الطاولات - ويمكنني القول إننا كنا ننجز ما هو مطلوب منا تحت وطأة الحر الشديد رغم تشغيل مروحتين كهربائيتين أو ثلاث من تلك التي تئز من حولك. لكنه كان موسمًا نشطًا، ومر بنا العديد من السائحين كان كثير منهم من ألمانيا والنمسا، فضلًا عن سكان البلاد المحليين ممن أرادوا الفرار من القيظ إلى الشواطئ. كان ذلك هو الصيف الذي بدأنا نلاحظ فيه لأول مرة وجود روس. أما اليوم فلا أميِّز السائحين الروس إذ يبدون كالآخرين. لكنهم في ذلك الوقت، كانوا من الندرة بحيث تتسمر في أرضك وتحدِّق إليهم. كانوا يرتدون ملابس غريبة ويتحركون مثل أطفال جدد في المدرسة. في المرة الأولى التي رأينا فيها تيبور كنا في فترة استراحة بين وصلتي غناء، نسلي أنفسنا عند مائدة القهوة الكبيرة التي وضعت دومًا إلى جانبنا. جلس إلى طاولة قريبة منا، وكان ينهض بين فينة وأخرى ليعيد موضعة حقيبة التشيللو الخاصة به لإبقائها في الظل.

- «انظر إليه»، قال جيانكارلو. «طالب موسيقى روسي ليس لديه مدخول يعيله. ماذا يفعل إذن؟ يقرر إهدار ماله على شرب القهوة في الساحة الرئيسية».
- «لا شكَّ في أنه أحمق»، قال إرنستو. «لكنه أحمق رومانسي. يسعده أن يتضور جوعًا، طالما أنه يجلس في ساحتنا بعد ظهر كل يوم».

كان نحيلًا، بشعر رملي، يرتدي نظَّارة غير عصرية - بإطار ضخم جعله يبدو كحيوان باندا. كنا نراه يومًا بعد يوم، ولا أتذكر كيف حدث الأمر بالضبط،

لكنَّنا بعد فترة بدأنا نجلس للتحدث إليه بين وصلة ووصلة. بل كنا ندعوه في بعض الأحيان، إلى الجلوس معنا، إذا حدث وجاء إلى المقهى أثناء جلستنا المسائية، فنقدم له النبيذ والقطع الصغيرة من الخبز المحمص أو المقلي التي تسمى كروستيني.

سرعان ما اكتشفنا أن تيبور مجري وليس روسيًّا، وأنه ربما أكبر سنًّا مما يبدو عليه، إذ أنَّه درس بالفعل في الأكاديمية الملكية للموسيقى في لندن، ثم أمضى عامين في فيينا تحت قيادة أوليغ بتروفيتش. وبعد بداية صاروخية مع المايسترو العجوز تعلم أن يتعامل مع نوبات غضبه الأسطورية ليغادر فيينا ممتلئًا بالثقة - بغرض العزف في أماكن مرموقة، حتى وإن كانت صغيرة، في جميع أنحاء أوروبا. لكن حفلاته بعد ذلك بدأت تُلغى بسبب انخفاض عدد الحضور؛ فأُجبر على عزف موسيقى يكرهها؛ إذ أن الإقامة أثبتت إما أنها مكلفة أو بائسة.

لذا، كان في حاجة ماسة إلى مهرجان الفنون والثقافة الذي تنظمه المدينة - وهو السبب في قدومه إلى هنا في ذلك الصيف - وعندما عرض عليه صديق قديم من الأكاديمية الملكية شقة مجانًا قرب القناة للإقامة فيها، قبل من دون تردد. أخبرنا بأنه لطالما استمتع بمدينتنا، لكن المال شكل دومًا عائقًا، ورغم تلقيه عروضًا في مناسبة هنا أو هناك، إلا أنه تحتم عليه التفكير مليًّا في خطوته التالية.

بعد أن استمعا إلى مخاوفه تلك، قرر جيانكارلو وإرنستو أن نحاول جميعًا القيام بشيء من أجله. وهكذا التقى تيبور بالسيد كوفمان، من أمستردام، وهو قريب بعيد لجيانكارلو يتمتع بشبكة علاقات واسعة في عالم الفنادق.

أتذكر ذلك المساء جيدًا. كان في بداية الصيف، وجلسنا جميعًا، في الداخل، في الغرفة الخلفية للمقهى أنا والسيد كوفمان، وجيانكارلو، وإرنستو، وبقية المجموعة، نصغي إلى تيبور عازفًا على التشيللو الخاص به. ولا بد أن يكون الشاب قد أدرك بأنه يخضع لاختبار السيد كوفمان، ومن المثير للاهتمام أن نتذكر كيف كان متحمسًا للأداء تلك الليلة. كان واضحًا امتنانه لنا، وأمكنك أن ترى سعادته عندما وعده السيد كوفمان بفعل كل ما يلزم بعد عودته إلى

أمستردام. عندما يقول الناس إن سلوك تيبور قد تغير للأسوأ لاحقًا في ذلك الصيف، وإنه أصبح يتصرف كشخص بالغ الأهمية، وإن ذلك كله كان من أجل الفوز بقلب تلك المرأة الأميركية، حسنًا، ربما يكون شيءٌ من هذا صحيحًا.

انتبه تيبور لوجود المرأة بينما كان يحتسي قهوته الأولى لذلك اليوم. كانت الساحة رائعة على نحو يوحي بالبهجة في تلك اللحظة - ذلك أن آخر المقهى يبقى مظللًا معظم أوقات الصباح - كما كانت أحجار الرصيف لا تزال مبتلة بفعل خراطيم مياه عمال المدينة. لم يطلب وجبة فطور، لكنه ظل يراقبها بحسد وهي في الطاولة التالية تأمر بسلسلة من توليفات عصير الفاكهة، ثم - وكمجرد نزوة على الأرجح، بحكم أن الساعة لم تكن تجاوزت العاشرة صباحًا - طبقًا من بلح البحر المطهو على البخار. تولّد لديه انطباع غامض بأن المرأة كانت، من ناحيتها، تسترق النظر إليه، لكنه لم يفكر كثيرًا في الأمر.

- «بدت جميلة جدًّا، ساحرة»، قال لنا. «لكنها، كما ترون، تكبرني بعشر سنوات أو خمس عشرة سنة على الأقل. فما الذي يدفعني للتفكير بأن شيئًا ما قد يحدث بيننا؟».

كان قد نسي أمرها ويستعد للعودة إلى غرفته للتمرن بضع ساعات قبل أن يدخل جاره لتناول طعام الغداء ويشغّل جهاز الراديو، عندما رأى تلك المرأة فجأة تقف أمامه.

كانت تبتسم ببهجة، وكل شيء في أسلوبها أشار إلى أنهما يعرفان بعضهما فعلًا. الواقع أن خجله الطبيعي هو ما منعه من أن يلقي التحية عليها، قبل أن تضع يدها على كتفه، كما لو أنه فشل في اختبار وصُفِح عنه، قائلة:

- «لقد حضرت عزفك الموسيقي المنفرد في ذلك اليوم. في سان لورينزو». «شكرًا لكِ»، أجاب رغم علمه بمدى حماقة ما قاله. لكن حين واصلت المرأة رسم الابتسامة على وجهها، قال: «أوه نعم، كنيسة سان لورينزو. هذا صحيح. لقد أقمت فعلًا حفلًا موسيقيًّا منفردًا هناك».

ضحكت المرأة، لتأخذ مكانها على كرسي أمامه. «قلت إن لديك سلسلة طويلة من الارتباطات في الآونة الأخيرة»، قالت وصوتها يشي ببعض التهكم.

- إذا كان الأمر كذلك، فيجب أن أكون منحتك انطباعًا مضللًا. الحفل الذي حضرتِه هو الوحيد الذي أقمته في غضون شهرين.
- «لكنك بدأت للتو»، قالت. «وسوف تنجز بنجاح أية ارتباطات توكل إليك. كما أن الجمهور في ذلك اليوم كان غفيرًا».
- جمهور غفير؟ لم يكن هناك سوى أربعة وعشرين شخصًا.
- كان الحفل بعد الظهر. وهذا جيد بالنسبة إلى حفلة عزف منفرد بعد الظهر.
- لا ينبغي عليَّ التذمر. مع ذلك، لم يكن ذلك الجمهور غفيرًا. كان أي سائح غير موهوب ليحقق نتيجة أفضل.
- «آه! لا تأخذ الأمر على أنه غير جدير بالاهتمام. فبعد كل شيء، كنتُ هناك. واحدة من أولئك السائحين». وحين أخذ وجهه يحمر - لأنه لم يقصد الإهانة - لمست ذراعه وقالت والابتسامة لا تزال على وجهها: «أنت ما تزال في أول انطلاقتك الآن. لا تقلق بشأن حجم الجمهور. هذا ليس السبب الذي تؤدي لأجله».
- آه؟ لمن إذن أؤدي إن لم يكن للجمهور؟
- ليس هذا ما قلتُه. بل أقول إنك في هذه المرحلة من مسيرتك المهنية، لا يجب أن يهمك الجمهور، سواء أكان عشرين نفرًا أم مئتين. هل تريد أن أقول لك لم؟ لأنك تمتلكها.
- أمتلكها؟
- تمتلكها. هذا مؤكد. لديك... الإمكانية.

حبس ضحكة فظة على شفتيه. فقد شعر بتأنيب أكبر تجاه نفسه قياسًا بها، إذ توقع أن تقول «العبقرية» أو على الأقل «الموهبة». وقد صدمه فورًا كيف يمكن أن يكون قد ضلل نفسه ليتوقع أن ينال مثل هذا التعليق. لكن المرأة واصلت كلامها:

- في هذه المرحلة، كل ما تفعله هو انتظار شخص ما ليصل ويصغي إليك. وقد يكون من السهل أن تجد ذلك الشخص في غرفة مثل تلك الغرفة يوم الثلاثاء وسط جمهور قوامه عشرون شخصًا فقط.
- كانوا أربعة وعشرين، ما عدا المنظمين.
- أربعة وعشرون. فليكن. ما أقوله هو أن عدد الجمهور ليس مهمًّا في هذه اللحظة. ما يهم هو الشخص المناسب.
- هل تشيرين إلى شخص من إحدى شركات التسجيل؟
- شركات التسجيل؟ آه لا، لا. وإلا لكان هذا الأمر سهلًا. لا، قصدت شخصًا يجعلك تتألق. الشخص الذي حين يسمعك يدرك بأنك لست مجرد عازف متوسط الإمكانيات تلقى تدريبًا جيدًا. بأنك حتى وإن كنت لا تزال داخل شرنقتك، فإنك في حاجة إلى مساعدة ما كي تنطلق كالفراشة.
- فهمت. هل يمكن أن تكوني، بأي شكل من الأشكال، ذلك الشخص؟
- آه، مهلًا! يمكنني أن أرى بأنك شاب لديه اعتزاز كبير بالنفس. لكن لا يبدو لي أنك محاط بالكثير من الموجِّهين المستعدين لفعل أي شيء يمكنهم من الوصول إليك. على الأقل ليسوا أشخاصًا ممن هم في مستواي.

كان على وشك أن يتخبط وبشكل فادح أمامها، فراح يتفحص سمات المرأة بعناية. خلعت الآن نظارتها الشمسية، وظهر أمامه وجه ودود ولطيف للغاية، ولكن بملامح بعيدة كل البعد عن أي غضب أو ربما انزعاج. استمر في النظر إلى وجهها، على أمل التعرف إليها في غضون لحظات، لكنه في النهاية أُجبر على قول:

- إنني آسف جدًّا. هل أنتِ موسيقية معروفة؟

- «أنا إيلويز ماكورماك»، أعلنت بابتسامة، ومدت يدها. ولسوء حظه، لم يعنِ الإسم شيئًا لتيبور الذي وجد نفسه في مأزق. أنبأته غريزته الأولى بأن يتظاهر بالاندهاش، وقال في الواقع: «حقًّا. مذهل للغاية». ثم أحجم عن ذلك مدركًا أن خداعه هذا لا يعد غير نزيه وحسب، ولكن من المحتمل أن يضعه في موقف محرج بعد ثوان، فعدَّل نفسه ليجلس بشكل مستقيم قائلًا:
- آنسة ماكورماك، إنه لشرف أن أقابلك. أدرك أن هذا سيبدو غير قابل للتصديق، لكني أستمحيك عذرًا بأن تغفري لشبابي وواقع نشأتي في الجزء الشرقي السابق، خلف الستار الحديدي. هناك العديد من نجوم السينما والشخصيات السياسية ممن يعدون أسماء ذائعة الصيت في الغرب، لكني لا أزال، حتى اليوم، جاهلًا بأسماء بعض منهم. لذا أرجو أن تغفري لي جهلي بالضبط بهويتك.
- «حسنًا... هذه صراحة جديرة بالثناء». ورغم كلماتها، إلا أنه كان واضحًا أنها شعرت بالإهانة، وبدا أن حماستها قد فترت الآن. وبعد لحظة صعبة، قال مرة أخرى:
- أنت موسيقية معروفة، أليس كذلك؟

أومأت برأسها، مثبتة عينيها على الساحة.

- «عليَّ الاعتذار مرة أخرى»، قال، «لقد كان حقًّا شرفًا عظيمًا أن يحضر شخص مثلك عزفي المنفرد. وهل أستطيع سؤالك عن الآلة التي تلعبينها؟».
- «مثلك تمامًا»، قالت بسرعة. «التشيللو. هذا هو سبب حضوري. حتى وإن كانت مجرد حفلة صغيرة متواضعة مثل التي أقمتَها، فإنني لا أستطيع منع نفسي. لا أستطيع تجاهل الأمر. ينتابني شعور بأن ثمة مهمة على عاتقي، أعتقد».
- مهمة؟

- لا أعرف ماذا يمكن تسميتها غير ذلك. أريد لعازفي التشيللو جميعًا اللعب بشكل جيد. بأسلوب جميل. فهم يعزفون في الكثير من الأحيان على غير هدى.
- عذرًا، لكن هل نحن عازفي التشيللو من يشعر فقط بالذنب لذلك الأداء الضال؟ أو أنك تشيرين إلى كل الموسيقيين؟
- ربما عازفو الآلات الأخرى أيضًا. لكنني عازفة تشيللو، لذا أستمع إلى زملائي الآخرين، وحين تلتقط أذني خطأ ما... كما تعرف، رأيت في ذلك اليوم، رأيت موسيقيين شبانًا يعزفون في بهو متحف سيفيكو وكان الناس يعبرون بهم مسرعين، لكني اضطررت للتوقف للاستماع. وكما تعلم، فعلت كل ما في وسعي حتى لا أقترب منهم وأخبرهم بالأمر.
- هل ارتكبوا أخطاء؟
- لم تكن أخطاء بالضبط. لكن حسنًا، لم يكن أداؤهم ملامسًا لوجدان المستمعين. لم يؤثر بي تقريبًا. لكن ها نحن ذا، إنني أسأل كثيرًا. أعلم أنني لا يجب أن أتوقع من الجميع الوصول إلى المستوى الذي وضعته لنفسي. لقد كانوا مجرد طلاب موسيقى على ما أعتقد.

استرخت على كرسيها مائلة إلى الخلف لأول مرة، ونظرت صوب النافورة المركزية حيث كان بعض الأطفال يضجُّون ويتراشقون بالماء. وفي النهاية، قال تيبور:

- قد تكونين شعرت بهذا الدافع أيضًا يوم الثلاثاء ربما. الرغبة في المجيء إليَّ وتقديم اقتراحاتك.

ابتسمت، غير أن وجهها أصبح في اللحظة التالية شديد الجديَّة. «لقد شعرت بذلك» قالت. «شعرت بذلك حقًّا، إذ إنني عند سماعك استطعتُ أن أسمع أيضًا كيف كنتُ ذات يوم. سامحني، قد يبدو هذا وقحًا جدًّا. لكن الحقيقة هي أنك لست على المسار الصحيح. وحين سمعتك تعزف رغبت في مساعدتك لكي تجد هذا المسار عاجلًا لا آجلًا».

- «عليَّ الإشارة إلى أنني درست على يد أوليغ بتروفيتش». ذكر تيبور ذلك بشكل قاطع وانتظر ردها، فرآها تحاول حبس ابتسامة، ما أثار دهشته.
- «بتروفيتش، نعم»، قالت. «في أيامه، كان بيتروفيتش موسيقيًّا يحظى باحترام بالغ. وأعلم أن عليه الظهور أمام تلامذته بصورة لائقة وقيِّمة. لكن بالنسبة إلى كثيرين منا الآن فإن أفكاره، بل نهجه بالكامل...»

هزت رأسها وفتحت يديها. وفيما بقي تيبور، الذي تملكه الغضب فجأة ولم يجد ما يقوله، يحدِّق إلى وجهها، وضعت يدًا على ذراعه. «لقد قلت ما يكفي. لا يحقُّ لي أكثر من ذلك. أتركك الآن بسلام».

نهضت، وقد هدَّأ تصرفها هذا من غضبه. كان لتيبور طباع رحبة، ولم يكن من طبيعته أن يستمر غضبه حيال أحد لفترة طويلة. إضافة إلى ذلك، فإن ما قالته المرأة للتوِّ عن معلمه القديم ضرب على وتر غير مريح في داخله - أفكار لم يجرؤ يومًا على التعبير عنها لنفسه. لذا، حين نظر إليها، كان وجهه يشي بالارتباك أكثر من أي شيء آخر.

- «انظر»، قالت. «قد تكون غاضبًا جدًّا مني بحيث لا تستطيع التفكير في الأمر. لكني راغبة في مساعدتك. وأنا أقيم في فندق إكسيلسيور، حال قررت التحدث في هذا الأمر».

ذلك الفندق، وهو الأضخم في مدينتنا، يقع في الطرف المقابل للساحة لو نظرت إليه من المقهى، وقد أشارت نحوه الآن لتيبور، ثم ابتسمت قبل أن تشرع في السير باتجاهه. كان لا يزال ينظر إليها عندما استدارت فجأة قرب النافورة المركزية، مفزِعةً بعض الحمائم، لتُلوِّح له بيدها قبل أن تكمل سيرها.

وجد نفسه، خلال اليومين التاليين، يفكر أكثر من مرة في لقائها. تذكر تلك الابتسامة المتكلفة التي رسمتها على فمها، وهو يعلن باعتزاز اسم بتروفيتش، الأمر الذي جعله يشعر بالغضب من جديد. إلا أنه حين تأمل الموضوع، أدرك

أن غضبه لم يكن فعليًا دفاعًا عن أستاذه القديم. بل لأنه اعتاد فكرة أن يترك اسم بتروفيتش دائمًا تأثيرًا معينًا في نفوس الآخرين، بما يمكنه التعويل عليه لجذب الانتباه والاحترام. بعبارة أخرى، فإنه يعول على اسمه باعتباره شهادةً يلوِّح بها متباهيًا في كل العالم. وما أثار ضيقه احتمال ألا تكون تلك الشهادة التقديرية حاملة للوزن الذي يفترض بها حمله.

ظل يتذكر دعوتها وهي تغادر. وخلال الساعات التي أمضاها جالسًا في الساحة، وجد أن نظراته تنحرف في كل مرة إلى ذلك الطرف البعيد، المدخل الكبير لفندق إكسيلسيور، حيث تتدفق سيارات الأجرة بشكل متواصل وتتوقف سيارات ليموزين فجأة أمام البواب. مكتبة

أخيرًا، وبعد ثلاثة أيام على محادثته مع إيلويز ماكورماك، مشى عبر الساحة، ليدلف رواق الفندق المكسو بالرخام طالبًا من مكتب الاستقبال أمامه وصله هاتفيًا بغرفتها. تحدث موظف الاستقبال في الهاتف، وسأل عن اسمه، ثم بعد حديث قصير مرَّر السماعة إليه.

- «إنني آسفة جدًّا»، سمعها تقول. «لقد نسيت أن أسألك عن اسمك في ذلك اليوم لذا استغرقني الأمر بعض الوقت لمعرفة هويتك. لكني لم أنسَك في الواقع، بل فكرت فيك كثيرًا. هناك نقاط كثيرة أود التحدث معك بشأنها. إلا أنك تعلم، علينا القيام بالأمر بالطريقة الصحيحة. هل أحضرت معك التشيللو الخاص بك؟ لا، طبعًا لم تفعل. لم لا تعود لاحقًا. بعد ساعة، بالضبط ساعة واحدة، وليكن التشيللو برفقتك. سأكون في انتظارك هنا».

حين عاد إلى إكسلسيور مع آلته، أشار له موظف الاستقبال فورًا نحو المصعد قائلًا له إن الآنسة ماكورماك تتوقع قدومه.

فكرة أن يدخل غرفتها، حتى وإن في منتصف ما بعد الظهيرة، صعقته على نحو مربك باعتبارها شيئًا حميميًا. غير أنه شعر بالارتياح عندما وجد نفسه في جناح فسيح، وغرفة النوم مغلقة كليًا ما يحول دون رؤيتها. أما النوافذ الفرنسية

الشاهقة فكانت مزودة بألواح خشبية ولها مصاريع، وقد طويت في الوقت الحالي إلى الخلف، ما سمح لستائر الدنتيل بالتمايل في النسيم. كما وجد بمجرد دخوله الشرفة أن بإمكانه رؤية الساحة من فوق. الغرفة نفسها، بجدرانها الحجرية الخام والأرضيات الخشب الداكنة، أوحت بجو الأديرة تقريبًا، وقد خففت الزهور والوسائد والأثاث العتيق من وطأته، وإن جزئيًا. أما هي، فكانت على النقيض من ذلك كله، ترتدي تي شيرت وسروالَ بدلة رياضية وحذاءً رياضيًا كذلك، كما لو أنها واصلة للتو من تمرين ركض. رحبت به بمجاملات صغيرة - من دون أن تعرض عليه شايًا أو قهوة - ثم قالت له:

- اعزف لي. اعزف شيئًا مما عزفته في تلك الأمسية.

أشارت إلى كرسي يلمع وضع بعناية في وسط الغرفة، فجلس عليه وأخرج التشيللو من علبته. أما هي، فجلست بقلق إلى حد ما، عند إحدى النوافذ الكبيرة بحيث أمكنه رؤيتها بشكل كامل تقريبًا، وظلت تحدق في المساحة الممتدة أمامها طوال الوقت فيما راح يدوزن آلته. إلا أنها لم تغير وضعيتها حين بدأ في العزف، ولم تنبس ببنت شفة عند وصوله إلى خاتمة مقطوعته الأولى. فانتقل بسرعة إلى مقطوعة ثانية، ثم ثالثة. نصف ساعة مرت، ثم ساعة كاملة. وبسبب الغرفة التي انتشرت فيها الظلال وصوت الأوتار المتقشف والعاري من أية زخرفة، وأشعة الشمس التي تناثرت عابرة ستائر الدنتيل المتمايلة لهبوب النسيم، والضوضاء الآتية من الساحة، وقبل أي شيء آخر وجودها معه، جعله يبدع نوتات موسيقية آتية من أعماق جديدة، واقتراحات جديدة. ومع مرور ساعة من الوقت تقريبًا، كان مقتنعًا بأنه أرضى توقعاتها وأكثر. لكن مع انتهائه من عزف آخر مقطوعة، ساد صمت بينهما لبعض الوقت، قبل أن تدير كرسيها نحوه في نهاية المطاف قائلة:

- أجل، إنني أتفهم تمامًا أي وضع أنت فيه. لن يكون سهلًا عليك، لكن بإمكانك فعل ذلك. مؤكد أن بإمكانك القيام بذلك. لنبدأ مع سوناتا التشيللو لبريتن. اعزفها مرة أخرى، الحركة الأولى فقط، ونتحدث بعدها. بإمكاننا العمل عليها معًا، خطوة بخطوة.

شعر عند سماعه كلامها، بأنه يريد أن يوضب آلته ويغادر. لكن غريزة أخرى بعد ذلك - وربما محض فضول وحسب، أو ربما شعور أعمق - غلبت كبرياءه وأجبرته على بدء عزف المقطوعة التي طلبتها من جديد. وحين أوقفته بعد عدة فواصل موسيقية وبدأت في التحدث معه، شعر مجددًا برغبة في الرحيل. لكنه اعتزم البقاء خمس دقائق أخرى بدافع التهذيب، متحملًا هذا البرنامج التعليمي الذي لم يطلبه أحد منها. ثم وجد بأنه يريد البقاء لوقت أطول قليلًا، ثم فترة أخرى أطول. عزف مقطوعات أخرى، وأدلت هي بتعليقاتها. صعقته كلماتها دائمًا في البداية كما لو أنها شخص مدَّع وكلامها غامض شديد التجريد، إلا أنه عندما حاول استيعاب طعنها في عزفه، دُهش من قوة أثرها، وذلك قبل أن يدرك أن ساعة أخرى قد انقضت للتو.

- «بإمكاني رؤية شيء ما فجأة»، قالت. «حديقة لم أدخلها من قبل. إنها على بعد مسافة ما. وثمة أشياء ملقاة على الطريق. لكني أراها للمرة الأولى.. تلك الحديقة. لم أرها من قبل».

كانت الشمس قد غابت تقريبًا حين غادر الفندق أخيرًا. عبر الساحة باتجاه طاولات المقهى ليمنح نفسه ترف تناول كعكة باللوز مع الكريمة المخفوقة، وبالكاد استطاع كبح إحساسه بالبهجة.

واظب خلال الأيام القليلة التالية على المجيء إلى الفندق بعد ظهر كل يوم، وكان يخرج دومًا محمَّلًا إن لم يكن بإحساس الوحي نفسه الذي عرفه في الزيارة الأولى، فعلى الأقل بشعور ممتلئ بالطاقة والأمل. وبالنسبة إلى تعليقاتها، فقد باتت أكثر جرأة، بل إن هذه التعليقات كانت لتبدو من وجهة نظر أي شخص غريب، لو كان هذا الشخص موجودًا معهما بالفعل، تعليقات متغطرسة. غير أن تيبور لم يعد بمقدوره أخذ تدخلاتها على هذا المحمل. كانت خشيته الكبرى الآن أن تنتهي زيارتها للمدينة، وبدأت هذه الفكرة تطارده، وتؤرق نومه، وترخي بظلالها عليه كلما خرج من الفندق إلى الساحة بعد جلسة

أخرى باعثة على البهجة. وكلما أثار معها مبدئيًا هذه المسألة جاءت ردودها غامضة وغير مطمئنة. «إلى أن يصبح الطقس شديد البرودة بالنسبة إليَّ». أو في مرة أخرى: «أعتقد أنني سأبقى هنا طالما لا شعور بالملل يداهمني في هذا المكان».

- «لكن كيف هو عزفها؟»، ظللنا نسأله، «على آلة التشيللو. كيف هو؟».

المرة الأولى التي طرحنا فيها هذا السؤال لم يقدم لنا تيبور إجابة وافية. قال فقط شيئًا من قبيل: «أخبرتني أنها كانت موسيقية مبدعة، منذ البداية»، ثم غيَّر الموضوع. لكن حين أدرك بأننا لن ندعه وشأنه في هذه المسألة تنهد وراح يشرح لنا.

الحقيقة أن تيبور، ومنذ جلستهما الأولى، شعر بفضول لسماع عزفها، لكنه خشي كثيرًا أن يطلب ذلك منها. شعر بوخزة شك، عندما جال بنظره في غرفتها، دون أن يرصد إشارة تدل على وجود آلة تشيللو. فقد كان من الطبيعي ألا تحضر آلتها التشيللو أثناء إجازتها. لكن يُحتمل أيضًا وجود آلة - قد تكون استأجرتها - في غرفة النوم خلف الباب المغلق.

لكن مع تواصل قدومه إلى الجناح طلبًا لمزيد من الجلسات، تعاظمت في نفسه الشكوك. لقد فعل ما في وسعه لدفعها خارج ذهنه، إذ إنه لم يعد لديه الآن أي تحفظات راسخة حول لقاءاتهما. فهي كانت، بالاستماع إلى عزفه، تطلق العنان لمستويات جديدة من الخيال في ذهنه، وغالبًا ما وجد نفسه، خلال الساعات الفاصلة بين جلسات ما بعد الظهر، يعدُّ لمقطوعة في ذهنه، مأخوذًا بتعليقاتها، وهز رأسها، عبوسها، وإيماءاتها المؤكدة، والأكثر متعة من كل ذلك اللحظاتُ التي تسافر فيها داخل المقاطع الموسيقية بأن تغمض عينيها وتبدأ يداها، ضد إرادتها بطريقة ما، في تظليل الحركات التي يقوم بها. رغم ذلك، فإن شكوكه لم تنته، إلى أن قدم إلى غرفتها في أحد الأيام ليجد باب غرفة النوم مفتوحًا جزئيًا ما مكَّنه من رؤية المزيد من الجدران الحجرية، وسرير مزود بأربعة أعمدة بدا كأنه من القرون الوسطى، لكن من دون أي أثر لتشيللو. هل

كان معقولًا أن تمضي متبحرة في عالم التشيللو في إجازة، ولفترة طويلة، من دون أن تلمس آلة موسيقية؟ هذا السؤال أيضًا دفعه خارج ذهنه.

مع مضي فصل الصيف، بدآ في إطالة حواراتهما عبر مجيئهما سويًّا إلى المقهى بعد نهاية كل جلسة، فكانت تسدد له ثمن القهوة والكعك وأحيانًا الساندويشات أيضًا. لم يعد حديثهما الآن مقتصرًا على الموسيقى - رغم أنهما كانا يعودان إلى هذا الموضوع دومًا مهما كان نوع الحديث. قد تسأله مثلًا عن الفتاة الألمانية التي تقرَّب منها في فيينا.

- «لكن عليك أن تفهمي بأنها لم تكن حبيبتي قط»، يقول لها. «لم نكن هكذا أبدًا».
- هل تقصد أنكما لم تكونا في علاقة حميمية جسديًّا؟ هذا لا يعني أنك واقع في حبها.
- لا، آنسة إيلويز، هذا ليس صحيحًا. لقد كنت مولعًا بها، بالتأكيد، إلا أننا لم نكن نعيش علاقة حب.
- لكنك حين عزفت رحمانينوف وأنت معي يوم أمس مرت بذهنك حادثة عاطفية نوعًا ما. كان حبًّا، حبًّا رومانسيًّا.
- لا، هذا غير صحيح. كانت صديقة جيدة، لكنَّنا لم نقع في الحب.
- لكنك عزفت ذلك المقطع الموسيقي كما لو أنه ذكرى حب. أنت يافع جدًّا، مع ذلك فقد اختبرت الهجر والتخلي. هذا هو سبب عزفك الحركة الثالثة بتلك الطريقة. معظم عازفي التشيللو يعزفونها مبتهجين. لكن بالنسبة إليك، فإن الأمر لا علاقة له بأية بهجة، بل بذكرى لحظات مبهجة انتهت إلى غير رجعة.

دارت أحاديثهما على هذا المنوال، وكثيرًا ما شعر بميل إلى سؤالها في المقابل. ومثلما لم يجرؤ قط على طرح أي سؤال شخصي على بيتروفيتش طيلة فترة تلقيه الدروس على يده، فإنه شعر الآن بعدم قدرته على طرح أي

سؤال جوهري حول حياتها. لكنه أسهب بدلًا من ذلك في التفاصيل الصغيرة التي كانت تتركها تتساقط بينهما في الأحاديث - كيف تعيش الآن في بورتلاند، أوريغون، وكيف انتقلت إلى هناك من بوسطن قبل ثلاث سنوات، وكيف تكره باريس «لذكرياتها الحزينة عنها». لكنه كان يتراجع عن الطلب منها أن تتوسع في الموضوع.

كانت تضحك الآن بسهولة أكبر قياسًا بما كانت عليه في الأيام الأولى لصداقتهما، كما أنها طورت الآن عادة شبك ذراعها بذراعه عند خروجهما من فندق إكسلسيور باتجاه الساحة. حدث هذا حين بدأنا نلاحظهما كثنائي مثير للفضول، وقد بدا أصغر سنًّا بكثير مما كان عليه في الواقع، فيما كانت هي أمومية الشخصية، أو «مثل ممثلة مغازلة» بطريقة ما، على حد قول إرنستو. في الأيام التي سبقت تبادلنا الحديث وتيبور اعتدنا الإسراف في الثرثرة عنهما بخمول، على جري عادة أعضاء الفرق الموسيقية. فإذا ما عبرا بنا، نظرنا إلى بعضنا قائلين: «ما الذي تظنونه؟ مؤكد كانا يفعلان ذلك الشيء، أليس كذلك؟». لكن وبعد استمتاعنا بالتخمينات إلى أقصى حد، كنا نهز أكتافنا معترفين لأنفسنا بأن الأمر غير محتمل: إذ لم يبد عليهما مظهر العاشقين. وبمجرد أن تعرفنا إلى تيبور، وبات يحدثنا عن فترات الظهيرة التي يقضيها في جناحها، لم يعد أحد منا يفكر في مضايقته أو إبداء ملاحظات مثيرة للسخرية. بعد ظهر أحد الأيام، وفيما كانا جالسين في الساحة وأمامهما قهوة وبعض الكعك، أخذت تتحدث عن رجل يرغب في الزواج منها. كان اسمه بيتر هندرسون ويدير عملًا ناجحًا في ولاية أوريغون لبيع معدات الغولف. كان ذكيًا، طيبًا، ويحظى باحترام كبير في المجتمع، ويكبر إيلويز بست سنوات، لكن لا يمكن اعتباره طاعنًا في السن. له طفلان صغيران من زواج سابق، لكنه نجح بتسوية الأمور بطريقة ودية مع طليقته.

- «أصبحت تعرف الآن سبب وجودي هنا»، قالت وهي تطلق ضحكة عصبية لم يسمعها منها من قبل. «إنني مختبئة. ليس لدى بيتر أدنى فكرة عن مكاني. أظنُّ أنه تصرف قاسٍ مني. اتصلت به الثلاثاء

الماضي، وأخبرته بأنني في إيطاليا، لكني لم أذكر المدينة. أبدى غضبه مني وأعتقد أن له الحق في ذلك».

- «إذن»، قال تيبور. «أنتِ تقضين الصيف للتفكير مليًا في مستقبلك».
- هذا غير صحيح. إنني مختبئة وحسب.
- ألا تحبين هذا البيتر؟

هزت كتفيها. «إنه رجل لطيف. كما أنه لا عروض كثيرة على طاولتي».

- وهذا البيتر. هل هو عاشق للموسيقى؟
- أوه... حيث أقيم الآن يُعتبر طبعًا عاشقًا للموسيقى اذ انَّه يذهب لحضور الحفلات الموسيقية على الأقل. ثم، يتلفظ في المطعم بالكثير من الملاحظات الحلوة حول ما سمعناه للتو. لذا أعتقد أنه عاشق للموسيقى.
- لكن... هل يقدِّرك؟
- «هو مدرك أن الأمر لن يكون سهلًا على الدوام، العيش مع متبحِّر في الفنِّ». تنهدت. «كانت تلك مشكلة بالنسبة إليَّ طوال حياتي. لن يكون الأمر سهلًا بالنسبة إليك أيضًا. لكن ليس لدى أي منا، أنا أو أنت، أي خيار فعليٌ. علينا أن نكمل طريقنا».

لم تذكر بيتر مرة أخرى، لكن الآن، ومع ذلك الحديث، فإن بعدًا جديدًا قد فُتِح في علاقتهما. فخلال لحظات التأمل الهادئة بعد انتهائه من العزف، أو عند جلوسهما معًا في الساحة، باتت تصير بعيدة، محدقة بالسقائف المجاورة، لكن من دون أن يكون هناك ما يبعث على القلق في تصرفها. لقد أدرك، بعيدًا عن أي شعور بالتجاهل، أنَّ وجوده إلى جانبها محل تقدير.

بعد ظهر أحد الأيام، وعند انتهائه من عزف مقطوعة موسيقية، طلبت منه أن يعزف مرة أخرى مقطعًا من لحن - ثماني فواصل موسيقية فقط - قريبًا من الختام، فقام بما طلبت منه ورأى أن التغضنات الصغيرة لم تغادر جبينها.

- «لا يبدو هذا نحن»، قالت، وهي تهز رأسها. كانت كالعادة، تجلس بشكل جانبي مقابل النوافذ الكبيرة. «كل ما عزفته غير ذلك كان جيدًا. كل ما تبقى غير ذلك، كان نحن. لكن تلك المقطوعة...». هزت جسمها في ارتعاشة خفيفة.

أعاد عزف المقطوعة مرة أخرى، بأسلوب مختلف، حتى وإن لم يكن على الإطلاق متأكدًا مما سعى إليه، ولم تدهشه رؤيتها تهز رأسها مرة أخرى.

- «إنني آسف»، قال. «ينبغي عليك التعبير عن نفسك بشكل أكثر وضوحًا. لم أفهم هذه الـ«ليست نحن».

- هل تقصد أنك تريدني أن أعزفها بنفسي؟ هل هذا ما تقوله؟

كانت تتحدث بهدوء، لكنه أدرك، وهي تستدير لتصبح قبالته تمامًا، أن توترًا ما يخيم بينهما شيئًا فشيئًا. حدَّقت إليه بثبات، وبشكل يكاد يكون تحديًا، في انتظار رده.

قال في النهاية: «لا، سأحاول مرة أخرى».

- لكنك تتساءل بينك وبين نفسك لم لا أعزف المقطوعة بنفسي وحسب، أليس كذلك؟ أن استعير آلتك وأبيِّن لك ما أعنيه.

- «لا...» هز رأسه بحركة أمِلَ منها أن تعطي انطباعًا باللامبالاة. «لا. أعتقد أن الطريقة التي تدربنا عليها تؤتي ثمارها. تقترحين شيئًا ما محددًا وأعزفه. بهذه الطريقة، لا يكون الأمر كما لو أنني أنسخ وأنسخ وأنسخ وحسب. كلماتك تفتح أمامي نوافذ كثيرة. إذا ما عزفت بنفسك، فلن تنفتح نوافذ أخرى. سأكون مجرد ناسخ وحسب».

أخذت وجهة نظره بعين الحسبان، ثم قالت: «أنت ربما محق. حسنًا، سأحاول أن أعبر عن نفسي على نحو أفضل قليلًا».

راحت تتحدث على مدى الدقائق التالية عن الفوارق بين المقاطع الختامية والأشطر الفاصلة بين دور موسيقي وآخر. ثم عندما لعب تلك الفواصل مرة أخرى ابتسمت وأومأت برأسها دلالة على استحسانها.

إلا أن غموضًا ما أصبح بعد ذلك الحوار يظلل الوقت الذي يقضيانه سويًّا بعد الظهيرة. قد يكون هذا الغموض رافقهما طوال الوقت، إلا أنه خرج الآن من الزجاجة مخلفًا ترددات بينهما. كانا جالسين مرة أخرى، في الساحة، وراح يتحدث كيف أن المالك السابق لآلة التشيللو الخاصة به تمكن من الحصول على الآلة أيام الاتحاد السوفييتي بمقايضتها ببضع سراويل من الجينز الأميركي. عندما انتهى من سرد قصته نظرت إليه بنصف ابتسامة فضولية قائلة:

- إنها آلة جيدة، وصوتها جيد. لكن بما أنني لم ألمسها قط فلا يمكنني الحكم عليها.

أدرك أنها في تلك اللحظة كانت تلامس تلك المسألة، وسرعان ما أشاح بنظره بعيدًا، قائلًا:

- بالنسبة إلى شخص في مكانتك فهي لن تكون آلة مناسبة. حتى بالنسبة إلي، فهي بالكاد مناسبة الآن.

وجد أنه لم يعد بإمكانه تجاذب أطراف الحديث معها من دون أن يداهمه التوتر، خوفًا من أن تستحوذ على الحوار وتنقله إلى تلك المنطقة. بل ظل جزء من ذهنه، حتى في أكثر حواراتهما متعة، على أهبة الاستعداد لإسكاتها إذا ما وجدت ثغرة أخرى. مع ذلك، فإنه لم يتمكن من تحويل مسار حديثها كليًّا في كل مرة، بل كان يدعي ببساطة بأنه لم يسمعها وهي تتفوه بتعليقات من قبيل: «أوه، سيكون الأمر أسهل بكثير إذا ما تمكنت من عزفها لك!».

بحلول نهاية سبتمبر - وقد أصبح النسيم الآن ممزوجًا بالبرودة - تلقى جيانكارلو مكالمة هاتفية من السيد كوفمان في أمستردام. كان ثمة مكان شاغر لعازف تشيللو في فرقة صالون في فندق خمس نجوم وسط المدينة. كانت الفرقة تقدم حفلات غنائية في غاليري مشرف على صالة لتناول الطعام لأربع أمسيات في الأسبوع، كما أن على الموسيقيين القيام بـ«واجبات خفيفة غير موسيقية» أخرى في بعض أقسام الفندق. أما شروط السكن والإقامة فمتوفرة.

وقد تذكر السيد كوفمان تيبور فورًا وفرصة الوظيفة مفتوحة أمامه. أوصلنا الخبر لتيبور على الفور - داخل المقهى في الأمسية نفسها التي اتصل فيها السيد كوفمان - وأعتقد أننا فوجئنا جميعًا ببرودة رد فعل تيبور، إذ تناقضت، دون أدنى شك، وسلوكه في أول الصيف عندما رتبنا له جلسة «اختبار» مع السيد كوفمان. أغضب سلوكه هذا، على وجه الخصوص، جيانكارلو.

- «ما الذي يستدعي كل ذلك التفكير المتأني؟» سأل الشاب. «ماذا كنت تتوقع؟ قاعة كارنيجي؟».
- أنا لست ناكرًا للجميل. رغم ذلك، عليَّ التفكير في هذه المسألة لبعض الوقت. العزف لأناس يثرثرون ويتناولون الطعام، والواجبات الفندقية الأخرى. هل يناسب كل هذا شخصًا مثلي؟

لطالما عرف جيانكارلو كشخص يفقد أعصابه بسهولة، وتحتم علينا الآن أن نحول دون إمساكه تيبور من سترته والصراخ في وجهه، حتى أن بعضنا شعر بأنه مضطر لأن يدعم الشاب في موقفه مشيرًا إلى أن ذلك يتعلق بحياته، قبل أي شيء، وأنه غير ملزم بالقيام بأي عمل لا يشعر بالراحة إزاءه. وحين هدأ كل شيء، في نهاية المطاف، أبدى تيبور موافقته بأن هناك بعض الإيجابيات في الوظيفة إذا ما نظر إليها كخطوة مؤقتة، وأن المدينة، متطرقًا إلى الأمر بعدم حساسية، ستدخل في حالة ركود إلى حد ما، مع انتهاء الموسم السياحي. وأمستردام على الأقل مركز ثقافي.

- «سأفكر في الأمر بتأن»، قال مختتمًا كلامه. «ربما عليكم إخبار السيد كوفمان لو سمحتم بأنني سأعلن قراري النهائي خلال ثلاثة أيام».

لم يكن جيانكارلو راضيًا عن هذا - بل توقع منه أن يبدي امتنانه، بعد كل شيء، لكنه ذهب للاتصال هاتفيًا بالسيد كوفمان. وخلال كل ما جاء في النقاش ذلك المساء لم يتم ذكر إيلويز ماكورماك، غير أنه كان من الواضح لنا أن نفوذها الكبير يقف وراء كل ما قاله تيبور.

- «لقد حولته تلك المرأة إلى متغطرس مغرور»، قال إرنستو بعد أن غادر تيبور. «فليأخذ سلوكه هذا معه إلى أمستردام. وسرعان ما سيضع نفسه في مواقف لا تحمد عقباها، ويطرد».

لم يخبر تيبور إيلويز قط عن اختباره مع السيد كوفمان. كان على وشك القيام بذلك غير مرة، ولكنه منع نفسه دومًا، وكلما تعمقت صداقتهما بدا له أكثر أن موافقته على ذلك الاختبار كانت خيانة يرتكبها بحقها. لذا، لم يشعر تيبور بطبيعة الحال بأي ميل لأخذ مشورة إيلويز في هذه التطورات الأخيرة، ولم يطلعها حتى، وإن بشكل محدود، على تفاصيلها. لكنه لم يكن يجيد إخفاء المواضيع كذلك، وكان لقراره بإبقاء سره بعيدًا عنها نتائج غير متوقعة.

كان الطقس دافئًا على نحو غير معتاد بعد ظهر ذلك اليوم. جاء إلى الفندق كالمعتاد، وأخذ يعزف أمامها بعض المقطوعات الجديدة التي حضَّر لها خصيصًا. ولكن بعد مرور ثلاث دقائق بالكاد، طلبت منه التوقف قائلة:

- ثمة خطب ما. هذا ما خطر في بالي فور دخولك. إنني أعرفك جيدًا الآن يا تيبور، ويمكنني القول إن ثمة خطبًا ما، بالنظر إلى الطريقة التي طرقت فيها الباب. والآن بعد سماعك تعزف بت على يقين من ذلك. لن يجدي الأمر نفعًا، لا يمكنك إخفاؤه عني.

كان في حال من الفزع، فخفض قوسه، وكان على وشك أن ينظف قلبه من كل شيء حين رفعت يدها قائلة:

- إنه شيء لا يمكننا الاستمرار في الهروب منه. لقد حاولت دومًا تجنبه، لكن لا فائدة. أريد مناقشته معك. على مدار الأسبوع الماضي كنت راغبة في مناقشته.
- «حقًّا؟»، نظر إليها دهِشًا.
- «نعم»، قالت وهي تنقل كرسيها بحيث أصبحت للمرة الأولى جالسة قبالته مباشرة. «لم يكن في نيتي قط خداعك يا تيبور. لكن الأسابيع

القليلة الماضية لم تكن الأفضل بالنسبة إليَّ، وأنت كنت فيها صديقًا عزيزًا. كم سأمقت الأمر لو أنك ظننت بأني كنت أمارس حيلة رخيصة عليك. لا، أرجوك، لا تحاول إيقافي عن الكلام هذه المرة. أريد قول كل شيء. إذا ما قدمت لي هذا التشيللو الآن وطلبت مني أن أعزف فسيكون عليَّ أن أرفض إذ لن يكون بمقدوري فعل ذلك. لا لأن الآلة غير جيدة كفاية، فلا علاقة للأمر بأي شيء من هذا القبيل. لكن إن كنت تظن بأنني مزيفة وأنني لطالما ادعيت شيئًا لا أجيده سأخبرك بأنك مخطئ. انظر إلى كل ما حققناه معًا. ألا يعتبر هذا دليلًا كافيًا على أنني لست مزيفة؟ لقد قلت لك إنني عالمة تشيللو. حسنًا، دعني أشرح ما قصدته. ما قصدته هو أنني ولدت بموهبة خاصة جدًّا، مثلك تمامًا. أنا وأنت نملك شيئًا لا يملكه معظم عازفي التشيللو، مهما تمرنوا. لقد تمكنت من تمييز ذلك فيك لحظة سمعتك أول مرة في تلك الكنيسة. وبطريقة ما، يجب أن تكون قد رصدت الأمر نفسه فيَّ أيضًا. ولهذا السبب قررتَ أنت القدوم إلى الفندق في المرة الأولى.

لا يوجد كثر مثلنا، تيبور، ونحن نرصد بعضنا البعض. أما حقيقة أنني لم أتعلم عزف التشيللو بعد، فإنها لا تغير شيئًا في الموضوع. ينبغي أن تدرك بأنني موسيقية من طراز رفيع. لكني شخص ما زال بحاجة أن يُخلَّص من أقمطته. أنت أيضًا. ينبغي عليك أن تُخلَّص من أقمطتك، وهو ما كنت أقوم به في الأسابيع القليلة الماضية. لقد حاولتُ مساعدتك لإضاءة الطبقات العميقة فيك. لكني لم أحاول خداعك. تسعة وتسعون في المائة من عازفي التشيللو لا يملكون شيئًا تحت تلك الطبقات، ليس هناك ما يمكن العثور عليه في الداخل. لذا، يتحتم علينا نحن أناس هذه الطينة مساعدة بعضنا البعض. عندما نلحظ بعضنا في ساحة مزدحمة، أينما كان ذلك، ينبغي علينا التواصل، إذ لا يوجد الكثير منا».

لاحظ أن ثمة دموعًا في عينيها، لكن صوتها بقي ثابتًا. كانت الآن صامتة وأشاحت ببصرها عنه مجددًا.

- «أنتِ إذن تعتقدين بأنك عالمة تشيللو»، قال بعد لحظة، «عالمة تشيللو، أما بقيتنا، آنسة إيلويز، فعلينا أن نتحلى بالشجاعة ونسبر تلك الطبقات، على حد قولك، من دون أن نكون متأكدين مما سنجده في الأعماق. ومع ذلك، فأنتِ لا تكترثين بسبر طبقاتك. أنت لا تفعلين شيئًا. لكنك مقتنعة تمامًا بأنك عالمة تشيللو...».
- لا تغضب من فضلك. أعلم أن الأمر يبدو ضربًا من الجنون، نوعًا ما. لكن هذه هي حالي، وهذه هي الحقيقة. أدركت أمي موهبتي فورًا منذ البداية، وكنت لا أزال صغيرة. إنني ممتنة لها على ذلك. لكن الأساتذة الذين أحضرتهم من أجلي حين كنت في الرابعة من عمري، وحين كنت في السابعة، وحين كنت في الحادية عشرة، لم يكونوا جيدين. أمي لم تكن تعلم ذلك، لكني عرفتُ، حتى وأنا مجرد فتاة صغيرة. فقد تحليت بتلك الغريزة. كنت أعرف أن عليَّ صون موهبتي من الأشخاص الذين يمكنهم تدميرها بالكامل، مهما كانت نواياهم حسنة. لذا أخرجتهم من حياتي. وعليك أن تفعل الأمر نفسه، تيبور. فموهبتك ثمينة.
- «اعذريني»، قاطعها تيبور، بطريقة أكثر لطفًا. «أتقولين بأنك عزفت آلة التشيللو كطفلة. لكنك اليوم...».
- لم ألمس الآلة منذ أن كنت في الحادية عشرة من عمري. منذ شرحتُ لأمي كيف أنني لا أستطيع الاستمرار مع السيد روث. وتقبلت الأمر. وافقت على أن من الأفضل عدم القيام بأي تمارين والانتظار. الأفظع لم يكن الإضرار بموهبتي وحسب. فاللحظة التي أنتظرها قد تحين يومًا ما رغم ذلك. حسنًا، أعتقد أحيانًا بأنني نحيت موهبتي جانبًا حتى فات الأوان. عمري الآن واحد وأربعون عامًا. لكني على الأقل لم ألحق ضررًا بالشيء الذي ولدت به. لقد التقيت أساتذة كثرًا على

مر السنين ممن قالوا إنهم سيساعدونني، لكني أدركت حقيقتهم. من الصعب أحيانًا معرفة الأمر يا تيبور، حتى بالنسبة لنا. فهؤلاء الاساتذة، محترفون، ويجيدون التكلم بشكل مثير للاهتمام، تصغي إليهم مرة، ويكونون قد أوقعوا بك. تقول في قرارة نفسك، نعم، أخيرًا ظهر شخص لمساعدتي، وهو واحد منا، ثم تدرك أن لا علاقة له بذلك. ويتحتم عليك أن تكون قاسيًا وتخرج نفسك. تذكر ذلك، يا تيبور. الأفضل دومًا أن تنتظر. أشعر أحيانًا بسوء حيال ذلك، وبأني لم أكشف النقاب عن موهبتي. لكني لم ألحق ضررًا بها، وهذا ما يعنيني.

عزف لها في النهاية بعض المقطوعات الموسيقية التي كان قد تجهَّز لها مسبقًا، إلا أنهما لم يتمكنا من استعادة مزاجهما المعتاد فأنهيا الجلسة قبل الأوان. ثم في الساحة، شربا القهوة، وتحدثا قليلًا، إلى أن أخبرها بعزمه مغادرة المدينة بضعة أيام. قال إنه لطالما رغب دومًا في استكشاف المناطق الريفية المحيطة بها، لذا أعدَّ نفسه لعطلة قصيرة.

- «سيكون ذلك جيدًا لك»، قالت بهدوء. «لكن لا تغِب لوقت طويل. ما زال أمامنا الكثير لإنجازه».

طمأنها أنه سيعود في غضون أسبوع في أقصى تقدير. رغم ذلك، كان لا يزال هناك بعض الاضطراب في طريقتها حالما افترقا.

لم يكن صادقًا تمامًا بشأن رحلته، إذ أنه لم يكن قد قام حتى تلك اللحظة بأية ترتيبات لهذه الغاية. لكنه إثر غادرت إيلويز بعد ظهر ذلك اليوم عاد إلى شقته وأجرى مكالمات هاتفية كثيرة، ليتمكن في النهاية من حجز سرير في نزل لليافعين في الجبال قرب حدود أومبريا. جاء لرؤيتنا في المقهى تلك الليلة، كما أخبرنا عن رحلته، فقدمنا له نصائح متضاربة من كل نوع، أين عليه الذهاب وماذا سوف يرى. ثم طلب بخجل من جيانكارلو أن يحيط السيد كوفمان علمًا بأنه قبل عرض العمل.

- «ماذا عساني فعله غير ذلك؟»، قال لنا. «في الوقت الذي سأعود فيه لن يكون قد تبقى معي أي مال إطلاقًا».

أمضى تيبور إجازة ممتعة في الريف. لم يخبرنا كثيرًا عن ذلك، باستثناء أنه أقام صداقات مع متنزهين ألمان، وأنفق على الحانات ما يفوق قدرته. عاد بعد أسبوع، وبدا منتعشًا بشكل واضح. غير أن حقيقة أن إيلويز ماكورماك لم تغادر المدينة أثناء غيابه أثارت قلقًا لديه.

كانت حشود السائحين قد بدأت تتضاءل في ذلك الوقت، كما بدأ الندل في المقهى بإخراج الدفّايات إلى التِراس ووضعها بين الطاولات في الهواء الطلق. في يوم عودته وكان ذلك بعد الظهيرة، حمل تيبور التشيللو إلى فندق إكسيلسيور في موعدهما المعتاد، وسُرَّ لمعرفة أن إيلويز لم تكن تنتظره وحسب بل إنها كذلك افتقدته. رحبت به بدفء، ومثلما قد يفعل أي شخص آخر، بدافع المودة المفرطة، بألا يتوقف عن تقديم الطعام أو الشراب، قادته إلى كرسيه المعتاد وبدأت بإخراج التشيللو من علبته، قائلة: «اعزف لي! هيا! اعزف وحسب!».

أمضيا فترة رائعة سويًّا بعد ظهر ذلك اليوم. كان قد انتابه القلق في وقت سابق، حول المسار الذي ستتخذه الأمور بينهما، بعد «اعترافها» والطريقة التي افترقا بها آخر مرة. لكن يبدو أن التوتر قد تبخر، وبدا الجو بينهما أفضل من أي وقت مضى. حتى عندما أغمضت عينيها بعد انتهائه من عزف المقطوعة، وباشرت في انتقاده بصرامة ولوقت طويل، فإنه لم يشعر بالامتعاض، وإنما فقط بتوق لفهم وجهة نظرها قدر الإمكان. في اليوم التالي، كما اليوم الذي تلاه، بقي الوضع بينهما على حاله: لا توتر، بل كان أحيانًا مملوءًا بروح الدعابة، وشعر بأنه لم يعزف بشكل أفضل طوال حياته. لم يلمِّح أي منهما على الإطلاق إلى ما دار بينهما من حديث قبل رحيله، ولم تسأله كيف أمضى استراحته في الريف. تحدثا فقط في الموسيقى.

لكن في اليوم الرابع لعودته، حالت سلسلة من الحوادث الصغيرة - بما في ذلك تسرب خزان المرحاض في غرفته - دون ذهابه إلى إكسلسيور في الساعة

المعتادة. وبحلول الوقت الذي مر فيه بالمقهى، كان الضوء قد تلاشى، وأضاء الندل الشموع داخل آنيات زجاجية صغيرة، كما كنا نلعب عددًا من الأغنيات لوصلة العشاء. لوَّح لنا بيده، ثم مشى عبر الساحة نحو الفندق، وقد جعله التشيللو يبدو كأنه يعرج.

لاحظ أن موظفة الاستقبال قد ترددت قليلًا قبل مهاتفة إيلويز. غير أنها حين فتحت له الباب، لاقى منها استقبالًا حارًّا، لكن على نحو مختلف هذه المرة، وقبل أن تتاح له فرصة التفوه بأي شيء قالت بسرعة:

- «تيبور، إنني سعيدة جدًّا بقدومك. لقد أخبرت بيتر كل شيء عنك. صحيح ما تسمعه، فبيتر تمكن من العثور عليَّ في النهاية!» ثم نادت: «بيتر، إنه هنا! تيبور هنا. ومعه التشيللو أيضًا!».

عندما دخل تيبور الغرفة، نهض رجل ضخم، بمشية متثاقلة، وقميص بولو شاحب، عن مقعده وحياه بابتسامة. أمسك بيد تيبور وشد عليها قائلًا: «أوه، لقد سمعت كل شيء عنك. وإيلويز مقتنعة بأنك ستصبح نجمًا كبيرًا».

- «بسبب إصرار بيتر»، قالت، «أدركت بأنه سيجدني في النهاية».
- «لا أحد يفلح في الاختباء مني»، قال بيتر. وبينما كان يقدم كرسيًّا إلى تيبور، ويسكب له كأسًا من زجاجة شمبانيا وضعت في دلو ثلج على الخزانة، قال: «هيا تيبور، احتفل معنا بجمع شملنا مجددًا».

احتسى تيبور الشمبانيا، مدركًا أن بيتر قد اختار له، بدافع الصدفة، «كرسي التشيللو» المعتاد. كانت إيلويز قد اختفت في مكان ما، ولوهلة، تجاذب بيتر وتيبور أطراف الحديث وكأساهما في يديهما. بدا بيتر لطيفًا وطرح أسئلة كثيرة. كيف كانت نشأة تيبور في مكان مثل المجر؟ وما إذا كان قد صدم حين جاء إلى الغرب؟

- «أتمنى لو أنني استطعت العزف على آلة موسيقية»، قال بيتر. «أنت محظوظ. بِودّي أن أتعلم. لكني أظن أن الأوان فات على هذا».
- «أوه، لا يمكننا أبدًا قول إن الأوان فات»، قال تيبور.

- أنت محق. لا ينبغي أبدًا قول إن الأوان فات. فوات الأوان ليس إلا ذريعة. كلا، الحقيقة هي أنني رجل انشغالاتي كثيرة، وبالطريقة عينها أقول لنفسي إن لا وقت لدي لتعلم اللغة الفرنسية، لتعلم العزف على آلة موسيقية، لقراءة رواية «الحرب والسلم». كل الأشياء التي طالما حلمت بفعلها. اعتادت إيلويز العزف حين كانت طفلة. أعتقد أنها أخبرتك بذلك.
- نعم، أخبرتني. فهمت منها أن لديها مواهب عديدة بالفطرة.
- «أوه، هذا مؤكد. كل من يعرفها بمقدوره رؤية ذلك. تتمتع بتلك الحساسية. إنها الشخص الذي ينبغي أن يتلقى دروسًا. أما أنا، فالسيد أبو أصابع موز وحسب». رفع يديه وضحك. «أرغب في العزف على البيانو، لكن ماذا يمكن فعله بيدين كهاتين؟ إنهما مناسبتان للحفر في الأرض، وهذا ما فعله شعبي لأجيال وأجيال. لكن تلك السيدة»، مشيرًا إلى الباب بكأسه، «إنها تتمتع بالحساسية».

خرجت إيلويز في نهاية المطاف من غرفة النوم بثوب سهرة أسود والكثير من المجوهرات.

- «بيتر، لا تضجر تيبور»، قالت. «إنه غير مهتم بلعب الغولف».

بسط بيتر يديه ملتمسًا صراحة تيبور وسأله: «أخبرني الآن، تيبور. هل تفوهت أمامك بكلمة واحدة عن لعبة الغولف؟».

قال تيبور إن عليه المغادرة، إذ لا يريد تأخير الزوجين عن تناول العشاء. لكن ذلك قوبل باعتراضات كليهما، وقال بيتر:

- انظر إليَّ الآن. هل أبدو وكأنني أرتدي ثيابًا للعشاء؟

رغم ذلك، فإنه بدا لتيبور أنيقًا على نحو تام، فأطلق الضحكة المتوقعة منه. بعدها قال بيتر:

- لا يمكنك المغادرة من دون عزف شيء ما. لقد سمعت الكثير عن عزفك.

شاعرًا بالارتباك، بدأ تيبور حلَّ علبة التشيللو، عندما قالت إيلويز بحزم، وبرنة جديدة في صوتها نوعًا ما:

- تيبور محق. إنه الوقت المناسب ليغادر. فالمطاعم في هذه المدينة لا تبقي على حجز طاولتك إذا تخلفت عن الوصول في الوقت المحدد. بيتر، جهز نفسك. احلق وجهك ربما؟ سأرافق تيبور إلى خارج الفندق. أريد التحدث معه على انفراد.

في المصعد، ابتسم أحدهما للآخر بمودَّة، لكنهما لم يتحدثا. وعندما باتا خارج الفندق، وجدا أن الساحة قد أضيئت استعدادًا لحلول الليل. كان أطفال المدينة، وقد عادوا من عطلتهم، يركلون الكرات، أو يطاردون بعضهم حول النافورة. أما نزهات المساء البطيئة سيرًا على الأقدام فكانت محتشدة، وأفترض أن موسيقانا تدفقت عبر الهواء حتى وصلت إلى حيث وقفا.

- «حسنًا، هكذا الأمر»، قالت في نهاية المطاف. «لقد وجدني، لذا أعتقد أنه يستحقني».
- «إنه أكثر الرجال جاذبية»، قال تيبور. «هل تنوين العودة إلى أميركا الآن؟».
- في غضون أيام. أفترض أن هذا ما سيحدث.
- هل تنوين الزواج؟
- «أظنُّ ذلك». وللحظة، نظرت إليه بجدية، ثم أشاحت بعينيها. «أظن ذلك»، قالت مرة أخرى.
- أتمنى لك كل السعادة. إنه رجل طيب. كما أنه عاشق للموسيقى. وهذا مهم بالنسبة إليك.
- نعم. مهم فعلًا.
- لم يكن حديثنا أثناء استعدادك عن لعبة الغولف، وإنما دروس الموسيقى.
- حقًّا؟ دروس له أو لي؟

- أنتما معًا، لكني لا أظن أن ثمة أساتذة كثرًا في بورتلاند، أوريغون، ممن يمكنهم تعليمك.

ضحكت. «مثلما قلت، الأمر صعب على أشخاص مثلنا».

- «نعم، أقدر ذلك. بعد الأسابيع القليلة الماضية، أقدر ذلك أكثر من أي وقت مضى». ثم أضاف: «آنسة إيلويز، هناك شيء يجب أن أخبرك به قبل أن نفترق. سأغادر قريبًا إلى أمستردام. لدي وظيفة الآن في فندق كبير».
- هل ستعمل حمالًا؟
- لا. سوف أعزف ضمن فرقة لموسيقى الصالون في حجرة طعام الفندق. نسلي ضيوف الفندق أثناء تناولهم الطعام.

تأملها بعناية ورأى أن شيئًا ما قد توقَّد في أعماق عينيها، ثم تلاشى. وضعت يدها على ذراعه مبتسمة.

- «حسنًا، حظًّا سعيدًا». ثم أضافت: «ضيوف الفندق أولئك. ثمة هدية إذن تنتظرهم».
- آمل ذلك.

ظلا واقفين معًا لحظة أخرى، خلف بركة الضوء التي ألفتها واجهة الفندق، والتشيللو الضخم بينهما.

- «وآمل أيضًا»، قال، «بأن تعيشي بسعادة كبيرة مع السيد بيتر».
- «آمل ذلك أيضًا»، قالت وضحكت مرة أخرى. ثم قبلته على خده وعانقته بسرعة. «اعتنِ بنفسك»، قالت.

شكرها تيبور، وبعد لحظات كانت عيناه تراقبانها وهي تسير نحو فندق إكسيلسيور.

غادر تيبور مدينتنا بعدها بفترة قصيرة. في المرة الأخيرة التي تناولنا فيها الشراب معه بدا واضحًا امتنانه لجيانكارلو وإرنستو لإيجادهما ذلك العمل له،

كما امتنانه لنا جميعًا لصداقتنا. ورغم ذلك تولد لدي انطباع بأنه كان متحفظًا بعض الشيء إزاءنا، بل إن بعضنا شعر بهذا، ولست وحدي وحسب، رغم أن جيانكارلو الآن أصبح مدافعًا عن تيبور، بشكل نموذجي، قائلًا إن الشاب يشعر بالحماسة وإنه متوتر بسبب انتقاله إلى مرحلة جديدة من حياته.

- «يشعر بالحماسة؟ كيف يمكن أن يشعر بالحماسة؟»، قال إرنستو. «لقد أمضى الصيف وهو يقال له بأنه عبقري. وظيفة في فندق؟ إنه تنازلٌ من قبله. أن يجلس ويتحدث إلينا، ذلك تنازل أيضًا. كان شابًا جميلًا في بداية فصل الصيف. لكن بعد ما فعلته تلك المرأة به، يسعدني أن يرينى عرض كتفيه».

كما قلت آنفًا، حدث هذا كله قبل سبع سنوات. جيانكارلو، إرنستو، وكل الشبان، من تلك المرحلة، باستثنائي وفابيان، جميعهم انتقل من هنا. هذا إلى أن لمحته في الساحة في ذلك اليوم. لم أفكر في المايسترو الهنغاري الشاب لفترة طويلة. ولم يكن من الصعب التعرف عليه. كان قد اكتسب بعض الوزن، بالتأكيد، وبدا أثخن بشكل كبير عند العنق. كما أن الطريقة التي استخدم فيها إصبعه، للإشارة إلى النادل، كان فيها - أو أنني أتخيل ذلك - شيء من التململ، والفظاظة اللذين يأتيان ممزوجين بنوع معين من الوجع. لكن ربما يكون ذلك غير منصف من قبلي. ذلك أنني بعد كل شيء، لمحته فقط. مع ذلك، فقد بدا لي أنه فَقَد تلك اللهفةَ النضرة لنيل إعجاب الآخرين، والأخلاقَ الحميدة التي تحلى بها في ذلك الوقت. ليس أمرًا سيئًا في هذا العالم، ربما تقول.

كان يمكنني الذهاب إليه والتحدث معه، لكن مع انتهاء عرضنا كان قد غادر الساحة. كل ما أعرفه هو أنه كان موجودًا هناك بعد تلك الظهيرة، وكان مرتديًا بدلة، ليست فخمة، مجرد بدلة عادية. ربما كانت لديه وظيفة يومية خلف مكتب في مكان ما، وربما أعمال عليه الاهتمام بها في ناحية قريبة من هنا، وقد أتى إلى مدينتنا كرمى للذكريات الماضية. من يدري؟ إذا ما عاد إلى الساحة، ولم أكن منشغلًا بالعزف، فسأذهب للتحدث معه.

المحتويات

المغنِّي العذْب 5
Come Rain or Come Shine 35
تلال مالفيرن 83
ليليَّات 117
عازفا التشيللو 175

مكتبة
t.me/ktabrwaya

"مجموعة قصصية رائعة ومؤثّرة، تعرض توليفة فريدة للحزن والجَلَد والمؤاساة. إنها عن الإخفاق لكنها تبجِّله وتبجِّل معه الحالة البشرية."

مارغريت درابل، صحيفة الغارديان البريطانية

تدور هذه القصص البديعة حول الموسيقى والعلاقات الإنسانية، حول علاقات الحب المأزومة التي وصلت نهاياتها، ومشاعر الندم والخيبة في الحياة. ويستخدم إيشيغورو الموسيقى كخلفية لرواية هذه العلاقات المعقدة من الحب والرغبة التي تقوم بين البشر.

يسعى الروائي العالمي الشهير إلى وضع بصمته في القصة، كما وضعها في الرواية، في قصص محتشدة بالحوارات الكاشفة عن طبائع شخصياتها وميولها وطموحاتها وما تحلم به، لكنه لا يتحقق. إنها قصص عن الغروب والانطفاء والليل الذي يرخي سدوله على البشر والأشياء.

ولد كازو إيشيغورو عام 1954 في مدينة ناغازاكي اليابانية، التي ألقت عليها القوات الأمريكية قنبلة ذرية عام 1945. وقد انتقل مع والديه إلى إنجلترا عام 1960 ليستقر هناك ويبدأ الكتابة باللغة الإنجليزية. نشر إيشيغورو سبع روايات: «منظر شاحب للتلال» (1982)، و«فنان من العالم العائم» (1986)، و«بقايا النهار» (1989)، و«من لا عزاء لهم» (1995)، و«عندما كنا يتامى» (2000)، و«لا تدعني أرحل أبداً» (2005)، و«العملاق المدفون» (2010)، إضافة إلى مجموعة قصصية واحدة «ليليات». وقد تحولت روايتاه «بقايا النهار» و«من لا عزاء لهم» إلى فيلمين سينمائيين شهيرين. كما حصل إيشيغورو على عدد كبير من الجوائز من بينها: جائزة البوكر البريطانية (1989) عن روايته «بقايا النهار»، وجائزة نوبل للآداب 2017 عن مجمل أعماله.

t.me/ktabrwaya

دار جامعة حمد بن خليفة للنشر
HAMAD BIN KHALIFA UNIVERSITY PRESS

www.hbkupress.com
ISBN: 978-9927129414
90100